

علام العرب

٦٧

عُلمُ مكرم

بطل المقاومة الشعبية

تأليف

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي

يولية ١٩٦٧

دار
الكاتب
المصري
للطباعة
والنشر

أعلام العرب
٦٧

عِزُّ مَكْرُمٍ
بطل المقاومة الشعبية

تأليف
دكتور عبد العزيز محمد الشاوي

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مقدمة

يحتل السيد عمر مكرم مكانا مرموقا بين أعلام العرب منذ ظهر في الحياة السياسية في أواخر القرن الثامن عشر . وهو رعيم سياسى ينتمى الى الدوحة النبوية الشريفة . هفت نفسه الى الإيفال في العلم فشد رحاله من أسيوط ، مسقط رأسه ومرتع صباه ، الى القاهرة ، والتحق بالأزهر حيث قضى في رحابه سنين عددا يتلقى العلم عن أشياخ عصره . ولما أتم دراسته في هذه الجامعة العتيقة على النحو المألوف في زمنه ، انصرف الى الحياة العامة يسهم فيها بنصيب موفور . وتقلد نقابة الأشراف . ولمع اسمه حين هبطت أرض مصر الحملة الفرنسية ، ناهض الفرنسيين ورفض أن يكون من أعوان الاحتلال الفرنسى على الرغم من وسائل الاغراء التى استخدمها معه رجال الحملة .

والسيد عمر مكرم يمثل طرازا فريدا بين زعماء العرب فى التاريخ الحديث . كان مسلما فى عقيدته ، أزهريا فى ثقافته ، عربيا فى أصلاته ، عثمانيا فى نزعتة . ولا تثريب عليه فى نزعتة العثمانية فالمجتمع الذى عاش فيه كان مجتمعا دينيا . وكان الشعب المصرى لا ينظر الى سلطان الدولة العثمانية على أنه حاكم أجنبى دخيل مستعمر أو مستغل ، بل كان ينظر اليه على أنه سلطان الاسلام أو سلطان المسلمين ، وأن الدولة العثمانية هى دولة الاسلام الكبرى تظل المسلمين بظلها الظليل . وكان أن نجح العثمانيون فى فرض

استعمار مقنع على مصر وسائر أجزاء العالم العربى باسم الدين ،
والدين منه براء .

والسيد عمر مكرم زعيم شعبى ، التصق بالشعب وبث فيه روح العزة والكرامة . واستمد من الشعب قوته ومكانته اللتين سما اليهما . وكان الشعب يفرغ اليه كلما اشتدت عليه مظالم الحكام يطلب تدخله لديهم لرفع المظالم عن كاهله . لقد تعرض الشعب بعد اجلاء الفرنسيين لفترة من أحلك الفترات التى مر بها فى تاريخه الحافل . سادت البلاد فوضى سياسية عنيفة لم ير الشعب لها من قبل مثيلا . تصارع على الحكم فيها العثمانيون والمماليك ، وتصارع على النفوذ فيها الانجليز والفرنسيون . وكان الشعب الكادح هو ضحية هذا التصارع الرهيب : اضطرب الأمن ، وانقطعت وسائل الاتصال بين أجزاء البلاد ، وتدهورت الحياة الاقتصادية ، وعزت الأقوات ، وامتلات مصر بأخلاط شتى من الجنود لم تربطهم بالشعب آصرة من ود أو تعاطف . كانوا ينهبون المتاجر ويهاجمون المنازل ويعتدون على الأعراض ويتخطفون العمائم من رؤوس المارة . وعمد المصريون الى ربط عمائمهم فى رؤوسهم . ومضى العسكريون العثمانيون يمعنون فى عمليات السلب والنهب والقتل وينشرون الرعب فى الريف والحضر على السواء . وتدخل السيد عمر مكرم لدى السلطات الحاكمة لوقف هذه الآثام . ولكن كان زمام الموقف قد خرج من يد الحكام الذين عجزوا عن تطويع الجنود . وعاش المصريون عهدا قاتما مظلما كثيف الاظلام . ولما اشتدت الكروب بالشعب وجاوز الظالمون المدى قاد السيد عمر مكرم ثورة شعبية هادرة فى وجه وال عثمانى هو أحمد خورشيد باشا أسرف اسرافا بعيدا فى ظلم الشعب . ونجحت الثورة وتم انقلاب مايو ١٨٠٥ وفيه استطاع الشعب بصدقه الثورى أن يفرض ارادته ويعزل الوالى الظليم

ويولى محمد على حكم مصر وفق مبادئ معينة وضعها السيد عمر مكرم وارتضاها محمد على دستورا لحكمه . وكان أهمها إقامة العدل والكف عن المظالم وعدم استغلال الشعب والرجوع الى الزعماء . ورضخ السلطان العثماني في الآستانة لسياسة الأمر الواقع ، فأصدر مرسوما أقر فيه الوضع الجديد « حيث رضى بذلك العلماء والرعية » كما جاء في منطوق المرسوم . وزادت مكانة عمر مكرم في نظر الشعب وتبوأ مكانا عليا لم يبلغه زعيم آخر من قبل ، وغدا زعيم زعماء مصر في مطلع القرن التاسع عشر .

وبرز السيد عمر مكرم بروزا واضحا قويا حين تعرضت مصر في سنة ١٨٠٧ لحملة بريطانية كانت تجمع خليطا غريبا من الجنود الانجليز ومن الجنود المرتزقة الايطاليين ومن المهاجرين الفرنسيين الذين وقفوا موقفا عدائيا من الثورة الفرنسية . وقام عمر مكرم باستنفار الشعب وأمر بايقاف الدراسة في الأزهر حتى ينصرف علماءه ومجاوروه الى صد العدوان . وجمع المتطوعين وجهزهم للسفر الى رشيد وأسهم في إقامة التحصينات العسكرية حول القاهرة . وقد أخفق العدوان البريطاني على مصر . وعادت فلول الحملة تجر أذيال الحيرة والفشل الى جزيرة صقلية التي اتخذتها انجلترا قاعدة عسكرية للعمليات الحربية في حوض البحر المتوسط ضد نابليون .

وركن محمد على الى الزعيم فكان ذراعه الايمن يرجع اليه في شئون الحكم وكان الزعيم له نعم العضد الأمين . واستطاع محمد على بفضل تدخل عمر مكرم ووقوفه الى جانبه أن يجتاز بنجاح الأزمات والصعاب التي واجهته خلال السنوات الأولى من حكمه . ولم يطل أمد التعاون الوثيق بين الزعيم عمر مكرم وبين الوالي محمد على ، فان الأخير - بعد أن وطد أركان حكمه - بدأ يكشف عن نزعته الاستبدادية وعن رغبته في اقضاء الزعامة الشعبية

صاحبة الفضل عليه فى الوصول الى منصبه ، فاذا به يتنكر لها
ويشتط فى فرض الضرائب الجزافية ويهدد أفراد الشعب بقط
الرقاب اذا فكروا فى الثورة عليه . ويدرك الزعيم أن هذا الواؤ
يعمل على شاكلة الولاة العثمانين . فوقع ما لم يكن منه بد وهو
المعارضة ثم الصدام .

وقف عمر مكرم فى معارضته لمحمد على موقفا بطوليا فريدا
لم يقفه غيره من زعماء مصر فى ذلك الوقت ، اذ ضـعفوا ووهنوا
واستكانوا لمحمد على خوفا وطمعا ، خوفا من بطشه ، وطمعا فى
مزيد من المناصب والأموال ، نجح محمد على فى التلويح لهم بها كى
ينقلبوا على كبيرهم وزعيمهم عمر مكرم ، وأفلح محمد على فى خطته
ووقف عمر مكرم بمفرده دون سائر الزعماء صامدا فى أحلك أوقات
المحنة فى وجه محمد على . لم يرهبه جبروت هذا الحاكم ، ولم
يبهره بريق المال ولا أبهة المناصب ، بل ظل وفيا لمبادئه مناضلا
عن حقوق الشعب .

لقد لقي محمد على - فيما لقى فى مستهل حكمه - نوعين من
المعارضة : معارضة سافرة صريحة جريئة حمل لواءها عمر مكرم ،
نعى عليه أسلوبه الباغى فى حكم الشعب واسرافه فى فرض
الضرائب وعدم الرجوع الى زعماء الشعب فى مشكلات الحكم ،
واتهمه باختلاس الأموال العامة وبالتزوير فى كشوف إيرادات
ومصروفات الحكومة المصرية التى كان يبعث بها محمد على الى الباب
العالى فى الآستانة . ثم كان هناك النوع الثانى من المعارضة
وهو المعارضة الخفية المستترة ، وقد تمثلت فى الشيخ عبد الرحمن
الجبرتى المؤرخ المشهور ، وما كان يسطره فى كراساته من تصرفات
وما يسجله عليه من أنواع الظلم وما يهمس به فى مجالسه الخاصة
من نقد لاذع ومعارضة لأساليبه التعسفية . وكان الشيخ الجبرتى
شديد التحمس للنظرية السياسية الإسلامية وهى أن عدل الحاكم

نرط أساسى لطاعة المحكومين له . وقد ضاق محمد على ذرعا بهذه
معارضة بنوعيتها : السفرة والمستترة وعزم على القضاء عليها .
بدأ بالمعارضة السفرة لأنها كانت أشد خطرا عليه وهو فى
مستهل حكمه ، فوقع الصدام بين عمر مكرم وبين محمد على .
وانتهى هذا الصدام بعزل عمر مكرم من نقابة الأشراف واقصائه عن
الحياة العامة بنفيه من القاهرة ، وتشويه سمعته العطرة بالصاف
تهم كاذبة به أبلغت الى الباب العالى فى الآستانة .

أما المعارضة الخفية فقد تكفل بأسكاتها محمد بك الدفتردار
صهر محمد على ، اذ سولت له نفسه ان ينتقم من الشيخ
عبد الرحمن الجبرتى فقتل ابنه خليل ، وكان الشيخ قد أصبح
طاعنا فى السن أشرف على السبعين فروع بفجعية الشكل فى فلذة
كبده ، وابيضت عيناه من الحزن ، وتعذر عليه مراقبة الحوادث
وتسجيلها ، وتوقف عن الكتابة الى أن جاز الى ربه .

لم تكن حياة عمر مكرم ناعمة هادئة ، فقد تعرض لشتى
صنوف الأذى : النفى الاختيارى تارة والنفى الاجبارى تارة أخرى ،
وصودرت ممتلكاته ونهبت أمواله ، وحددت اقامته ، ونزعت منه
نقابة الأشراف ثلاث مرات . ولو كان عمر مكرم من الزعماء الذين
يداهنون الحكام لجرى عليه الرزق رغدا من كل مكان ، ولكنه
توفر فى اخلاص على الدفاع عن حقوق الشعب الكادح وحمل
جذوة النضال ووقف فى وجه الغزاة الفرنسيين والبريطانيين
وفى وجه الحاكـم المستفل الظالم محمد على وقفة صارمة
خالصة لله وللوطن ولم يكن كفاحه السياسى جريا وراء
مفانم يظفر بها من جاه أو منصب أو مال . فقد كان
طوال حياته عزوفا عن المال زاهدا فى الجاه منصرفا عن
المناصب وقد عاصر عمر مكرم فترات من التاريخ المصرى حفلت
بالأحداث الجسام والتغيرات الجذرية كان لها أثرها البعيد فى حياة

البلاد طيلة القرن التاسع عشر . شـهـد عـمر مـكـرم نـهـايـة النـظـام العـثـمـانـي المـلـوكـي و قـدوم الحـمـلة الفـرنـسـيـة الـى مـصـر ثـم عـهـد الـانـقـلابـات السـيـاسـيـة عـقـب اـجـلاء الفـرنـسـيـين الـى أن تـم تـنـصـيـب مـحـمـد عـلى وـالـيـا عـلى مـصـر ، و ما أعـقـب ذلـك مـن أزمـات سـيـاسـيـة و أخطـار خـارجـيـة .

ولـم تـكـن حـيـاة عـمر مـكـرم خـاليـة مـن المـآخذ السـيـاسـيـة ، و قد سـجـلـنـاها عـلـيـه و ناقـشـنـاها ، كـما حـرـصـنا عـلى ابراز بـعض مـسـائل هـامـة فـى تـاريـخ مـصـر القـومـي تـتـصـل اـتـصـالا و ثـيـقا بـعـمر مـكـرم ، مـنـها : أـسـباب عـدم مـبـادـرة الشـعـب المـصـرى الـى المـنـاداة بـعـمر مـكـرم أو بـزـعـيم مـصـرى آخـر و الـيـا عـلى مـصـر ، و الـأسـباب الـتى جـعلت عـمر مـكـرم يـتـجـه الـى اـخـتـيـار مـحـمـد عـلى بـالذات لـيـكـون و الـيـا عـلى مـصـر ، و مـنـها أـيـضـا تـفـنـيد الـأسـطـورة الـتى روج لـها رجاـل السـيـاسـة و الـاـقـتـصـاد فـى فـرنـسا فـى القـرن الـتـاسـع عـشـر و مـطـلـع القـرن العـشـرين ، و هـى اسـكـارة تـجـرد الزـعـيم مـن دورـه القـيـادى فـى انـقـلاب ١٨٠٥ و تـضـفـى عـلى نـابـليـون الـأول الفـضـل فـى هـذا الـانـقـلاب .

لـقد ذـهـب عـمر مـكـرم فـى تـاريـخ مـصـر كـلـها بـطـلا و زـعـيـما شـعـبـيا سـجـل فـى تـاريـخ و طـنـه صـفـحات سـتـظـل بـاهـرة الضـيـاء عـبر القـرون و الـادـهـار .

دكتور

عبد العزيز محمد الشناوى

أستاذ كرسى التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الأزهر

هـ ١٣٨٧ من ربيع اول ١١ } هـصر الجديدة فى
م ١٩٦٧ من يونيو ١٩ }

البَابُ الْأَوَّلُ

عمر مكرم إبان العصر العثماني المملوكي

الفصل الاول

ملاحج العصر العثماني المملوكي

تم الغزو العسكري العثماني لمصر العربية في مطلع سنة ١٥١٧ ، وسقطت دولة المماليك الشراكسية ، وفقدت مصر استقلالها ، وانفصلت عرى الوحدة التي كانت قائمة بين مصر والشام ، وزالت تبعية الحجاز لمصر بعد أن تحول شريف مكة بولائه نحو الدولة العثمانية ، وانتقل مركز الخلافة من القاهرة الى الآستانة ، وخسرت مصر زعامة العالم الاسلامي وهبطت الى ولاية عثمانية .

رأى العثمانيون أن في وفرة خيرات مصر وتنوع مواردها وكثرة عدد سكانها وبعدها عن مقر الحكم في الآستانة ما يغري واليا ذا أطماع سياسية على الاستقلال بها ، فوضعوا لحكم مصر نظاما معقدا يستهدف ضمان بقائها ولاية عثمانية ، وتمثل هذا النظام في ايجاد هيئات متعددة متباينة تشترك معا في شئون الحكم ويوازن بعضها بعضا حتى لا تنفرد بالحكم هيئة دون الهيئات الأخرى . وتكونت هذه الهيئات من الباشا وهو نائب السلطان العثماني في حكم مصر ورئيس الحكومة المصرية . وكان مقره القلعة . واختصاصاته عديدة متنوعة ولكن كان يغلب على معظمها الطابع الرياسي فقط . فلم يكن مطلق التصرف في المسائل الهامة، بل كان عليه أن يحيلها الى الديوان في القاهرة ليتخذ فيها قرارا . وكان الوالي يتلقى أوامر السلطان فيخطر بها الأجهزة الحكومية

المختصة لتنفيذها . وكانت له رئاسة الاحتفالات العامة وهو الذى يعلن الفرح فى المناسبات السعيدة مثل انتصار السلطان فى حروبه أو اذا رزق السلطان بمولود ذكر أو اذا تزوجت إحدى كريمات السلطان . وتتراوح مدة بقاء الباشا فى منصبه بين سنة وثلاث سنوات ولا تزيد عن هذه الفترة الا نادرا جدا . وتمثلت الهيئة الثانية فى جيش الاحتلال العثمانى وكان يتكون من عدة فرق تمثل الاسلحة المختلفة فى الجيش العثمانى مثل المشاة والفرسان والمدفعية (الطوبجية) والبحرية وما الى ذلك . وخضعت هذه الفرق فى تنظيمها العسكرى لنفس النظام المعمول به فى الجيش العثمانى . ولم تكن ذات صبغة عثمانية خالصة فكانت تضم عناصر من الأتراك والشوام والمغاربة والعرب والمماليك . وكان عدد الجيش اثنى عشر الف جندى ، **ويلاحظ أنه كان للجيش فى الدولة العثمانية وظيفتان : الحرب والاشتراك فى الحكم . وقد طبق العثمانيون هذا المبدأ بشقيه فى مصر** ولذلك امتدت اختصاصات جيش الاحتلال الى القطاعين العسكرى والمدنى على السواء ، فكان للعسكريين بجانب الحرب اختصاصات سياسية وادارية ومالية وتمويلية وما الى ذلك . أما الهيئة الثالثة فكانت المماليك وقد أبقاهم العثمانيون عنصرا هاما فى الشئون الحربية والادارية فى مصر تحت السيادة العثمانية لأنهم لمسوا فيهم قوة حربية ممتازة رأوا توجيهها لخدمة الدولة العثمانية والدفاع عن البلاد) فضلا عن أنهم يعرفون مصر جيدا لطول اقامتهم بها . وكون العثمانيون أيضا الديوان الكبير ويتكون من قادة فرق جيش الاحتلال والأمراء المماليك وكبير القضاة ورجال الافتاء على المذاهب الأربعة وكبار رجال الدين والدفتردار وهو رئيس ديوان المالية . وكان الديوان الكبير يجتمع أحيانا عدة مرات فى الأسبوع كلما دعت الحاجة الى عقده ، ويترك الباشا رئاسة الديوان لنائبه ويتابع

هو جلساته من وراء ستار على غرار ما كان يفعل السلطان في ديوان الآستانة (١) .

بقى هذا النظام معمولاً به ما بقيت الدولة العثمانية مهيبه الجانب قوية النفوذ والسلطان ، ولكن حدث في القرن الثامن عشر أن تدهور النفوذ العثماني نتيجة ضعف الدولة العثمانية . وأصبح الباشا في مصر مسلوب السلطة ، واستشرى نفوذ جيش الاحتلال العثماني خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر وتطلع العسكريون الى مزيد من الوظائف المدنية والاختصاصات والمرتبات والامتيازات، وزحفوا مدنيا الى مرافق البلاد يبتغون التسلط عليها لتحقيق مغانم شخصية لهم على حساب مصالح الشعب الكادح ، ثم انقلبت الأوضاع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر اذ أصبح الأمراء المماليك هم الهيئة الحاكمة وتسلبوا الى المناصب القيادية في الحكومة والجيش وتوارى نفوذ العسكريين العثمانيين ، وبذلك تصدىع نظام الحكم العثماني الذي أرسى قواعده السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ . ويعنينا في هذا البحث ما طرأ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لأنه في هذه الفترة ظهر عمر مكرم وأطل على الحياة السياسية في مصر .

عمل الأمراء المماليك على تدعيم مركزهم بالاستكثار من شراء المماليك وتدريبهم تدريباً عسكرياً ممتازاً وتزويدهم بالأسلحة والخيول الأصيلة ، واستولوا على معظم الأراضي الزراعية عن طريق نظام الالتزام ، وبلغوا من القوة شأواً بعيداً بحيث أنهم كانوا يمتنعون عن ارسال الجزية الى السلطان بانتظام ويعزلون الباشا

(١) انظر بخصوص نظام الحكم الثماني في مصر

Combe Etienne, L'Egypte Ottomane de la Conquete par Seïim (1517) à l'arrivée de Bonaparte Précis de l'Histoire d'Egypte (4 vols.) t III Le Caire, 1933), pp 51-67

إذا غضبوا عليه ، ويرضخ الباشا لقرار العزل ويغادر القلعة مجردا من كل سلطان ويقيم فى أحد المنازل حتى تتم اجراءات ترحيله ، وكان السلطان يصدر مرسوما بتعيين باشا آخر . اما رجال جيش الاحتلال فقد ضعفت صلاتهم بالآستانة ، وكانت الادارة المالية فى الحكومة المصرية فى أيدي المماليك ، فكان العسكريون تابعين لهم من الناحية المالية فى وقت عظم فيه نفوذ المماليك فتملقهم ضباط جيش الاحتلال وجنوده وأصهروا اليهم وأصبحوا من عشيرتهم وأتباعهم ، ومن ناحية أخرى تغفل المماليك فى مناصب جيش الاحتلال حتى أصبح رؤساء الفرق وأغلب ضباطها من المماليك .

وعلى الرغم من أن المماليك قد بلغوا هذا الحد من القوة واستأثروا بالحكم الا أنهم فشلوا فى الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية . ويرجع هذا الفشل الى انقسام الأمراء المماليك بعضهم على بعض وتنافسهم وتناحرهم فقد عجزوا عن توحيد كلمتهم والخضوع لزعامة أمير منهم يصل بهم وبمصر الى الاستقلال التام . وكان اذا ظهر أمير منهم وتجمعت له أسباب القوة كان الأمراء الآخرون المنافسون له هم أول من يثور عليه ويناصبونه العداة السافر ، وتقع المشاحنات والحروب . وفى معظم الحالات كان يلقي مثل هذا الأمير مصرعه . أما اذا نجا من القتل فكان يلجأ الى الصيد ويعيد تنظيم قواته ويعود الى محاربة خصومه . وتستمر الحرب سجالا . وكانت مهمة الدولة العثمانية هى الايقاع بين الأمراء المماليك وزيادة أسباب الانقسام بينهم . وكانت المشاحنات والحروب هى الظاهرة الشائعة فى تاريخ مصر وقتذاك . وكتابة الجبرتي حافلة بهذه الصور الدامية للحروب الداخلية التى كانت تدور فى شوارع القاهرة وفى قرى مصر .

تتمثل هذه الظاهرة فى حركة على بك الكبير (١٧٦٨ - ١٧٧٣) الذى كان فى مهده طفلا مسيحيا اسمه يوسف اختطفته عصابة

من قطاع الطرق فأسروه بضاعة وباعوه فى سوق الرقيق فى
الآستانة الى كرد أحمد من كبار تجار الرقيق ، وجيء به سنة
١٧٤٣ الى الاسكندرية حيث بيع بثمان بخت دراهم معدودة الى
مديرى جمرکها الأخوين اليهوديين اسحق ويوسف . وهذان
اليهوديان تقربا به هدية الى أحد أصحاب النفوذ فى مصر فدفعه
فى نفس الطريق الذى سار فيه من سبقه من الممالیک : اعتنق
الاسلام وسمى عليا وتلقى تعليما دينيا وعسكريا وأظهر براعة
فائقة فى ركوب الخيل واستخدام السيف . ثم دارت الأيام وغدا
شيخا للبلد ثم أميرا للحج يقود جموع الحجيج الى بيت الله الحرام
بعد أن كان والده القسيس داود يرجو أن يشغل ابنه منصبا فى
الكنيسة اليونانية . ثم انتهى به الأمر فعزل الباشا العثمانى وامتنع
عن ارسال الجزية الى السلطان وانفرد بحكم مصر وأرسل حملة
عسكرية الى الحجاز وأتبعها بحملة أخرى الى بلاد الشام لتأمين
حركته وزود الحملة ببدء الى أهل الشام أوضح فيه أهداف الحملة
بأنها « لتخفيف آلام أهل الشام والقضاء على طغيان الأتراك » وقد
تحالف على بك مع زعيم ثائر على السلطان فى فلسطين هو الشيخ
ظاهر العمر واستعان بالروس فأمدوه بأسلحة وأرسلوا له ضباطا ،
وانهارت المقاومة العثمانية فى بلاد الشام وانتقلت الحملة من نصر
الى نصر حتى دخلت دمشق ولم يبق أمامها سوى منطقة حلب .
وتمتع على بك بالاستقلال الفعلى وان لم يعلن رسميا هذا الاستقلال .
ولكن الدولة العثمانية ، وقد فشلت فى وأد حركة على بك فى مصر
وعجزت حربيا عن القضاء على الجيش المملوكى فى الشام ، أفلحت فى
استمالة محمد بك أبى الذهب قائد هذا الجيش ولوحت له
بمنصب شيخ البلد اذا هو خرج على سيده . وخضع أبو الذهب
لهذا الاغراء فأصدر أوامره بالجلأ عن الشام بعد أن روج شائعة
ب وفاة على بك حتى يغرى الجيش المملوكى على سرعة العودة الى مصر

واستبان على بك خيانة أبى الذهب له وقامت الحرب بينهما .
واستطاع أبو الذهب أن يجمع قوات كبيرة عهد بقيادتها الى مراد
بك أحد ممالك على بك . ولكنه انضم الى أبى الذهب بعد أن
اشتراط ثمننا لهذه الخيانة : أن يفوز بسيدة شركسية فى حريم
على بك كانت على حظ موفور من الجمال وشغف بها مراد شغفا
عظيما . ومنى على بك بهزيمة فى الصالحية . ومات بعد أسبوع
وتناثرت الشائعات حول سبب وفاته ، فقيل انه مات مسموما
ويشير الجبرتي ظللا من الشك اذ يقول « والله أعلم بكيفية
موته ، (١) وعلى هذا النحو طويت حركة على بك .

استعادت الدولة العثمانية نفوذها من الناحية المظهرية بعد
فشل حركة على بك ، فأرسلت واليا هو خليل باشا صعد الى
القلعة فى موكب عظيم فى ١٠ يونيو ١٧٧٣ ولكن الأمراء الممالك
تجاهلوا الباشا وازدادوا اعتزازا بقوتهم ، وعلى الرغم من أن محمدا
بك أبا الذهب الذى عين شيخا للبلد اعترف بولائه للسلطان
وأرسل اليه الجزية الا أنه سار على نهج الأمراء السابقين وشل
نفوذ الوالى وسرعان ما عزل أبو الذهب فى مدة حكمه القصير
خليل باشا الوالى العثمانى ووضع مكانه مصطفى النابلسى باشا ،
واضطر السلطان أن يرسل فرمانا يقر فيه هذا التغير .

وعرض أبو الذهب على الدولة العثمانية أن يحارب الشيخ
ظاهر العمر حليف على بك الكبير فى فلسطين فأذنت له ، وخرج
الى الشام بقوات زاحفة جرارة واستولى على غزه ويافا وعكا وأرسل
البشائر الى مصر وأمر باقامة الزينات ابتهاجا بانتصاراته فأخذت
القاهرة زخرفها وأزينت ثلاثة أيام . وأصدر السلطان فرمانا

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار مطبعة بولاق

١٢٩٧ هـ أربعة أجزاء ج ١ ص ٣٨٢ .

بتأمر أبي الذهب على مصر والشام وبلغه أمر هذا الفرمان يوم دخوله عكا فامتلاً فرحاً ، وحمل بدنه في الحال ، وظل مصاباً بالحمى ثلاثة أيام حتى جاز إلى ربه في الشام في ٨ من يونيو ١٧٧٥ . ولما تحقق المصريون من موته غلبهم احساس غامر بالدهشة وأخذوا يرددون الآية الكريمة « حتى اذا فرحوا بما اوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » (١) وخشي الأمراء المماليك أن ينبش أهل الشام قبره بعد رحيلهم ويعبثوا بجثته انتقاماً للمذبحة التي قام بها في يافا فعادوا مع الجنود يحملون « رمة سيدهم » فبلغوا القاهرة بعد مسيرة ستة عشر يوماً وشيعت جنازته في موكب مهيب وكان « أمام نعشه مجامر العنبر والعود ستراً على رائحته ونتاجته » (٢)

ب وفاة أبي الذهب تنازع الحكم في مصر حزبان من المماليك أطلق الجبرتي على أحدهما الأمراء المحمدية نسبة إلى محمد بك أبي الذهب وكان يتزعم الحزب إبراهيم بك ومراد بك . أما الحزب الآخر فقد أطلق عليه الأمراء العلوية نسبة إلى علي بك الكبير وكان على رأس هذا الحزب اسماعيل بك وحسن بك الجداوى . ولكن كان الحزب الأخير أقل عدداً وأضعف جنداً وأسوأ خلقاً ، اذ وقعت الخيانة في صفوف الحزب وخرج معظم أمرائه على زعيمهم اسماعيل بك فغادر البلاد إلى الشام في طريقه إلى تركيا . وخلا الجو لإبراهيم بك ومراد بك وخضعت مصر لحكم ثنائي اشترك فيه هذان الأميران وتعرضت البلاد لفترة من الاضطراب الشديد . والحق أن تاريخ مصر منذ وفاة أبي الذهب حتى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر - وهي فترة تبلغ ثلاثة وعشرين عاماً - عبارة عن صورة دامية للنزاع على السلطة والتطاحن بين المماليك والسعى لاغتصاب

(١) الشطر الأخير من الآية رقم ٤٤ من سورة الأنعام .

(٢) الجبرتي ح ١ ص ٤١٤

أموال المصريين والمغلاة في الظلم وما صحب ذلك من اضطراب الأمن وانتشار الأوبئة والمجاعات ووقوع الغلاء .

واشتد التناحر بين الأميرين الطاغيتين على منصب شيخ البلد . وكان أحدهما يفاضب الآخر ويخشى الغدر من زميله ، فيلجأ الى الوجه القبلى ويعمل على تعزيز قواته ، فيمعن فى سياسة السلب والنهب والاستيلاء على المحاصيل الزراعية ودواب الحمل ومصادرة الأموال . وتقع الحرب بين الأميرين ويشتد الضنك بالأهالى وينقطع السفر سواء فى البر أو فى النيل . وكان علماء الأزهر ، وهم زعماء الشعب فى ذلك الوقت ، يتدخلون لاصلاح ذات البين بين الأميرين ويقوم بالوساطة بينهما الشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد السادات والشيخ محمد البكرى نقيب الأشراف . وكان هؤلاء الزعماء يستهدفون من سفارتهم ووساطتهم مصلحة الشعب قبل كل شئ بالقضاء على أسباب الفتن والحروب الداخلية التى كان الشعب يكتوى بنارها ، ويحدث الصلح بينهما ويقيمان بالقاهرة . ولكن لا يمر وقت طويل حتى يفاضب الآخر الأول ويعتصم هو وجنوده بالصعيد يملثون الارض ظلما وفسادا ونهبا وتخريبا .

توالت الأنباء على الآستانة بأن ابراهيم بك ومراد بك قد أسرفا اسرافا بعيدا فى سياسة الطفيان . وخشيت الدولة العثمانية أن يقوم هذان الأميران بحركة انفصالية على غرار حركة على بك الكبير؛ وكانت أحداث هذه الحركة لا تزال عالقة فى أذهان رجالات الباب العالى ، ودلت تصرفاتهما فى الحكم على أنهما يسيران على نهج على بك ، فقد امتنعا عن ارسال الجزية الى السلطان وتوقفا عن ارسال الأموال المخصصة للحرمين الشريفين فى الحجاز ، وعقد مراد معاهدة تجارية مع فرنسا فى ١٠ من يناير ١٧٨٥ تقرر فيها منح تسهيلات جمركية للتجارة الفرنسية فى الموانئ المصرية ، ولم يرجع مراد الى

السلطان للحصول على موافقة مسبقة مما اعتبر خروجاً على السيادة العثمانية المقررة على مصر .

وكانت مظالم ابراهيم ومراد قد امتدت الى الأجانب في مصر، فعلا على ابتزاز الاموال منهم ومصادرة متاجرهم ولم يحترما المعاهدة التي أبرماها مع فرنسا بل هدد مراد بهدم كنائس الأجانب فقام سفراء وممثلوا فرنسا والنمسا وهولندا واسبانيا وناپولي بالاحتجاج لدى الباب العالي في الآستانة على الاهانات التي لحقت بالكنيسة في مصر فكانت هذه الاحتجاجات من أسباب حملة الدولة على مصر تضاف الى هذه الاسباب الاتصالات المريبة التي كانت تتم بين ابراهيم ومراد وبين روسيا . فقد نرامت الأنباء الى الدولة العثمانية بأن هذين الأميرين يجدان تشجيعاً من روسيا في سياستها تمهيدا لفصل مصر عن الدولة العثمانية . وكانت روسيا قد ندمت لأنها لم تستغل الفرصة التي أتتحت لها على عهد علي بك الكبير وزاد اهتمامها بمصر بعد وفاته وعينت قنصلاً لها في الاسكندرية وعهدت اليه أن يعرض المساعدات العسكرية على ابراهيم بك وسراد بك وان يوضح لهما أن روسيا على استعداد لتأييد مصر في أية حركة استقلالية . ويلوح أن الاضطراب الداخلي في مصر الذي أوجده الحكم الفاسد لهذين الأميرين لم يساعدهما على الدخول في تفاصيل سياسية من هذا القبيل مع روسيا ، ولكن ابراهيم استقدم عددا وافرا من المماليك الروس .

هذا عرض سريع لأهم الأسباب التي من أجلها قرر السلطان ارسال حملة عسكرية الى مصر تستهدف كسر شوكة المماليك ودعم نفوذ الدولة في مصر وكانت الحملة بقيادة حسين باشا الجزائري وقد بلغ الاسكندرية في ٧ من يوليو ١٧٨٦ .

وقد فشلت الحملة حربيا وسياسيا : عجزت عن القضاء على ابراهيم ومراد اللذين اعتصما بالصعيد واخفقت في توطيد الحكم

العثماني في مصر ، وظل الباشا في القلعة مسلوب السلطة وكان التغيير الذي حدث تغييرا شكليا شمل أشخاص الحاكمين واقتصر على القاهرة والوجه البحري . وغادر الجزائري القاهرة في ٦ من أكتوبر عام ١٧٨٧ بعد أن أقام فيها ما يقرب من أربعة عشر شهرا وتبددت الآمال التي علقها الشعب المصري على الحملة لتخليصه من ظلم المماليك فقد ترك السلطة الفعلية في يد أمير مملوكي هو اسماعيل بك ، وكان ظلوما جهولا .

ولم تنعم مصر بالاستقرار السياسي أو الانتعاش الاقتصادي فان هذا الأمير بدد الأموال العامة في تقديم الرشى الى السلطان ورجالاته ليشتري رضاهم عنه ، ومضى في نفس الوقت يعزز قواته المسلحة في وجه الأمراء القبليين (١) الذين حبسوا محاصيل الصعيد وضرائبهم عن حكومة القاهرة فاشتدت حاجة اسماعيل الى المال يوما بعد يوم ، ولم يجد أمامه سوى الشعب في القاهرة والدلتا يضغط عليه ضغطا لا هوادة فيه يستنزف منه الأموال بوسائل تتنافى مع الأخلاق والتقاليد الاسلامية .

لم يكد يرحل الجزائري عن القاهرة حتى استعد الأمراء القبليون للزحف على القاهرة وأراد اسماعيل أن يسترضيهم فزاد لهم في المنطقة التي حددها لهم الجزائري . وجاءت سياسة الاسترضاء بنتيجة عكسية لأنها أطمعتهم فيه وطلبوا مزيدا من البلاد لحكمها . طلبوا أول الامر أن تكون طهطا هي الحد الشمالي للمنطقة التي يسمح لهم بحكمها ثم طلبوا أن تمتد منطقتهم حتى أسيوط ثم طالبوا بمدنها الى منفوط وفي مرة رابعة طلبوا المنيا حدا فاصلا لمنطقتهم وفي مرة خامسة طالبوا بجميع أقاليم الصعيد وأن يتركوا القاهرة والدلتا

(١) أطلق الجبرتي عليهم عدة تسميات تدور كلها حول هذا المعنى من اعتصام ابراهيم ومراد وأمراء حزبهما بأقاليم الوجه القبلي . وكان من هذه التسميات : القبالي ، الأمراء القبالي ، القبليون . الأمراء القبليون ، الجماعة القبليون .

لاسماعيل بك ثم انتهى بهم الأمر الى المطالبة بدخول القاهرة والاقامة فيها وأن يتنازل كل فريق عن المطالبة بثأر قتلاه ويبدأ الجميع صفحة جديدة « وعفا الله عما سلف فان لم يرضوا بذلك فليستعدوا للقاء . وهذا آخر الجواب . والسلام . »

طاعون اسماعيل بك

وفي ذلك الوقت وقع حادث مروع لم يكن فى الحسبان اذ اشتعل فى مصر وباء الطاعون فى جمادى الاولى سنة ١٢٠٥ (يناير ١٧٩١) وفتك فتكا ذريعا بالشعب على اختلاف طبقاته . وكان الأهالى يتضاربون من أجل الحصول على مغسل أو مغسلة لتجهيز جثث الموتى . وكانت الجنازة تخرج من بيت الامير وهى تضم جثث عدد يتراوح بين خمسة وبين عشرة أفراد من ضحايا الوباء . وكانت صلاة الجنازة لا تتوقف فى المساجد طوال النهار وتمتد زلفا من الليل ، ويقول الجبرتنى انه لم يبق للناس شغل فى ذلك الوقت الا الموت وأسبابه « فلا تجد الا مريضا أو ميتا أو معزيا أو مشيعا أو راجعا من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولا فى تجهيز ميت أو باكيا على نفسه موهوما» (١) وندر من كان يصاب بالطاعون وينجو منه ، ويكون الانسان جالسا فيشعر برعشة من البرد ، فيتدثر ولا يكاد ينقضى النهار حتى يلفظ أنفاسه . واستمر الوباء فاشيا قرابة الخمسة أشهر (جمادى الاولى - رمضان ١٢٠٥) وكان الميراث ينتقل ثلاث مرات فى الأسبوع الواحد لكثرة عدد الوفيات فى الأسرة الواحدة . وكان الامير اسماعيل بك من ضحايا الوباء ولذلك أطلق العامة على هذا الوباء طاعون اسماعيل بك .

بموت اسماعيل بك اشتد التنافر بين أمراء حزبه وتطلع كل منهم الى منصب زعيمهم المتوفى . وكانت المنافسة على أشدها بين

(١) الجبرتنى ج ٢ ص ١٩١

حسن بك الجداوى وبين على بك الدفتردار على منصب شيخ البلد .
ورأى الأمراء أن مصلحة الحزب تتطلب اقضاء هذين الأميرين
المتنافسين عن المنصب ، وأن يعين فيه عثمان بك طبل . وأن يعين
حسن بك قسبة رضوان أميرا للحج ، وتظاهر الأمراء أمام الشعب
أنهم يعتزمون أن ينهجوا فى الحكم نهجا قويا فاطلغوا المنادين فى
الشوارع يعلنون عزمهم على الاقلاع عن فرض المظالم أو زيادة
الضرائب . وكانت هذه النداءات مجرد شعارات تخفى وراءها نرعة
أصيلة فى هذا الرعيل من المماليك بوجه خاص لاستغلال الشعب .

وما أن علم الأمراء القبليون بموت اسماعيل بك حتى ازدادوا
تصميما على دخول القاهرة ، وتحركت قواتهم حتى بلغت السياط فى
مديرية الجيزة . واتخذ الأمراء المماليك فى القاهرة على عادتهم موقف
الدفاع بدلا من الهجوم ، فخرجوا الى طرا والجيزة على ضفتى النيل
لمنع الأمراء القبليين من دخول القاهرة اذا زحفوا عليها من البر
الشرقى أو البر الغربى .

وكان من اضطراب السياسة العثمانية أنها نقلت فى هذا
الوقت العصب اسماعيل باشا الوالى العثمانى . وكانت الحاجة
ماسة الى ايجاد نوع من الاستقرار السياسى فى الوقت الذى توارت
فيه شخصية اسماعيل بك شيخ البلد ، فاذا بأجهزة الحكم فى
القاهرة تهتز اهتزازا عنيفا نتيجة وفاة كبير الأمراء المماليك ، ونقل
الباشا العثمانى ، وانتشار وباء الطاعون ، واقترب الأمراء القبليين
من القاهرة ، وتناحر الأمراء المماليك فى القاهرة تناحرا أدى الى
ضياع حزبهم فى النهاية .

الفصل الثانى

عمر مكرم يطل على الحياة السياسية

فى هذا الموقف يطل السيد عمر مكرم على الاحداث السياسية ويظهر على مسرح الحوادث رسولا للأمراء القبليين ، اذ يهبط القاهرة فى ٢٦ من يونيو ١٧٩١ (٢٤ من شوال ١٢٠٥) حاملا رسالة منهم الى كل من محمد عزت باشا الوالى العثمانى الجديد وعثمان بك طبل شيخ البلد الجديد والى كبار المشايخ علماء الأزهر . وقبل أن نفرض هذه الرسالة التى يحملها السيد عمر مكرم نقف وقفة قصيرة لنلم الماما سريعا بنشأة هذا السبعوث السياسى قبل أن تحف به أضواء الزعامة .

ولد عمر مكرم فى مدينة أسيوط من أسرة شريفة تنسب الى البيت النبوى الكريم . ولم يصل أحد من الباحثين الى تحديد سنة معينة لمولده فى يقين جازم ولكن الرأى الغالب هو أنه ولد حوالى منتصف القرن الثامن عشر أى فى سنة ١٧٥٠ تقريبا . وليست نشأته الاولى مكتملة الصورة أمام الباحثين اذ لم يكتب أحد من معاصريه ترجمة له . لم يفعل ذلك الجبرتى وهو المؤرخ الذى عاصره لان هذا المؤرخ العملاق قد درج على عادة - لا نخالها الا عادة علمية وطبيعية ومنطقية - وهى أنه لا يترجم لرجال مصر الا بعد أن يطويهم الموت ، فيذكر تراجم الوفيات فى نهاية كل سنة هجرية . وقد ظفر التاريخ من الجبرتى بتراجم ضافية لكثير من رجال مصر فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين ومطلع القرن الثالث عشر الهجرى . ولم يدرك الجبرتى وفاة عمر مكرم فحرم التاريخ من

ترجمة لهذا الزعيم من مؤرخ معاصر له اشتهر بالبحث والدقة والاتزان في معظم أحكامه . ومع ذلك فان في كتابات الجبرتي الضافية عن الأحداث التي مرت بمصر ومشاركة عمر مكرم في هذه الأحداث ما يعطينا صورة عنه واضحة المعالم والسمات خلال المراحل التالية لمرحلة شبابه .

كانت مدينة أسيوط مرتع طفولته ولما أئنع صباه واكمل شبابه أو كاد ارنحل الى القاهرة والتحق بالأزهر يطلب العلم ، وتلقى عن أشياخ عصره علوم الفقه والدين وافننى مكتبة زاخرة بالمؤلفات لا تزال تحتفظ دار الكتب المصرية في القاهرة بجزء منها ، غير أنه لم يشتغل بالتدريس في الأزهر ولم ينجح الى التأليف أو شرح النصوص والتعليق عليها كما كانت عادة معظم علماء عصره ، بل انصرف الى الحياة العامة يتكسب من تنظره على الأوقاف ولذلك لم يكن فى عداد المشايخ ولم يطلق عليه لقب شيخ بل كان يلقب حيناً بالسيد عمر مكرم . ويلاحظ أن لقب السيد كان يطلق وقتذاك تبعاً للعرف والتقاليد على من ينتسب الى فرع من فروع الدوحة النبوية الشريفة . وكان يلقب حيناً آخر السيد عمر أفندى مكرم الاسيوطى ، وحيناً ثالثاً السيد عمر أفندى الاسيوطى . وكانت أول مرة ذكره الجبرتي فيها فى حوادث سنة ١٢٠٢ هـ (١٧٨٨) حين ترجم للشيخ أبى العباس المغربى من علماء شمال افريقيا جاء مصر وقام بالتدريس فى الأزهر ثم تآقت نفسه أن يكون شيخاً لرواق المغاربة ولكنه فشل فى تحقيق أمنينه وكان سليط اللسان يتقى شره ، ونزل له السيد عمر مكرم عن نظارة وقف الجوهريّة ، فما كان من هذا العالم المغربى الا أن استحل لنفسه ايراد الوقف ومنع عن المستحقين مرتباتهم (١) .

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٦٧

وفى ضوء المعلومات التى ذكرها الجبرتى نجد أن عمر مكرم استهل حياته السياسية فى سنة ١٧٩١ (١٢٠٥) هـ بالسفارة التى قام بها مندوبا عن الأمراء القبليين الى حكومة القاهرة . وقد ساعدته الظروف فى نجاح مهمته لأن الديوان لم يجتمع فى ٢٦ يونيو ١٧٩١ (٢٤ شوال ١٢٠٥) وهو اليوم الذى حضر فيه عمر مكرم الى القاهرة كما لم يعقد جلسة فى اليوم التالى كما جرت العادة منذ أن تأزم الموقف بين الأمراء القبليين وبين حكومة القاهرة ، فقد كان اليوم التالى هو موعد الاحتفال بسفر المحمل الشريف الى الحجاز ، فأجل اجتماع الديوان الى يوم ٢٨ يونيو ١٧٩١ وفى خلال هذه الفترة كان لدى السيد عمر مكرم من الوقت متسع للقيام باتصالات مع كبار المشايخ أعضاء الديوان ، ونجح فى اقناعهم فى الوقوف الى صف الأمراء القبليين . وقد وضح أثر هذه الاتصالات فى موقف المشايخ أثناء جلسة الديوان التى عقدت برياسة محمد عزت باشا الوالى الجديد وأمر بتلاوة الرسالة التى حملها عمر مكرم وفيها ان الامراء القبليين سبق أن طلبوا الصلح مع اخوانهم الامراء المالكيين فى القاهرة والصفح عما بدر منهم . وقد رفض المرحوم اسماعيل بك طلباتهم المكرورة فى هذا الصدد ولم يطمئن لعقد الصلح معهم ، وكان هذا قدرا مقدورا . أما وقد جاز اسماعيل بك الى ربه فانهم يشعرون بحنين جارف الى القاهرة ويؤرقهم شوق عظيم الى عائلاتهم ، وقد مضت أعوام ذات عدد منذ أن أخرجوا من ديارهم ، ثم قرروا فى خطابهم أن عبد الرحمن بك الابراهيمى وهو أحد الرهائن الذين اعتقلهم حسن باشا الجزائري وأخذهم الى الآستانة قد عاد الى مصر ومعه مرسوم من السلطان بالعفو عن الأمراء القبليين، وختموا رسالتهم بقولهم ان « الماضى لا يعاد ، ونحن أولاد اليوم ، وأن أسيادنا المشايخ يضمنون غائلتنا » (١)

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٩٣

ولما تليت هذه الرسالة التفت الباشا الى المشايخ ليقف على رأيهم فى طلب الأمراء القبليين . فقال الشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر انه اذا كانت المسألة محصورة بين الأمراء القبليين وبين اخوانهم الامراء فى القاهرة فالمشايخ يشفعون فى الامراء القبليين . أما اذا كانت المسألة تخص السلطان وأمراء الصعيد فالامر متروك للباشا بصفته نائب السلطان فى مصر . واستقر رأى الديوان على كتابة رد على الرسالة التى حملها عمر مكرم . وقد سجل الديوان على الامراء القبليين أنهم كثيرا ما طلبوا الصلح وكانت القاهرة تستجيب لطلباتهم ، ولكنهم كانوا ينقضون العهد فى كل مرة ، ثم استطردت رسالة الديوان فقالت ان شرط التوبة هو رد المظالم ، ولم يفكر القبليون فى شىء من هذا القبيل ، فلم يرسلوا الضرائب النقدية والعينية المقررة على الاقاليم التى فى حوزتهم، واذا كانوا جادين فى الصلح فليعودوا الى منطقتهم التى حددت لهم وليرسلوا الاموال والغلال الى القاهرة ، وعندئذ تبعث القاهرة مذكرة الى الباب العالى تطلب الاذن لهم فى دخول القاهرة ، فان الامراء المماليك الذين بالقاهرة لم يدخلوها عنوة ولكن السلطان هو الذى سمح لهم بدخولها ، وهو الذى أخرج الأمراء القبليين . واختتمت رسالة الديوان بأنه اذا أصدر السلطان موافقته على العفو عنهم فانهم يدخلون القاهرة دون مقاومة .

تسلم عمر مكرم رسالة الديوان وسافر بها فى نفس اليوم الى الصعيد بعد أن نجح فى سفارته نجاحا تعددت آياته . وكان من مظاهر هذا النجاح أن كبار المشايخ الذين حضروا جلسة الديوان لم يقفوا موقفا عدائيا من الأمراء القبليين ، بل انهم على العكس قبلوا أن يضمنوا سلوكهم اذا عادوا الى العاصمة ، كما أن حكومة القاهرة أبدت استعدادها لأول مرة منذ حملة حسن باشا الجزائرى لترفع مذكرة الى الباب العالى تلتمس العفو عن الامراء القبليين والاذن لهم فى دخول القاهرة . وكان هذا فى حد ذاته كسبا كبيرا لقضية

الامراء القبليين . ولم يلبث أن ارسل محمد عزت باشا الوالى مذكرة الى الآستانة صارحها بحقيقة الموقف فى مصر وقال ان الامراء المماليك المقيمين فى القاهرة أضعف وأعجز من الوقوف فى وجه الامراء القبليين ، وان هؤلاء الامراء لا محالة داخلون العاصمة . وأبدى الباشا رأيه صراحة حين قرر أن كرامة الدولة العثمانية وسمعتها تقضيان أن يصدر السلطان مرسوما بالعفو عنهم وأن يدخلوا القاهرة صلحا بدلا من أن يدخلوها عنوة . وكان أن استجابت الحكومة العثمانية لما أشار به الوالى ، فأصدر السلطان مرسوما بهذا المعنى بشرط التسوية والصلح بينهم وبين اخوانهم الامراء المماليك فى القاهرة . وجاء رسول من الآستانة فى أوائل صفر ١٢٠٦ - اكتوبر ١٧٩١ يحمل المرسوم وتلى فى الديوان وأطلقت المدافع من القلعة ابتهاجا بهذا الحادث .

غير أن ابراهيم بك ومراد بك وغيرهما من الامراء القبليين كانوا قد دخلوا القاهرة فى ذى القعدة ١٢٠٥ - يوليو ١٧٩١ أى قبل وصول مرسوم السلطان بحوالى ثلاثة أشهر ، وقد تم دخولهم بعد اتصالات تمت فى الحفاء بينهم وبين عثمان بك طبل زعيم الامراء العلوية اذ كان قد ضاق ذرعا بالدسائس التى كان يحيكها له حسن بك الجداوى وكان الاخير يطمح فى أن يكون شيخا للبلد بعد وفاة اسماعيل بك . ومما يدل على أن دخول القبليين كان باتفاق سابق أن مراد بك دخل القاهرة وفى صحبته عثمان بك طبل . ونزل مراد بك فى قصر اسماعيل بك وكان الاخير قد شيده وأنفق على زخرفته وتأثيثه بسخاء من أجل خصمه .

ويعلق الجبرتى تعليقا طريفا ولاذعا على ظاهرة اجتماعية طرأت بدخول الامراء القبليين القاهرة ، فقد كان وباء الطاعون قد انحسرت موجته وخفت حدته بعد أن أطاح بعدد كبير من الامراء العلوية فدخل الامراء القبليون بيوت هؤلاء الامراء « ووجدوها عامرة بالحرير

والجوارى والخدم ، فتزوجوهن ، وجددوا فراسهم ، وعملوا
أعراسهم ومن لم يكن له بيت دخل ما أحب من البيوت وأخذه بما
فيه من غير مانع ، وجلس فى مجالس الرجال ، وانتظر تمام العدة
ان كان بقى منها شىء ، وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم
وأزواجهم (١) « وأذعن الباب العالى للأمر الواقع وتناسى خصومته
السابقة لابراهيم بك ومراد بك فأوفد رسولا بلغ القاهرة فى أواخر
ربيع أول ١٢٠٧ - نوفمبر ١٧٩٢ يحمل الى كل منهما والى الباشا
خلعة واجتمع الديوان وتليت المراسيم واطلقت المدافع من القلعة
ابتهاجا بالرضاء السامى .

كانت السفارة التى قام بها السيد عمر مكرم ونجاحه فيها من
العوامل الرئيسية التى مهدت الطريق أمام ابراهيم ومراد لتحقيق
حلم ظل يداعبهما سنين عددا لدخول القاهرة والعودة الى حكم البلاد .
ويهمنا هنا أن هذه السفارة كانت ذات أثر بالغ فى حياة السيد
عمر مكرم ، اذ لما استقر الأمر لهذين الأُميرين أرادا مكافأته على
مسعاه . ولم تمض سنوات ذات عدد حنى واثتهما الفرصة حين توفى
بدون عقب فى ١٨ من ربيع آخر ١٢٠٨ - ٢٣ من نوفمبر ١٧٩٣
محمد البكرى نقيب الأشراف وشيخ سجادة البكرية ، وتدخل ابراهيم
ومراد وعينا السيد عمر مكرم نقيباً للأشراف كما عينا فى نفس
الوقت الشيخ خليل البكرى شيخاً للسجادة الوفائية وهو ابن خال
النقيب الراحل .

ومما لا ريب فيه أن اسم عمر مكرم قد ازداد ذيوفاً فى البلاد
بعد تعيينه نقيباً للأشراف ، لأن هذا المنصب كان من المناصب الكبرى
وبخاصة فى مجتمع دينى كان الطابع المميز للحياة فى مصر . واجتمع
لعمر مكرم من مهابة المنصب وقوة شخصيته وطموحه ما جعله يتبوأ

(١) الجبرنى ج ٢ ص ١٩٥

بعد حين مكانا عليا بين رجالات مصر ، يلتصق بالشعب ، وتلتصم حياته بالاحداث السياسية التي تعاقبت على البلاد فى مطلع القرن التاسع عشر . وأصبح بحكم منصبه يشترك فى ديوان الباشا ويكون فى مقدمة المدعوين الى الحفلات الرسمية كاستقبال الباشا الجديد أو الاحتفالات العامة مثل وفاء النيل كما ينظم الاحتفالات الدينية الكبرى للمولد النبوى الشريف ومولد الامام الحسين وليلة الصيام وغير ذلك من احتفالات دينية . وكان يشرف على أملاك نقابة الاشراف وادارة أوقافها وصرف المرتبات والخيرات لمستحقيها وينظر فى قضايا الأشراف وتظلماتهم وغير ذلك من المسائل التى تقع فى اختصاصات النقيب .

اشتراك عمر مكرم فى غلبة الشعب سنة ١٧٩٥

ويلاحظ أنه فى الفترة التى انقضت منذ تعيينه نقيبا للأشراف سنة ١٧٩٣ حتى قدوم الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ كانت صفته الدينية كنقيب للأشراف أكثر وضوحا من صفته السياسية ، وهو لم يبرز كزعيم سياسى فى هذه السنوات الخمس لان الحياة السياسية فى مصر سارت على وتيرتها السابقة ، وكانت هذه الفترة هى فترة ركود سياسى ، فلم تشهد البلاد انقلابات سياسية أو تغييرا فى أشخاص الحكام ولم تتعرض لأحداث خارجية يتهى فيها المجال أمام عمر مكرم ليبرز كزعيم سياسى . ولذلك لم يظهر السيد عمر مكرم فى الحياة السياسية المصرية الا مرة واحدة خلال هذه الفترة حين قامت حركة شعبية فى منتصف سنة ١٧٩٥ ضد جور الأميرين المملوكين ابراهيم بك وممراد بك وأقرانهما من الأمراء المماليك .

كان محمد بك الألفى قد أسرف فى فرض ضرائب جزافية على سكان احدى القرى القريبة من بلبيس عاصمة مديرية الشرقية فى

ذلك الوقت . وكان للشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر حصة فى أرض تلك القرية فاستغاث به أهلها . واتصل الشيخ الشرقاوى بابراهيم بك ومراد بك لوقف هذه المظالم ولكن اعرض كل من هذين الأميرين ونأى بجانبه . وثارت ثائرة الشيخ الشرقاوى وعزم على القيام بحركة شعبية كبيرة يهتز لها - فى ظنه - مركز هذين الطاغيتين ، فذهب الى الجامع الازهر وكان ذلك فى شهر ذى الحجة ١٢٠٩ (١٩ يونيو - ١٧ يوليو ١٧٩٥) وجمع اليه المشايخ وأمر باغلاق أبواب الجامع ايدانا بأن أمرا اذا قد ارتكبه الحكام الطغاة . وانطلق المنادون يأمررون بغلق الحوانيت وهجر الاسواق . وفى اليوم التالى كانت جموع الشعب تتجه من كل حدب وصوب الى الجامع الازهر . واكتظ المسجد والحي بالحشود الشعبية وركب الشرقاوى والمشايخ العلماء كل منهم بغلته وتقدموا المواكب الشعبية الصاخبة وذهبوا الى دار الشيخ محمد السادات . ووقع اختيارهم على هذه الدار لأنها كانت على مقربة من دار ابراهيم بك حتى يرى هذا الأمير غضبة الشعب على حكومته وقد نجح هذا التدبير اذ لما شاهد الأمير هذه الحشود المتراصة من الجماهير ولها عجيح وضجيج بعث مندوبا من قبله هو أيوب بك الدفتردار « فحضر اليهم وسلم عليهم ، ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم . فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتوها وأحدثتموها . فقال لا يمكن الاجابة الى هذا كله ، فاننا ان فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والنفقات . فقيل له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء الممالك ؟ والأمير يكون أميرا بالاعطاء لا بالاخذ (١) » وقد وعدهم أيوب بك الدفتردار بالعودة اليهم بعد عرض مطالبهم على ابراهيم بك . وهكذا تطورت المسألة من مجرد حركة فردية تستهدف

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٢٥٨ .

المطالبة بوقف اعتداءات محمد بك الالفى على قرية فى مديرية الشرقية الى حركة شعبية تنادى بضرورة وضع حد للمظالم التى يتعرض لها الشعب ومطالبة الحكومة بضغط المصروفات والحد من الاسراف فى استيراد الممالك وتأمين الافراد على أموالهم وأرواحهم .

ولما لم يعد مندوب ابراهيم بك الى الزعماء فى دار السادات قرروا المضى فى حركتهم ورجعوا معهم جموع الشعب الثائر الى الجامع الازهر وقضوا ليلتهم فيه ، وما أقبل ضحى اليوم التالى حتى تقاطرت جموع أخرى من الشعب من بولاق ومصر القديمة والجيزة والبلاد المحيطة بالقاهرة وانضمت هذه الجموع الى حشود اليوم السابق وأصبح الموقف ينذر بشر مستطير . واستشعر ابراهيم بك خطر هذه الحركة الشعبية الهادرة . وأرسل الى المشايخ يسترضى الشعب ويعلن أنه يؤيده ويستنكر تصرفات الممالك . وأخذ يثير مخاوف زميله مراد بك من تفاقم الموقف ، ونزل الاخير عن غلوائه ، أو لعنه تظاهر بذلك ، فأرسل الى المشايخ يقول انه أقلع عن ظلم الشعب وطلب أربعة من المشايخ « عينهم بأسمائهم » فذهبوا اليه بالجيزة فلاطفهم والتمس منهم السعى فى الصلح .

وفى اليوم الثالث على بدء هذه الحركة عقد اجتماع فى دار ابراهيم بك حضره الباشا وقاضى القضاة والامراء البكوات ماعدا مراد بك ، واستقر رأى المجتمعين على ضرورة العمل على انتهاء هذه الحركة الشعبية ومفاوضة الزعماء لعقد الصلح . وأرسلوا مندوبا عنهم الى الجامع الازهر حيث اجتمع بالزعماء . وطلب أن يصحبه وفد منهم الى دار ابراهيم بك . وتألف وفد من خمسة أعضاء هم ، وفق الترتيب الذى ذكره الجبرتى : الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر ، والشيخ خليل البكرى شيخ السجادة البكرية والشيخ محمد الامير والاخير من صفوة كبار العلماء اشتهر بعراثة وشجاعته واغلاظه

القول للأمراء المماليك . أرادت جموع الشعب الصاخبة أن تسير وراءهم الى مكان الاجتماع فمنعهم المشايخ وطلبوا منهم الانتظار في الأزهر ، وطالت الجلسة وقرر الامراء المماليك في نهايتها « انهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم » وانعقد الصلح على أن يرسلوا ايراد الاوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين في الحجاز من أموال وغلل ، وأن يفرجوا عن الحبوب وسائر المحاصيل الزراعية المودعة في مخازن الامراء ليشتريها الشعب ، وأن يرفعوا أيديهم عن ايراد الاوقاف الخيرية ، وأن يقلعوا عن المظالم المحدثه ، « وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم الى أموال الناس . » وكتب القاضي حجة شرعية سجل فيها هذه العهود والمواثيق ووقع عليها الباشا وختم عليها ابراهيم بك وأرسلت الى مراد بك فختم عليها هو الآخر .

وفي أثناء هذا الاجتماع كان الشعب قد استبطأ عودة زعمائه اليه من دار ابراهيم بك وخشى أن يكون قد حاق بهم مكروه ، فزحفت جموع الشعب الى دار الامير وأحاطت بها . ويصور الجبرتي ابتهاج الشعب بانتصاره في غضبته على الامراء المماليك فيقول « وانجلت الفتنة ورجع المشايخ ، وحول كل واحد منهم ، وأمامه وخلفه ، جملة عظيمة من العامة ، وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية . وفرح الناس وظنوا صحته ، وفتحت الاسواق ، وسكن الحال على ذلك نحو شهر . ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيادة ، ونزل عقب ذلك مراد بك الى دمياط وضرب عليها الضرائب العظيمة وغير ذلك (١) » .

وقد أسرف بعض الباحثين في تقييم هذه الحركة الشعبية وفي اصفاء مختلف الصفات، على «الحجة» أو القرارات التي انبثقت عنها . والواقع أن هذه الحركة ومثيلاتها التي حفل بها تاريخ الشعب

(١) المصدر السابق .

المصرى فى القرن الثامن عشر لم تستهدف الاستقلال عن الدولة العثمانية أو التخلص من حكم الامراء المماليك . فهذه الحركات لم تعد العمل على دفع ظلم الحكام . وبعبارة أخرى انصرف الشعب الى مقاومة الظلم الداخلى حتى اذا هبطت أرض مصر الحملة الفرنسية هبوا سراعا يحمون الذمار فى بطولة وفدائية . أما « الحجة » أو المذكرة التى تضمنت القرارات التى أسفرت عنها هذه الحركة الشعبية فأطلق عليها ذلك الفريق من الباحثين اسم « الوثيقة السياسية الكبرى (١) » والحق أنها لم تكن وثيقة ولم تكن كبرى وإنما أراد بها الامراء المماليك انهاء حركة شعبية عابرة ، فهى قصاصه ورق ، لان الامراء المماليك كانوا قوما مردوا على النفاق ، يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، وانطوت نفوسهم على قسوة مدمرة ، وشر أصيل ، ولأن الظلم صفة عريضة فى دمائهم ، فظلوا سادرين فى غيهم . والجبرتى يستهل حوادث كل سنة من السنوات الثلاث التى مضت بعد صدور هذه «الحجة» حتى نزول الحملة الفرنسية ، بعبارة لا تكاد تختلف فى مبنائها ومعناها وهى أنه لم يقع من الحوادث ما يستحق التسجيل سوى جور الامراء وتتابع مظالمهم .

ويعنينا فى هذا البحث أنه على الرغم من أن عمر مكرم كان مدينا بمنصبه كتنقيب للاشراف لابراهيم بك ومراد بك الا أنه لم يتردد فى الوقوف الى جانب الشعب فى حركة ١٧٩٥ ضد حكومة هذين الاميرين . وكانت صفحة فخار وشرف لعمر مكرم تدل على أنه كان لا يجمال حاكما ذا جاه أو كبيرا ذا ثراء وأنه يؤثر الصالح العام على علاقاته الشخصية . وقد وقف عمر مكرم هذا الموقف المشرف وهو فى باكورة حياته السياسية وكان فى هذه المرحلة رجلا من رجالات الصف الثانى فى مصر ، وظل على هذا الوضع الى أن هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر .

(١) محمد فريد أبو حديد : سيرة السيد عمر مكرم ص ٦٠ .

البابُ الثَّانِي

عمر مكرم إبان الحكم الفرنسي

الفصل الثالث

عمر مكرم من اجتماع قصر العيني إلى هجرته الأولى من مصر

هبطت أرض مصر فى صيف ١٧٩٨ حملة فرنسية تضم قوات زاحفة جرارة بقيادة الجنرال بوناپرت . وتعتبر هذه المحاولة أول غزو عسكرى أوربى مسيحى فى التاريخ الحديث لبلد عربى اسلامى من بلاد الدولة العثمانية . ولكن هذا الغزو سبقته سيطرة الدول الاستعمارية الكبرى : بريطانيا وفرنسا وهولندا على دول وامارات اسلامية فى أواسط آسيا وجزر الهند الشرقية والهند . غير ان هذه السيطرة المبكرة لم تمس قلب العروبة كما فعلت حملة الجنرال بوناپرت على مصر .

وليس من شأن هذا البحث أن يخوض فى الاسباب التى حملت فرنسا على انفاذ هذه الحملة ، وهى أسباب تقوم فى جملتها على أساس الرغبة فى توسع استعمارى جديد يعوض على فرنسا ما فقدته من مستعمرات فى أمريكا الشمالية والهند من ناحية ، وللأضرار بالمصالح البريطانية من ناحية ثانية ، اذ أرادت أن تجعل من مصر قاعدة لتهديد بريطانيا فى الهند وتحويل التجارة الشرقية الى طريق مصر .

ظهرت الحملة تجاه الاسكندرية فى أول يوليو ١٧٩٨ ونزل الفرنسيون ليلا جهة العجمى فى غرب الاسكندرية . وبلغوا أسوار

المدينة فى صباح ٢ يوليو . وكانت السلطة فى يد السيد محمد كريم ، الذى سارع بايفاد رسول الى مراد بك فى القاهرة يبلغه قدوم الفرنسيين ويطلب اليه ارسال نجدات عسكرية . ومع ذلك لم ينتظر السيد محمد كريم وصول النجدات من القاهرة بل شرع يدافع عن المدينة واستمات فى الدفاع عنها والتف حوله الاسكندريون بما عرف عنهم من شجاعة واقدام ، وحصنوا أسوارها ونفلوا الذخيرة الى القلاع ووضعوا المدافع العتيقة على الاسوار واشترك الرجال والنساء فى القتال وانضم الى سكان المدينة المغاربة والعرب المجاورون للنغر . وهاجم الفرنسيون المدينة من ثلاث جهات حتى اقتحموها ثم هاجموا الأهلى فى مساكنهم وأخذ المصريون يطلقون الرصاص على الجنود المهاجمين . وكاد بونابرت يلقى مصرعه برصاصة أطلقت عليه من نافذة أحد المنازل لولا أن تدخل القدر ونجا من الموت . وعندئذ هاجمت جموع الفرنسيين هذا المنزل ولم يكن به سوى رجل وسيدة قتلها الفرنسيون . واستمر السيد محمد كريم يدافع عن المدينة بعد أن دخلها الفرنسيون ، واعتصم بقلعة قايتباى ومعه جموع غفيرة من المصريين . ولكنه أدرك عبث المقاومة لان المدينة كانت أضعف من ان تقف فى وجه جيش فرنسى مسلح أحدث تسليح فكف عن القتال . وقد تكبد الفرنسيون خسائر فى استيلائهم على المدينة نتيجة المقاومة العنيفة التى قوبلوا بها من المصريين . وأصيب الجنرال كليبر بعار نارى فى جبهته وجرح جرحا بليغا ، وأصيب الجنرال مينو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة وقتل الجنرال ماس Mas وخمسة ضباط آخرين . وقدر بونابرت فى مذكراته خسائر الفرنسيين بثلاثمائة بين قتيل وجريح . وأمر بتشيع جنازة القتلى الفرنسيين فى احتفال عسكري مهيب ودفنوا حول عمود السوارى ونقشت أسماءهم على قاعدة العمود . ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كانت الأعلام الفرنسية قد نصبت فى الاسكندرية .

تلقى الأمراء المماليك فى القاهرة باستخفاف شديد أنباء وصول الحملة الفرنسية الى الاسكندرية ، اذ كانوا على قدر كبير من الصلف والغرور والغفلة . احتقروا شأن الفرنسيين ظنا منهم أنهم على شاكلة الفرنسيين الذين ظهروا على شواطئ دمياط منذ خمسة قرون خلت ابان الحروب الصليبية واعتقدوا أن فى استطاعتهم سحق القوات الفرنسية « اعتمادا على قوتهم وزعمهم أنهم اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون فى مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم » (١) واستقر رأى ابراهيم بك ومراد بك على عقد اجتماع عام كبير فى قصر العينى (٢) لبحث الموقف وطلبوا الى بكر باشا الوالى العثمانى حضور الاجتماع ، فنزل من القلعة كما شهدته سائر الأمراء والمماليك والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وكبار المشايخ علماء الازهر والقاضى والأعيان والكشاف وأرباب العكاكيز ومن اليهم من الشخصيات الكبيرة ، ثم أذن لعدد كبير من صغار المشايخ فى حضور هذا الاجتماع .

تدارس المجتمعون الموقف على ضوء المعلومات التى تلقوها عن استيلاء الفرنسيين على الاسكندرية . واحتدت المناقشة بين مراد بك وبين الوالى العثمانى . اذ قال مراد بك انه يعلم جيدا أن رجال الباب العالى لا ينظرون اليه بعين الارتياح . واتهم مراد بك الدولة

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣

(٢) يقع فى المكان الحالى لمستشفى قصر العينى . وكان يقيم فيه أحيانا الباشا العثمانى عند صدور الامر بنفله أو عزله حتى يتم معدات سفره . وكان يجتمع فى هذا القصر الأمراء المماليك وكبار المشايخ علماء الازهر وضباط بعض الفرق العثمانية . وقد شيد هذا القصر فى زمن سابق وقد ورد ذكره كثيرا فى الجبرتى قبل أحداث الحملة الفرنسية بزمان طويل . أنظر على سبيل المثال ج ١ ص ٤٥ ، ١٧٩ ، ج ٢ ص ١٥ ، ٢٥ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ١٠١ ، ١٢٩ ، ١٦٣ ، ٢٥١ ، ٢٦٢ .

العثمانية بأنها قد أذنت لفرنسا في ارسال هذه الحملة . واستند في هذا الاتهام الى منشور بونابرت الذي قرر فيه أنه صديق للسلطان العثماني وأنه جاء الى مصر للقضاء على المماليك . وتهكم مراد بك على الوالى العثماني وطلب منه أن يزود الحاضرين بمعلومات وافية عن الحملة الفرنسية وأهدافها وأسلحتها وعدد جنودها . وقد أنكر الوالى العثماني قيام أى تفاهم سابق بين السلطان وبين فرنسا حول هذه الحملة . وقد علق مراد بك على ذلك بأن دعا الله أن يساعده حتى يقضى على الاثنين معا : السلطان والفرنسيين وقال : وأرجو أن تسعفنا العناية على الاثنين » . ورد الوالى بقوله « دعونا من هذا الكلام وشددوا همتكم وانهضوا نهضة الابطال واستعدوا للحرب والقتال » (١) .

وأصدر المجتمعون عدة قرارات نذكر منها أربعة : خروج مراد بك بقواته لملاقاة الفرنسيين في دمنهور ، مرابطة ابراهيم بك بقواته في امبابة وأن يظل الباشا العثماني مع ابراهيم بك ، اعتقال جميع الرعايا الفرنسيين ، ابلاغ الدولة العثمانية أنباء الغزو الفرنسى . ويتهمكم الجبرتى على القرار الأخير لعلمه بعدم جدواه ، فيقول ان بكر باشا أرسل رسولا عن طريق البر الى الآستانة « ليأتيه بالترىاق من العراق » (٢) .

عمر مكرم ينظم المقاومة الشعبية :

لم تمر أيام ذات عدد حتى تلقت القاهرة الأنباء بهزيمة مراد

(١) مذكرات نقولا ترك . نشر وترجمة وتعليق جاستون فيبت . القاهرة ١٩٥٠ ص ١٢ .

(٢) عند ذكر أمر مستحيل أو يتعذر تحقيقه كانت نقال هذه العبارة : « على ما يأتوا بالترىاق من العراق يكون العليل قد مات » .

بك من الفرنسيين في معركة شبراريس (١) (١٣ من يوليو ١٧٩٨) وانسحابه الى القاهرة . كانت هذه المعركة بمثابة ناقوس الخطر وأدرك الشعب أن الموقف جد خطير . وفي هذا الوقت العصيب برز السيد عمر مكرم بروزا واضحا قويا وطغت شخصيته في الأوساط الشعبية على سائر الشخصيات التي كانت في مصر وقتذاك . استنفر الشعب للقتال وبث فيه روح المقاومة ، وصعد الى القلعة وأنزل منها علما كبيرا أطلقت عليه الجماهير «البيرق النبوى» ونشره بين يديه ومشى به من القلعة الى بولاق . وكانت المساكن في ذلك الوقت تنتهى عند بركة الازبكية (حديقة الازبكية) ويفصلها عن بولاق سهل مترب وعر خال من العمران .

لقيت دعوة عمر مكرم استجابة جماعية من أهل القاهرة ، تجمعت حوله ألوف العامة يتصايحون بالحرب ويحملون العصي والنبابيت والبنادق ومعهم الطبول . واغلق التجار الحوانيت وخلت الأسواق من روادها واشتركت طوائف الحرف في التطوع وكانت كل طائفة تجمع الأموال من أفرادها كل على قدر طاقته واشترى رؤساء الطوائف الأسلحة والذخائر والخيام . وارتفعت أسعار البارود والأسلحة . وتطوع الاثرياء بالانفاق على البعض الآخر ممن قلت مواردهم بسبب توقف التجارة واغلاق المحلات . ومنهم من جهز جماعات من المغاربة والشوام بالسلاح والطعام وغير ذلك . وتوافد على القاهرة جموع كثيفة العدد من عرب البحيرة والجيزة والصعيد وقبائل أولاد علي/ والهنادى ليشتركوا في الكفاح . ولم يبق في القاهرة سوى النساء والأطفال والكهول .

(١) شبراريس احدى قرى مركز شبراخيت على الشاطئ الغربى لفرع رسيد جنوبى شبراخيت . وتذكر المراجع الفرنسية المعاصرة للحملة اسم هذه المعركة شبراريس . ويلاحظ أنه توجد فى المنوفية قرية أخرى تحمل نفس الاسم شبراريس وتتبع مركز نلا وتقع على الشاطئ الغربى لترعة الباجورية .

ويقول الجبرتي « ان جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقاتهم وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم ، فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشيء يملكه ومحصل الامر أن جميع من بمصر من الرجال تحول الى بولاق وأقام بها من حين نصب ابراهيم بك العرضي (١) هناك الى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكانا ولا مأوى فيرجعون الى بيوتهم ويبيتون بها ثم يصبحون الى بولاق » وهكذا كان دور عمر مكرم ايجابيا بارزا في هذه الظروف العصيبة الحرجة .

الفرق بين عمر مكرم وموقف المماليك :

والامر العجيب في الموقف وقتذاك أن هذا الحماس الدافق الذي بدأ من السيد عمر مكرم وغمر جماهير الشعب كان يقابله استهتار بلغ حد الغفلة من جانب الامراء المماليك الذين تجمعت في أيديهم مقاليد الحكم والحرب والادارة والاقتصاد في مصر . لم يقدر تماما هؤلاء الامراء الخطر الداهم الذي استهدفت له البلاد وأطاح في النهاية بنفوذهم ونظامهم وكيانهم السياسي والحربي . وبدأت منهم في هذا الوقت العصيب ظاهرتان خطيرتان ، أولاهما : أنهم انصرفوا الى المحافظة على مدخراتهم ونفائسهم . وثانيتهما : أنهم لم يتناسوا - ولو الى حين - تنافسهم القديم على السلطة . أما الظاهرة الأولى فيصفها الجبرتي وصفا يفيض بالآلم والحسرة وهو يستعرض حالة القاهرة قبيل زحف الفرنسيين عليها فيقول ان الامراء المماليك « شرعوا في نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة الى البيوت الصغار التي لا يعرفها أحد ، واستمروا طول الليالي ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم ،

(١) العرضي كلمة مأخوذة من اللفظة التركية أوردو ومعناها معسكر . وقد وردت في كتابات بعض الباحثين أوردى ، أوردو . أرضي .

وأرسلوا البعض منها لبلاد الارياف ، وأخذوا أيضا في تشييل الاحمال واستحضار دواب الشيل وأدوات الارتحال ، . وهكذا كان الفرق واضحا صارخا في الوقت العصيب : **زعيم مصرى هو عمر مكرم يدعو الشعب الى الكفاح والنضال** وشعب يستجيب **للكفاح أروع ماتكون الاستجابة** ، وحكام يحرصون على حطام الدنيا بدلا من تكريس كل جهودهم ووقتهم لصد الغزاة . أما الظاهرة الثانية فقد ظل ابراهيم بك ومراد بك واتباعهما على انقسامهم القديم . وكان كل فريق يرتاب في نيات الآخر ولم يحدث تعاون بين الفريقين وبقي جيش كل منهما بعيدا عن الآخر ، ابراهيم بك فى بولاق ومراد بك فى امبابة يفصل بينهما نهر النيل .

معركة امبابة ٢١ من يوليو ١٧٩٨ :

وقف مراد بك فى امبابة استعدادا لملاقاة الفرنسيين واحتشد فى ميدان المعركة آلاف مؤلفة من المتطوعين من أهل القاهرة والفلاحين من سكان الأقاليم ، وضمت هذه الجموع الزاخرة المسلمين والأقباط على السواء ، وبدأت بصورة رائعة وحدة عنصرى الأمة أشد ماتكون تماسكا فى أوقات الشدائد . وبقي ابراهيم بك معسكرا على الضفة الشرقية للنيل عند بولاق ومعه بكر باشا الوالى العثمانى . وهذه ظاهرة جديدة بالتسجيل تدل على ضعف الباشا ، اذ ترك أمر الدفاع عن مصر الى المماليك ، مع أنه كان يجب عليه أن يكون هو الرجل الأول فى مصر قولا وعملا . ويعتقد الخبراء العسكريون أن مراد بك ارتكب خطأ حربيا جسيما بمقابلة الفرنسيين على الشاطئ الغربى للنيل عند امبابة ، اذ كان الواجب عليه أن يجمع قواته الى قوات ابراهيم بك وتقف هاتان القوتان كتلة واحدة متراسمة متعاونة على الشاطئ الشرقى وتترك للفرنسيين مهمة عبور النيل لدخول

القاهرة وهي مهمة لا تخلو من خطر على الجيش الفرنسى المهاجم .
ولكن النفرة والتنافس والتحاسد كل أولئك جعل مراد بك يقف
بقواته فى أرض مكشوفة فحصدتهم المدفعية الفرنسية حصدا .

ولما شاهد بونابرت من بعد قوات خصمه أطلق عبارته
المشهورة وقد أراد أن يثير بها حماس الجنود الفرنسيين : « تقدموا
أيها الجنود ، واعلموا أن أربعين قرنا من الزمان تنظر اليكم من فوق
قمم هذه الأهرام . » وفى بدء المعركة حمل مراد بك ومعه خيرة
فرسانه حملة عنيفة على الفرنسيين واخترق صفوفهم بسرعة وبطولة
وخفة أذهلت الفرنسيين وأوقعت الارتباك فى صفوفهم . ولكن
أنقذت المدفعية الفرنسية المتحركة موقف الجيش الفرنسى اذ حصدت
قذائفها المماليك والمصريين المتطوعين ومات كثير منهم قتلا أو غرقا
فى النيل . وكانت خسائر المصريين فى الأرواح أفدح ، اذ قتل منهم
خمسة آلاف بينما بلغت خسائر المماليك ألفى قتيل . ويقرر
بونابرت فى مذكراته أن خسائر الفرنسيين بلغت ثلاثمائة قتيل .
واختار الفرنسيون لمعركة امبابة اسما آخر خالدا له رنين تمجيذا
لانتصارهم فأطلقوا عليها معركة الاهرام .

رحيل عمر مكرم من القاهرة :

أما ابراهيم بك فلم يكن رجلا عسكريا بل كان يغلب عليه
الطابع السياسى والادارى . ولما رأى أن الهزيمة قد حلت بزميله
مراد بك جمع أمواله ونفائسه ومدخراته ورحل غداة المعركة من
القاهرة ومعه قواته التى ظلت سليمة لأنها لم تشترك فى المعركة
وصحبه بكر باشا الوالى العثمانى والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف
والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد
السادات وغيرهم من كبار المشايخ . وقصدوا الى المطرية قبل أن
يوصلوا سفرهم الى بلبس عاصمة مديرية الشرقية فى ذلك

الوقت • وحذا حذوهم عدد كبير من سكان القاهرة اتجه بعضهم الى الصعيد والبعض الآخر وهم الكثرة الى مديرية الشرقية •

بونابرت يكتب الى عمر مكرم والمشايخ بالعودة الى القاهرة :

أصبحت القاهرة بدون حكومة ولا جيش أمام القوات الفرنسية ولم يبق فيها الا صغار مشايخ الازهر وبعض التجار وأطلقوا سراح التجار الفرنسيين ومن اليهم من رعايا فرنسا الذين اعتقلتهم سلطات القاهرة عقب نزول الحملة في الاسكندرية • وفى صباح اليوم التالى لمعركة امبابة عاد الى القاهرة كثير من سكانها وهم فى أسوأ حال من الفزع والعري • وكانوا قد غادروها بعد المعركة مباشرة • وتبين لهم أن الفرنسيين لم يدخلوا القاهرة بعد ، وأنهم لم يشعلوا النيران فيها كما انطلقت الشائعات بهذا النبا ، وتأكدوا أن ألسنة اللهب التى رأوها عند فرارهم تنبعث قوية رهيبة كانت من فعل مراد بك الذى أعمل النار فى سفينته الحربية الكبرى حتى لا تقع فى أيدي الفرنسيين غنيمة باردة •

وعقد اجتماع عام فى الازهر فى صباح اليوم التالى للمعركة واستقر رأى المجتمعين على ارسال وفد لمفاوضة الفرنسيين ، وكان بونابرت مقيما فى قصر مراد بك فى الجيزة فأرسلوا اليه وفدا يتكون من رسولين أحدهما مغربى يتكلم الفرنسية • وأحسن بونابرت مقابلة الوفد الذى قدم له رسالة المجتمعين بالأزهر وفيها يطلبون تأمين حياة السكان وأموالهم • وقد طلب بونابرت أن يحضر اليه كبار المشايخ كى يتخذ بالاتفاق معهم التدابير الخاصة بانشاء ديوان يتكون من سبعة أشخاص عقلاء يصرفون الأمور • ولكن الوفد طالب باصدار الأمان فكتب لهم بونابرت منشورا وجهه الى سكان القاهرة وهو مؤرخ فى ٢٢ يوليو ١٧٩٨ •

ولما عاد الوفد الى القاهرة اطمأن الأهالى وذهب الى بونابرت

بعض العلماء وكان على رأسهم الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى ، فقابلهم بالبشاشة والترحاب « وسألهم هل هم كبار المشايخ ؟ فأجابوا بأن المشايخ الكبار قد خافوا وهربوا . وقال بونابرت مستهجنا هذا التصرف : « ولماذا يهربون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة » فاستكتبوه عدة خطابات الى كبار المشايخ بالحضور والأمان (١) ، .

وقد وجه بونابرت الدعوة الى كل من السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ السادات وغيرهم من كبار المشايخ بالعودة الى القاهرة . ورفض عمر مكرم هذه الدعوة واستمر فى طريقه مع ابراهيم بك مرتحلا الى بلبيس ، بينما قبل الدعوة الشيخ الشرقاوى والشيخ السادات وعادا فعلا الى القاهرة ومعهما كثير من المشايخ وعامة الشعب ممن هاجروا عقب المعركة . وشرعت انقوات الفرنسية تعبر النيل على كوبرى انشىء بين الجيزة والقاهرة كان عبارة عن سفن ربطت بعضها الى بعض . ودخل الجنرال ديبوى Dupuy القاهرة ليلا على رأس كتيبة وسار أمامه حملة المشاعل والمنادون يطلقون نداءاتهم بالأمان للأهالى ونزل فى بيت ابراهيم بك الصغير (٢) . وفى اليوم التالى - ٢٣ يوليو - دخلت فرق الجيش القاهرة واحتلت القلعة وغيرها من الأماكن ذات الأهمية الحربية . وظل بونابرت مقيما فى الجيزة يستقبل فى قصر مراد بك الشخصيات التى تعبر اليه النيل ثم انتقل فى ٢٤ يوليو الى القاهرة حيث نزل فى قصر محمد الألفى بك المطل على بركة الأزبكية وكان قد تم تشييد هذا القصر من عهد قريب واشترى له الألفى بك أفخر

(١) الجبرنى ج ٣ ص ١٠

(٢) ابراهيم بك الصغير هو صهر ابراهيم بك الكبير وكان من ضحايا معركة

امبابة اذ ألقى بنفسه فى النيل هربا من قذائف المدفعية الفرنسية فمات غرقا .

الأثاث وأنفق الأموال بسسخاء فى زخرفته حتى جاء آية فى الفن والجمال والابداع . وشاءت الأقدار أن ينعم بونا بربت بالاقامة فى هذا القصر وكأن الألفى قد بناء هذا الفرنسى ثم لمن جاء بعده من الحكام الفرنسيين والولاة العثمانيين .

عمر مكرم يرفض عضوية ديوان القاهرة :

لم يكذ يمضى يوم واحد على دخول بونا بربت عاصمة البلاد حتى أصدر قرارا بتشكيل ديوان وطنى لمدينة القاهرة يتكون من تسعة أعضاء كانوا جميعا من المصريين المسلمين وادخل فى عضوية هذا الديوان السيد عمر مكرم بصفته نقيباً للأشراف . ونذكر هنا ترجمة قرار انشاء الديوان وتشكيله .

معسكر القاهرة فى ٧ ترميدور من السنة السادسة للجمهورية (٢٥ من يوليو ١٧٩٨) .

بونا بربت عضو المجمع الاهلى والقائد العام للجيش يأمر بما يأتى :

أولا : تحكم مدينة القاهرة بواسطة ديوان مؤلف من تسعة أعضاء .

ثانيا : يتألف هذا الديوان من المشايخ: السادات، الشرقاوى، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، والسيد عمر نقيب الأشراف ، ومحمد الأمير . وعليهم أن يجتمعوا فى الساعة الخامسة مساء اليوم فى منزل كخيا الشاويشسية ، وعليهم أن ينتخبوا من بينهم رئيسا لهم ويختاروا سكرتيرا (كأنهم سر) من غير الأعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية .

ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الأغوات (رؤساء الجند)
للاشراف على شئون الشرطة ، وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة
لمراقبة الأسواق وتموين المدينة ، ولجنة من ثلاثة آخرين يكلفون
بمهمة دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها الى فرسخين منها .

ثالثا : يجتمع أعضاء هذا الديوان كل يوم من الظهر ويبقى
منهم ثلاثة أعضاء على الدوام فى دار المجلس .

رابعا : يقام على باب الديوان حرس فرنسى وآخر تركى .

خامسا : على الجنرال برتويه Berthier (١) وحاكم المدينة (٢)
أن يتواجدا فى الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لاجراء
ما يلزم لأعضائه ، ولكى يأخذا عليهم تعهدا بألا يعملوا شيئا ضد
مصلحة الجيش (٣) .

هجرة عمر مكرم من مصر وبواغتها :

كان وجود عمر مكرم فى بلبيس أكبر حافز لسكان مديرية
الشرقية على القيام فى وجه الفرنسيين مما دفع بونابرت الى العمل
الحربى السريع ، لأنه توجس خيفة من نشاط عمر مكرم وخشى
القوة الحربية التى كانت تحت امرة ابراهيم بك لأنها ظلت سليمة
لم تشترك فى معركة امبابة . ورأى بونابرت الخطر الكامن فى
مرابطة هذه القوة على مقربة من القاهرة ووجود زعيم وطنى فى هذه
المنطقة يلهب سكانها حماسا ضد الفرنسيين . كما أن موعد عودة
الحجاج المصريين من الحجاز كان قد اقترب ، وكان لا بد أن يسلك

(١) هو رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى .

(٢) جاء فى النص الفرنسى أنه القومندان وهو الجنرال ديبوى Dupuy

(٣) الوثيقة رقم ٢٨٣٧ فى Correspondances de Napoléon, t. IV

الحجيج فى عودتهم الى القاهرة أراضى مديرية الشرقية التى يسيطر عليها ابراهيم بك .

زحف بونابرت على بلبيس فدخلها بدون قتال لان ابراهيم بك كان قد أخلاها قبل وصول الفرنسيين اليها ووجد بونابرت فى المدينة جموعا من الحجاج لم يتعرض لهم بسوء بل أرسلهم معززين الى القاهرة فى حراسة بعض الجنود الفرنسيين . وعلم بونابرت أن ابراهيم بك يعتزم مغادرة البلاد الى الشام فعول على أن يتعقبه ويقضى على قواته قبل خروجه من مصر ، وجد فى زحفه حتى لحق به فى مكان قريب من الصالحية . واشتبك الفريقان وكانت معظم قوة الفرنسيين من الفرسان وكانوا أضعف وأجبن من أن يصمدوا أمام فرسان المماليك . وكان هذا الاشتباك أول معركة التقى فيها الفريقان دون أن يكون مع الفرنسيين سلاح المدفعية الذى يعتمدون عليه اعتمادا كبيرا ، ولذلك كادت الهزيمة تلحق بالفرنسيين أمام شجاعة فرسان المماليك ، ولم ينقذ بونابرت الا وصول نجدات اليه . واضطر المماليك الى الانسحاب . وتسمى هذه المعركة باسم الصالحية (١١ من أغسطس ١٧٩٨) وارتحل عمر مكرم مع ابراهيم بك الى العريش ثم الى غزة .

ولكن ما هى البواعث التى حملت عمر مكرم على الهجرة من مصر ؟ انها النزعة الدينية القوية المتأصلة فى نفسه . انها اى لواء نلسلطان العثماني سلطان المسلمين . انها الالتصاق بالدولة العثمانية على اعتبار أنها دولة الاسلام الكبرى . ويلاحظ أن المجتمع فى مصر كان مجتمعا دينيا خالصا ، وكانت الفكرة الاسلامية فيه سمة بارزة عميقة الجذور . فعمر مكرم لا يطيق أن يعيش بمحض رغبته واختياره فى القاهرة متمتعا بمركز مرموق ونفوذ واسع ومال وفير بعد أن أصبحت مصر تابعة لدولة أوربية ناصبت سلطان المسلمين العداء وانتزعت منه بلدا اسلاميا . وعمر مكرم يرفض أن

يدون من دعائهم الحكم الجديد، وهو يفضل النفي الاختياري والتشريد
وشظف العيش ومعاناة الصعاب على أن يتعاون مع الفرنسيين في
أية صورة من صور التعاون . ومما لاشك فيه أن عمر مكرم قد اطلع
على المنشور الاول الذي وجهه بونابرت الى الشعب المصرى . وكان
هذا الفرنسى وهو لا يزال فى الاسكندرية قد أرسل نسخا عديدة
منه الى القاهرة وقد حمل هذه النسخ الاسرى المسلمون الذين أطلق
الفرنسيون سراحهم فى جزيرة مالطة وجاءوا بهم الى مصر . ولكن
لم يركن عمر مكرم الى ما جاء فى هذا المنشور من زيف وكذب
ونفاق . ألم يقل بونابرت فيه ان الفرنسيين مسلمون مخلصون؟ (١)
وأنهم « صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى » وان
بونابرت يحترم النبى عليه السلام والقرآن الكريم . ثم هذا
التهديد الذى حفل به المنشور باحراق المدن والقرى اذا هى لم تدع
للحكم الفرنسى وترفع « علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى
وأحمر » وانذار المصريين باستهدافهم لأشد أنواع العقاب اذا شقوا
عصا الطاعة ؟ وكان عمر مكرم يحدوه أمل قوى فى أن يعود الى
الجهاد وأن السلطان - وقد فوجئ بالغزو الفرنسى - سوف يحشد
جيشا جازا يرد العدوان ويعيد مصر الى حظيرة دولة الاسلام
الكبرى .

عزل عمر مكرم من نقابة الأشراف ومصادرة أمواله :

حدث ما كان متوقعا فما كاد يعود بونابرت الى القاهرة من
موقعة الصالحية واستبان موقف عمر مكرم العدائى من الحكم الفرنسى

(١) جاء فى النص الفرنسى أن الفرنسيين أصدقاء للمسلمين المخلصين

Que nous sommes amis des vrais musulmans والفرق كبير

جدا بين العبارتين الفرنسية والعربية .

حتى اتخذ اجراءات انتقامية تعسفية • عزل عمر مكرم من منصبه كنقيب للأشراف وصادر أمواله • وأصدر في أغسطس ١٧٩٨ قرارا بتعيين الشيخ خليل البكرى نقيباً مكانه • يقول الجبرتي « وفي ذلك اليوم ألبس الشيخ خليل البكرى فروة وتقلد نقابة الأشراف ونودي في المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها الى النقيب » • وكان خليل البكرى نائب السعي لدى الفرنسيين لتعيينه في هذا المنصب • وقد أوضح للفرنسيين أن نقابة الأشراف كانت دائماً في بيت البكرية وأنها اغتصبت منهم «فقلده الفرنسيون اياها واستولى على وقفها وايرادها» وقدر النقيب الجديد فضل بونابرت عليه فلم يدخر وسعاً في ارضائه وغمره بالهدايا الثمينة وقد ظل بعضها ردحا طويلاً من الزمن حديث المجالس في أوروبا ، ونعني ببعض الهدايا «رستم» المملوك الشركسي الجميل أنشكول وكان له من العمر وقتذاك ثمانية عشر عاماً وقد اصطحبه معه بونابرت الى فرنسا وظل مرافقاً له في غدواته وروحاته وانتصاراته • وكان يلقب « مملوك الامبراطور » وتمتع بمركز ممتاز في قصر التويلري Tuileries في باريس وظل اسم رستم مقروناً باسم نابليون (١) •

الترايط العربى ابان الحملة الفرنسية :

أعلن السلطان العثمانى الجهاد الدينى ضد الفرنسيين واستجاب لدعوته العرب فى الحجاز والشام وشمال افريقيا كما اشتركت الجاليات العربية فى مصر مع الشعب المصرى فى المقاومة

(١) يطلق عليه الفرنسيون روستان Roustan وقد ولد فى جورجيا سنة ١٧٨٠ وتوفى سنة ١٨٤٥ وتشنهر ولاية جورجيا بأن سكانها من أجمل سكان العالم شكلاً • انظر

المسلحة ضد الفرنسيين . فمن الحجاز خرجت حملة من المتطوعين العرب بقيادة رجل يسمى الكيلاني وهو من الأشراف - ويقول الجبرتي « لما وردت أخبار الفرنسيين الى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم . . . وصار هذا الشيخ يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ويحضهم على نصره الحق والدين . وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا في معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القصير مع ما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافهم (١) » وتطلق عليهم المراجع الفرنسية اسم « المكويون Les Mezquies » أي أهل مكة وهذه التسمية تنطوي على خطأ واضح لأن أفراد هذه القوة لم يكونوا جميعا من سكان مكة ، بل انضمت اليهم أفواج من المدينة وينبع والطائف وجدة وغيرها . وكان هؤلاء العرب خصوما أشداء للفرنسيين في الصعيد اذ صمموا على الاستشهاد وكان من بينهم عدد من الأشراف « وانضم اليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان قد خرج معهم مع غزو مصر عند واقعة انبابة » ويشيد الجبرتي ببسالة عرب الحجاز وثباتهم في المعارك . وهكذا تجمعت في الصعيد ضد الفرنسيين عدة قوى : الفلاحون وعرب الهوارة وعرب الحجاز والمماليك ومن معهم من المغاربة . واستغل هؤلاء المناضلون ظروف الصعيد فالبلاذ متباعدة تفصلها مسافات طويلة ، والمواصلات صعبة بطيئة ، وأصبحت قوات الفرنسيين مبعثرة على طول النيل في مديريات الصعيد واستهدفت سفنهم لهجمات المصريين من الشاطئ ، تضاف الى ذلك رداءة الطقس ومتاعب الزحف في الرمال وفتك الرمد بعدد كبير من الجنود الفرنسيين . وكانت النتيجة أن عجز الفرنسيون عن بسط سيطرتهم على أقاليم الصعيد على الرغم من أنهم وصلوا الى أسوان ،

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٤٤ .

فظل مركزهم مزعزعا وتمرد المصريون عليهم واستهانوا بقواتهم وقطعوا مواصلات الجيش ، وحالوا بينهم وبين الحصول على مواد التموين ودواب الحمل . وتعددت الثورات وانتقلت من اقليم الى اقليم وفقد الفرنسيون الراحة والطمأنينة .

كذلك جاء الى مصر رجل من مدينة درنة بطرابلس الغرب لقب نفسه المهدي ودعا الى قتال الفرنسيين وانضم اليه رجال القبائل من اولاد علي والهنادى وغيرهم وسار بهم الى دمنهور حيث اباد حاميتها الفرنسية وكان لانتصار المهدي صدى كبير فى أنحاء البلاد فهرع اليه الناس من كل حذب وصوب وزاد عدد اتباعه وازداد اعتقاد الناس فى قوته وخوارقه . ولما علم حاكم الاسكندرية بنبا الكارثة التى حلت بالحامية الفرنسية فى دمنهور أرسل نجدة مزودة بالمدافع لتتعقب المهدي ولكنها هزمت ، فأرسل حملة من رشيد ودارت معركة سنهور، وكانت من أشد المعارك هولا استمرت سبع ساعات وانتهت بفوز المهدي وارتداد الفرنسيين الى الرحمانية .

وهكذا كانت مقاومة الحملة الفرنسية مظهرا رائعا للأخوة العربية والترايط العربى ، وأثبتت أن الشعوب العربية هى شعوب أمة واحدة تظهر أصالتها ويبرز تضامنها وتساندها ابان الشدائد .

الفصل الرابع

القبض على عمر مكرم فى يافا واعادته الى مصر

تطورت الأحداث تطورا سريعا لم يكن فى الحسبان . ورأى بونابرت ازاء هذا التطور أن يزحف على الشام . ودخل الجيش الفرنسى قلعة يافا فوجد عمر مكرم معتصما بها مع جماعة من المجاهدين المصريين والشوام وعليه ملابس رثة وفى ظروف مادية قاسية .

كان الأسطول الانجليزى قد فاجأ الأسطول الفرنسى الراسى فى مياه أبى قير ودارت معركة بالغة العنف أسفرت عن تحطيم واغراق الأسطول الفرنسى (أول أغسطس ١٧٩٨) ويطلق الفرنسيون على هذه المعركة اسمها الجغرافى الصحيح وهو معركة أبى قير البحرية ، بينما اختار لها الانجليز اسما له رنين فى الأسماع فأطلقوا عليها اسم معركة النيل . وكانت هذه المعركة أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية اذ جعلتها تفقد وسيلة الاتصال بينها وبين فرنسا ، وضاع الأمل فى وصول المدد والذخائر من فرنسا الى الحملة ، وهبطت الروح المعنوية لدى أفرادها . كما كان لهذه المعركة تأثير أساسى فى تحول الدولة العثمانية من خطة التسليم بالأمر الواقع الى خطة اعلان الحرب على فرنسا والعمل على اخراج الفرنسيين من مصر . وكانت هذه المعركة نذيرا بتكوين التحالف الدولى الثانى ضد فرنسا من انجلترا وروسيا والنمسا وتركيا .

وعلم بونابرت أن الدولة العثمانية فى صدد ارسال جيش يتعاون مع قوات الشام للاغارة على مصر فرأى أن يسرع بصدد هذا الجيش فى الشام قبل أن يصل الى مصر خشية أن ينتهز الشعب المصرى فرصة وجود جيش عثمانى فى مصر ويشور على الفرنسيين ويضطر بونابرت الى المحاربة فى جبهتين فى وقت واحد . وكان سكان القاهرة والقرى المحيطة بها قد قاموا فى أكتوبر ١٧٩٨ بشورة عنيفة هادرة تخرج أثناءها مركز الفرنسيين وزلزلوا زلزالا شديدا . فالغرض من حملة الشام هو الدفاع عن مصر وتوطيد دعائم الحكم الفرنسى فيها .

تحركت الحملة بقيادة بونابرت فى أواخر يناير ١٧٩٩ واحتلت العريش ثم خان يونس وغزة والرملة واللد . وبلغت مشارف مدينة يافا فى ٣ مارس . وقاومت حامية المدينة الجيش الفرنسى مقاومة عنيفة واستشهد منها ما يقرب من الالفين وآثر الباقون التسليم ، ودخلها الجيش الفرنسى فى ٧ مارس ، وعمد الفرنسيون الى الانتقام من أهل يافا ، وأعملوا القتل والسلب والاحراق وانتهاك الحرمات . واضطر الحاكم الفرنسى الذى عينه بونابرت على المدينة الى قتل بعض الجنود الفرنسيين حتى يكف زملاؤهم عن مواصلة ارتكاب الفظائع . ولم تقف المأساة عند هذا الحد ، فقد ارتكب بونابرت ما يسمى فى التاريخ « مذبحه يافا » ، ذلك أنه أمر باعدام أفراد الحامية الذين سلموا أنفسهم فسيقوا الى شاطئ البحر زمرا حتى اذا جاءوه أطلقت عليهم المدفعية نيرانها فحصدتهم حصدا (١) .

(١) يبرر الفرنسيون هذه الفعلية الشنعاء تبريرا لا تفره قوانين الحرب ولا يستسيغه عقل ، فيقررون أنه لم يكن فى استطاعة بونابرت أن يرسلهم الى مصر لأنه كان لا بد من اقتطاع قوة عسكرية من جيشه تقوم على حراستهم فى الطريق وهو أمر يؤدى الى اضعاف القوة الضاربة التى تحت قيادته ، كما لم يكن فى استطاعته تدبير طعام لهذا العدد من الاسرى .

كان عمر مكرم فى قلعة يافا مع عدد من المصريين تم القبض عليهم جميعا ولكن استثناهم بونابرت من المذبحة ، وسرعان ما أخذ يمن على الشعب المصرى بأنه لم يمسس بسوء السيد عمر مكرم ولا رفاقه الذين وجدهم فى يافا . فأذاع على الشعب المصرى منشورا جاء فيه « وفى يوم الجمعة غرة شوال ١٢١٣ (٨ من مارس ١٧٩٩) وقع الصفح الجميل من حضرة سارى عسكر الكبير ورق قلبه على أهل مصر من غنى وفقير الذين كانوا فى يافا ، وأعطاهم الأمان وأمرهم برجوعهم الى بلدهم مكرمين، وكذلك أمر أهل دمشق وحلب برجوعهم الى أوطانهم سالمين لأجل أن يعرفوا مقدار شفقتة ومزيد رأفته ورحمته ، يعفو عند المقدرة ويصفح وقت المعذرة مع تمكنه ، ومزيد اتقانه وتحصينه » (١) .

واستدعى بونابرت اليه السيد عمر مكرم وكان هذا أول لقاء بين الزعيم وبين القائد الفرنسى . وقد عاتبه بونابرت على خروجه من مصر هو ورفاقه . ويلوح أن الحالة المادية للسيد عمر مكرم وزملائه كانت سيئة . وهذا وضع طبيعى يتعرض له المجاهدون المخلصون . فقد انقطعت عنه وعن رفاقه مواردهم المالية وأصبحوا يعيشون عيشة ضنكا ، فقدم لهم بونابرت ملابس ارتدوها . يقول الجبرتى ان السيد عمر مكرم هو ورفاقه - وقد ذكر أسماء لفيف منهم . « كانوا بقلعة يافا ، فلما حاصرها الفرنسيون وملكوا القلعة والبلد لم يتعرضوا للمصريين وطلبهم اليه بونابرت وعاتبهم على نقلهم وخروجهم من مصر وألبسهم ملابس » (٢) والأمر العجيب أن الأمير ابراهيم بك - وهو رجل مليء - أمسك عن الانفاق على السيد عمر مكرم ورفاقه المصريين وهو يعلم علما يقينيا أن سبل الحياة قد ضاقت بهم فى منفاهم . وقد انتهز المستعمر الأوروبى هذه الفرصة

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٥١ .

(٢) ص ٥٣ من المصدر السابق .

فأظهر نحوهم كرما وقدم لهم الملابس ، ولكن كان كرمه هادفا
وسخاؤه مفرضا ، فعرض على رفاق السيد عمر مكرم من المصريين
الالتحاق بالجيش الفرنسى ولكنهم رفضوا جميعا . وأمر بونابرت
بإعادتهم الى مصر كما أمر بأن يستقل السيد عمر مكرم وبعض رفاقه
أحدى السفن التى غنمها الفرنسيون فى يافا فأبحرت بهم الى دمياط
فى أواخر مارس ١٧٩٩ . أما بونابرت فقد واصل زحفه شمالا ثم
حاصر عكا أكثر من شهرين وارتد عنها . وحدث أثناء الحصار أن
أرسلت الحكومة العثمانية جيشا هزمه بونابرت فى موقعة تل طابور
بالقرب من بحيرة طبرية . ولكن لم ينجم عن انتصار بونابرت فتح
عكا بل انه رفع الحصار عنها وعاد الى مصر بعد أن نجحت حملة الشام
فى تحقيق هدفها الرئيسى وهو القضاء على الجيش العثمانى الزاحف
على مصر قبل أن يصل اليها .

التحفظ على عمر مكرم فى دمياط اجراء سياسى وقائى :

لم تاذن السلطات الفرنسية فى دمياط للسيد عمر مكرم فى
مواصلة سفره الى القاهرة اذ فرضت عليه الإقامة الجبرية فى تلك
المدينة عدة شهور . يقول الجبرتى انه فى ٣ صفر ١٢١٤ - أى ٧
يوليو ١٧٩٩ - حضر السيد عمر افندى نقيب الأشراف سابقا
من دمياط الى مصر (القاهرة) وكان مقيما هناك من بعد واقعة يافا،
ونزل مع الذين أنزلوهم من يافا الى البحر وفيهم عثمان افندى
العباسى وحسن افندى كاتب الشهر ، وأخوه قاسم افندى ، وأحمد
افندى عرفة، والسيد يوسف العباسى، والحاج قاسم المصلى وغيرهم
فمنهم من عوق بالكرنتيلة ومنهم من حضر من البر خفية ، فحضر
بعض الأعيان لملاقاة السيد عمر وركبوا معه بعد أن مكث هنيهة
بزاوية على بك التى بساحل بولاق حتى وصل الى داره . وتوجه
فى ثانى يوم مع المهدي وقابل سارى عسكر فبش له ووعد به بخير ،

ورد اليه بعض تعلقاته ، واستمر مقيما بداره والناس تغدو وتروح اليه على العادة » .

بتحليل هذا النص الذى أورده الجبرتي ترى أمامنا عدة حقائق بعضها فى أثر بعض ، تحتاج احداها الى تصحيح أو ايضاح لعله غاب عن عقلية هذا المؤرخ العملاق . فلاحظ أن السيد عمر مكرم قد بلغ القاهرة فى ٧ من يوليو ١٧٩٩ قادما من دمياط ، أى أن اقامته فى هذه المدينة قد امتدت أكثر من ثلاثة أشهر . ويعزو الجبرتي هذا التأخير الى أنه «عوق بالكرنتيلة» أى أن سلطات المدينة فرضت عليه حجرا صحيا بسبب الوباء الذى انتشر انتشارا مروعا فى أوساط الجيش الفرنسى ثم انتقل الى الشعب المصرى ، ذلك أن المجزرة البشرية التى ارتكبتها الفرنسيون فى يافا أدت الى ظهور الوباء بين الجنود الفرنسيين ولما انتقل الى مصر كان أول ظهوره فى دمياط بين جنود الحامية الفرنسية بها لأنها كانت قد اشتركت فى حملة بلاد الشام وأخذت عدواه تنتقل الى الفرق الأخرى ومنها الى الشعب ، ولكن ملابسات الموقف تحملها على الاعتقاد بأن هناك سببا أكثر جدية من التعليل الذى ذكره الجبرتي . وكان هذا السبب يتصل باعتبارات الأمن الداخلى للجيش الفرنسى فى مصر . لقد احتجزت السلطات الفرنسية الزعيم المصرى فى دمياط لأسباب سياسية ريثما يعود بونابرت من حملته على بلاد الشام . وكان عمر مكرم يتمتع بشعبية عريضة وعميقة فى أوساط الجماهير وخشى الفرنسيون أن يكون وجود الزعيم فى القاهرة مدعاة لقيام الشعب بثورة عارمة على الحكم الفرنسى بينما يكون بونابرت متغيبا عنها ، فلما عاد الأخير الى القاهرة فى ١٤ يونيو ١٧٩٩ سمح الفرنسيون لعمر مكرم بمواصلة سفره الى العاصمة . وعلى ذلك لم تكن اقامة الزعيم فى دمياط اجراء وقائيا صحيا بل كانت اقامته أولا وقبل كل شئ اجراء وقائيا سياسيا . وأية عظمة أبلغ من هذه العظمة: جيش

أوربي مدجج بالسلاح يخشى زعيما شعبيا مجردا من كل سلاح الا سلاح الايمان بالله وبالوطن .

تصرفات خليل البكرى أساءت اليه واحسنت الى عمر مكرم :

خرج أعيان القاهرة الى بولاق - ميناء القاهرة النهري - لاستقبال عمر مكرم والترحيب به بعد عودته من منفاه ، ثم رافقوه الى داره وأخذت جموع الشعب تتردد على منزله وتدل هذه المظاهر التي أحاطه بها الشعب - أعيانه وعامته - على أن مكانته قد سمت في أعين مواطنيه وبخاصة اذا لاحظنا أنه كان مبعدا عن نقابة الأشراف وعن أى منصب رسمي آخر .

وهنا نقف وقفة قصيرة لنرى ماذا فعل مع الفرنسيين الشيخ خليل البكرى الذى أقامه بونابرت نقيبا للأشراف بدلا من عمر مكرم ، لأن تصرفات النقيب الجديد ساعدت بطريق غير مباشر على ازدياد مكانة الزعيم لدى الشعب . لقد أسرف الشيخ خليل البكرى فى تملقه لبونابرت ومضى قدما فى توثيق صلاته بالفرنسيين ولقد بدأ بالهدايا يغمر بها بونابرت وكان من بينها المملوك رستم الذى سبق أن تكلمنا عنه ، ثم تتابعت هداياه من خيل مطهمة وهجن سريعة وأسلحة ذات قبضات محلاة بالذهب والجواهر الكريمة ، وشيلان كشميرية ، وأقمشة حريرية من صناعة الهند والصين ، ثم عطر وعود وصندل ، فضلا عن الجوارى الحسان من الشركس والحبشان وتطورت العلاقات حتى ارتضى الشيخ خليل البكرى أن تكون داره هى المكان المختار لبونابرت يدنسه بسهراته ومجونته وفسقه وانتهى الأمر بأن وثقت ابنته زينب البكرية صلاتها بالفرنسيين وعلى رأسهم بونابرت حتى أوغل المعاصرون لها والمؤرخون والباحثون فى شرفها وعرضها ايغالا بعيدا (١) .

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١٩٢ حوادث ربيع أول ١٢١٦ (١٢ يوليو - ١٠

يهمنا من هذه التصرفات غير الكريمة التي بدرت من الشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف الجديد أنها أساءت إليه بقدر ما أحسنت الى نقيب الأشراف السابق السيد عمر مكرم . والشعوب قلما تخطيء ، والشعب المصرى مشهود له بالذكاء وبأن حكمه على الأمور والشخصيات يكون فى الغالب الأعم حكما صحيحا سليما . والحالة النفسية التي كان يمر بها الشعب المصرى وقتذاك جعلته - من حيث لا يدري - يعقد المقارنات بين النقيبين السابق واللاحق ، فاذا بصفحة عمر مكرم تبدو للجماهير ناصعة البياض واذا بصفحة الثانى لا تنضح بالتعاون الوثيق مع الفرنسيين فحسب بل تتشح بتصرفات تمس الشرف وتلطخ أسرة البكرى العريقة . فتحفظ الجماهير تقديرها العميق للسيد عمر مكرم وتكتم حنقها المتأجج على الشيخ خليل البكرى حتى اذا لاحت الفرصة أظهرت الجماهير ذلك التقدير لعمر مكرم وفجرت هذا الغيظ المكبوت ضد خليل البكرى ، أفصححت عن تقديرها حين عاد عمر مكرم من يافا وكان الحكم الفرنسى لا يزال على ضراوته وصرامته عسكريا عنيفا ، ومع ذلك كان الشعب يتردد على عمر مكرم فى داره أو بعبارة الجبرتى « والناس تغدو وتروح اليه على العادة » . وبقي حنق الجماهير على الشيخ خليل البكرى فى الصدور يضطرب حتى اذا نشبت ثورة القاهرة الثانية بعد رحيل بونابرت الى فرنسا اقتحم الثوار منزل الشيخ خليل وساقوه حافى القدمين عارى الرأس فى شوارع القاهرة والجماهير تحيط به وتسبه بأقذر أنواع الشتائم ، ولم ينقذه من ثورة الشعب الا السيد أحمد

= أغسطس ١٨٠١) و ج ٤ ص ٨٧ ترجمة السيد خليل البكرى فى وفيات سنة ١٢٢٣ (١٨٠٨) ص ٨٦ - ٨٨ .

أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث من ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

نقولا ترك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦ .

محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ . القاهرة سنة ١٩٥٥

من ص ١٨١ - ١٨٣ .

محرم من كبار التجار اذ أخذه وآواه في منزله (١) . أما ابنته زينب فكانت خاتمة حياتها مؤلمة ، كما سنرى بعد حين .

مقابلة عمر مكرم لبونابرت في القاهرة :

في صبيحة وصول السيد عمر مكرم الى القاهرة ذهب الى بونابرت ، وصحبه في هذه المقابلة الشيخ محمد المهدي وكان في ذلك الوقت يشغل أمين سر الديوان وأحد أعضائه في التنظيم الجديد الذي أدخله بونابرت على الديوان في ديسمبر ١٧٩٨ . ويرى بعض الباحثين بحق أن هذه المصاحبة لم تأت عفوا بل ان الزعيم لم يذهب الى بونابرت من تلقاء نفسه بل دعى الى المقابلة عن قصد وان المقابلة كانت تدبرا مبيتا بين الفرنسيين وبين الشيخ المهدي (٢) لأن ماضي هذا المهدي يدل على أنه كان أكثر العلماء تقربا للفرنسيين وصاحب حظوة كبيرة لديهم . وكان بونابرت من ناحية أخرى يسعى لاستمالة المشايخ والعلماء والأعيان . وقد ظل الزعيم أثناء هذه المقابلة وبعدها مثالا للشجاعة والثبات على المبدأ ، ولو كان بونابرت قد اشتتم منه بادرة تحول في موقفه من الفرنسيين أو ميلا الى التعاون معهم لأغدق عليه اغداقا . ولكن الزعيم لم يكن يرجو من وراء جهاده مالا أو جاها أو مركزا . لقد رد بونابرت اليه بعض أمواله التي صودرت ، ولكن لم يعده الى منصب نقيب الأشراف ولا الأوقاف التي كان يتولى نظارتها ، ولم يعينه عضوا في ديوان القاهرة ، وقد ترفع عمر مكرم عن المطالبة برد جميع ممتلكاته ، ولأن في هذه المطالبة مجالا للأخذ والعطاء والمساومات السياسية ، وكان حريصا على أن يغلق مثل هذا الباب . وقد ذكرنا أن أقصى ما كان يطمح فيه

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٩٠ - ١٠٢ حوادث شهرى سؤال وذى القعدة ١٢١٤

(وقد أدمجها معا) .

(٢) محمد فريد أبو حديد : مرجع سبق ذكره ص ٦٥ .

بونابرت قيام نوع من التعاون بين عمر مكرم وبين الفرنسيين ، وهذا ما كان يعارض فيه عمر مكرم أشد المعارضة فأخفق بونابرت في محاولته ، وظل عمر مكرم وفيما لفكرته لم يمد للفرنسيين يدا ولم يل لهم أمرا - فلنقارن هذا المسلك المشرف الذى ينم عن علو النفس والأنفة والترفع عن الوصولية بمسلك الشيخ محمد المهدي الذى صحبه في زيارته لبونابرت . يقول الجبرتي وهو يترجم للشيخ المهدي انه قد اختلط بالفرنسيين « واجتمع بهم وواصلهم ، وانضم اليهم وسائرهم ، ولطفهم في أغراضهم ، وأحبوه وأكرموه ، وقبلوا شفاعته ، ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار اليه في دولتهم مدة اقامتهم بمصر . . . وراج أمره في أيامهم جدا وزاد إirاده وجمعه ، واحتوى بلادا وجهات وأرزاقا ، وأقاموه وكيلا عنهم في أشياء كثيرة ، وبلاد وقرى يجبى اليهم خراجها » (١) وسنرى أن المهدي كان بالمال نهوما ، وأن هذا النهم كان في مقدمة الأسباب التى دفعتة الى الانضمام الى محمد على ضد عمر مكرم .

اعتكاف عمر مكرم سياسيا :

اعتكف عمر مكرم في داره بالقاهرة يرقب عن كثب تطور الموقف السياسى وهو متحفز لمواصلة الكفاح ، والشعب من وزائه متربص أيضا للقيام على الفرنسيين . ومن مظاهر اعتكافه أنه لم يشترك في الاحتفال بالمولد النبوى الشريف الذى أقيم في ١٣ من أغسطس ١٧٩٩ (١١ ربيع أول ١٢١٤) حتى لا يفسر الفرنسيون أو المصريون اشتراكه في هذا الاحتفال اقرارا منه بالوضع السياسى القائم في مصر . ويلاحظ أن بونابرت قد حرص على حضور هذا الاحتفال على الرغم من زحمة الأعمال لديه اذ كان يعد العدة للهرب

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٣٣ - ٢٣٧ .

من مصر الى فرنسا . وأصدر أمرا عسكريا فى ١٦ من أغسطس ١٧٩٩ الى الحكام العسكريين فى المديرية يأمرهم بإذاعة منشور باللغة العربية فى البلاد والقرى لإبلاغ الجماهير بأن بونابرت احتفل بالمولد النبوى الشريف ، ولم يشترك عمر مكرم أيضا فى الاحتفال بوفاء النيل الذى أقيم فى ٢٦ من أغسطس ١٧٩٩ بعد رحيل بونابرت عن مصر ، ورأس هذا الحفل الجنرال دوجا ، كما لم يشترك الزعيم فى الاحتفال بمولد الامام الحسين رضى الله عنه على الرغم من اهتمام الفرنسيين البالغ بإقامة هذا الاحتفال فانهم « قهروا الناس وكرروا المناداة بفتح الحوانيت والسهر ووقود القناديل عشر ليال متوالية آخرها ليلة الخميس ثانى عشر ربيع الثانى ١٢١٤ (١) » (١٣ سبتمبر ١٧٩٩) .

واعتكاف عمر مكرم فى داره بعد عودته من يافا لا يحمل على أنه نكوص عن الكفاح ، فقد ازداد الزعيم سخطا على الأوضاع التى انتهت اليها الأمور فى مصر . وقد رأى عقب رجوعه الانقلابات الجذرية التى أصابت الشعب المصرى فى مستقبله السياسى ومظاهر الانحلال الخلقى والاجتماعى التى انتشرت بين طبقات الشعب وعلى ذلك فان جذوة الجهاد ظلت متقدة فى نفسه وقد زادها اشتعالا صور النفاق التى عمد اليها الفرنسيون لاجتذاب جماهير الشعب اليهم . وكانت هناك صور أخرى أشد إيلاما لنفس الزعيم . ونعنى بها النفاق المتبادل بين كبار الفرنسيين وبين بعض كبار المشايخ ويمثلهم الشيخ محمد المهدى . وكل ما فى الأمر أن عمر مكرم ظل متربصا متحفزا للانتفاض على الفرنسيين منتظرا الوقت المناسب ، فلما لاحت الفرصة تنادى الى الثورة اندلعت فى ٢٠ مارس ١٨٠٢ قوية جارفة .

وكان عمر مكرم من زعمائها المبرزين وقبل أن نعرض لهذه

(١) الجبرتى ج ٣ ، ص ٧٩ .

الثورة ودور عمر مكرم القيادي فيها نمر جد مسرعين على أهم الأحداث التي تتابعت منذ مقابلة عمر مكرم لبونا بورت حتى نشوب هذه الثورة .

لم يكد يمر أسبوع واحد على مقابلة الزعيم عمر مكرم لبونا بورت حتى نزلت في ١٤ يوليو ١٧٩٩ حملة عثمانية جارية بقيادة مصطفى باشا في أبي قير على مقربة من الاسكندرية ، وكانت قد تجمعت في جزيرة رودس وبعض الثغور التركية وأسهم الاسطول البريطاني بقيادة سير سدننى سمث في نقل هذا الجيش الى مصر ، وقد أصابت الحملة نجاحا سريعا في عملياتها الحربية الأولى ولكنها ما لبثت أن تعرضت لهزيمة منكرة على يد بونا بورت في موقعة أبي قير البرية (٢٥ من يوليو ١٧٩٩) ووقع مصطفى باشا قائد الحملة في الأسر .

هروب بونا بورت من مصر :

علم بونا بورت عقب المعركة تدهور الموقف في فرنسا وقيام تحالف دولي ضد بلاده وأنها فقدت فتوحاتها ، فصحت عزيمة بونا بورت على العودة سرا الى فرنسا ، ودبر معدات هربه وارتحل من القاهرة في ١٨ أغسطس ١٧٩٩ الى غير رجعة متظاهرا بأنه يزعم القيام بجولة تفتيشية في الدلتا ، فذهب الى منوف ومنها انحدر الى الاسكندرية حيث أعدت له سفينتان حربيتان من نوع الفرقاطة وسفينتان لسفره ورفاقه وتراوح عددهم بين أربعمئة وبين خمسمئة من علماء وقواد وجنود وأتباع وكان معه أيضا رستم المملوك المشهور الذي سبق أن تكلمنا عنه وأخذوا معهم كميات من الذخائر والمدافع وسارت السفن الأربع بمحاذاة الشاطئ الأفريقي حتى يتمكن ركابها من النزول الى البر اذا لمحتهم السفن البريطانية واستغرقت الرحلة ثمانية وأربعين يوما عاشوا

فيها على أعصابهم حتى رست بهم السفن في خليج فريجوس جنوبى فرنسا في ٩ من أكتوبر ١٧٩٩ وقصد بونابرت في نفس اليوم الى باريس . وقام في ٩ نوفمبر ١٧٩٩ بانقلاب أطاح بالحكومة القائمة وأسس نظاما سياسيا جديدا في فرنسا وتركزت السلطات في يده .

وهروب بونابرت من مصر من المشاهد التاريخية النادرة : قائد من أعظم القواد العسكريين الذين عرفهم العالم في التاريخ الحديث يهاجم مصر على رأس قوات زاحفة جرارة قوامها ٣٦ ألف مقاتل نقلتهم عمارة بحرية عددها ثلاثمائة سفينة ويحرسها أسطول حربى مؤلف من ٥٥ سفينة حربية ، وقبل أن يمر أربعة عشر شهرا على وصوله الاسكندرية اذا بهذا القائد وبعض أصفياه يتسللون لوادا في ظلمة الليل من بقعة مهجورة في رمل الاسكندرية ويتخذون طريقهم في البحر سربا خشية وقوعهم أسرى . يالها من سخرية الأقدار ! ولكنها مصر كنانة الله في أرضه من أرادها بسوء قصمه الله .

الفصل الخامس

دور عمر مكرم في ثورة القاهرة الثانية

ترك بونابرت الى كليبر رسالة قبيل هروبه الى فرنسا عهد
ليه فيها بنولى القيادة العامة للحملة ، ورسم له الخطوط الرئيسية
للسياسة الفرنسية في مصر - طلب اليه الاحتفاظ بمصر ما استطاع
الى ذلك سبيلا ، وأذن له في نفس الوقت في أن يدخل في مفاوضات
مع الدولة العثمانية اذا استمر الطاعون فاشيا في الجيش ، واذا
عجزت فرنسا عن مداد الحملة بالذخائر والقوات حتى مايو ١٨٠٠
عن أن يكون أساس المفاوضات هو الجلاء عن مصر واعادتها الى الدولة
العثمانية في مقابل خروج تركيا من التحالف الدولى الثانى وأن
يسمر لفرنسا حرية الملاحة والتجارة في البحر الأسود وشروط أخرى
رضحها بونابرت .

وأسدى بونابرت النصيح الى كليبر بأن يعمل على كسب ثقة
نبار المشايخ حتى يستميل اليه الشعب كما أمره باختيار عدد
تراوح بين ٥٠٠ وبين ٦٠٠ من العلماء وعمد البلاد والأعيان
رايفادهم الى فرنسا عند استئناف المواصلات البحرية كي يقيموا
سمة أو سنتين « ويروا عظمة الأمة الفرنسية ويقتبسوا عاداتنا
أخلاقنا وأفكارنا ولغتنا ثم يعودون الى مصر فينشروا هذه
نخبسات بين مواطنيهم » كما وعد بأن يرسل الى مصر بعض
الفرق التمثيلية لغرضين هما الترفيه عن أفراد الجيش ، ونشر
لون من ألوان الثقافة الفرنسية والعادات الفرنسية بين الشعب
المصرى .

نقم كليبر من أول الامر لرحيل بونابرت لأنه كان - على شاكلة الغالبية العظمى من أفراد الحملة - كارها الإقامة في مصر اعتقادا منه أن الحملة مصيرها إلى الفشل وأنه يجدر بالجيش القابع في مصر أن يعود إلى فرنسا ليسهم في انقاذها من الأخطار المحدقة بها . وكانت المصاعب والأخطار التي تواجه الحكم الفرنسي في مصر لا عداد لها : فالجيش يفتك به الطاعون ، ومعرض لهجمات المصريين والمماليك ، وهو في حاجة إلى مزيد من الأسلحة والنجادات ، والأسطول الانجليزي يحاصر شاطئ مصر الشمالي ، ومرتببات الجنود متأخرة ، وروحهم المعنوية هابطة . وكان كليبر يكره نوابا بونابرت الدكتاتورية لأنه من أنصار الجمهورية ثم جاءت الأنباء بأن العثمانيين يعدون جيشا ثالثا بقيادة الصدر الأعظم للمهجوم على مصر من ناحية الشام .

وإزاء هذه العوامل التي واجهت كليبر قرر أن يسلك طريق المفاوضات ، وأسفرت عن توقيع اتفاقية العريش في ٢٤ من يناير ١٨٠٠ وبمقتضاها تقرر جلاء الفرنسيين عن مصر بكامل أسلحتهم وعتادهم إلى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية دون أن يتعرض لهم أحد في البحر على أن يتم جلاؤهم في خلال ثلاثة أشهر تكون بمثابة هدنة لتنفيذ شروط الاتفاقية .

ابتهج الشعب المصري ابتهاجا شديدا حين أذيعت في أسواق القاهرة وشوارعها الترجمة العربية لنصوص اتفاقية العريش . وأخذ الفرنسيون من جانبهم يستعدون للرحيل فباعوا أمتعتهم ودوابهم وبعض أسلحتهم وجلوا عن عدد من المواقع والثغور مثل الصالحية وبلبيس ودمياط والسويس . وعلم الشعب أن جيشا عثمانيا بقيادة يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم قد دخل مصر من ناحية الشام واحتل المواقع التي أخلاها الفرنسيون وأنه على قاب قوسين أو أدنى من مشارف القاهرة استعدادا لدخولها . وكان في صحبة هذا الجيش الأمراء المماليك وعلى رأسهم إبراهيم بك .

وأذن كليبر لأحد رجال الدولة العثمانية ويسمى محمد أغا
فى دخول القاهرة ليعمل على تنظيم فترة الانتقال من الحكم الفرنسى
الى الحكم العثمانى . وقد دخل القاهرة فى مساء ٢٨ من يناير ١٨٠٠
فى موكب فخم شق به شوارع العاصمة وقابله الشعب بالترحاب .
وفى صبيحة اليوم التالى لوصوله جمع العلماء والأعيان وكبار
النصارى والاقباط والشوام وأمر بتلاوة عدة مراسيم سلطانية كان
يحملها معه ، أولها ، خاص بتعيين مصطفى باشا فى منصب
قائمقام فى مصر أى واليا بالنيابة حتى يحضر الوالى الجديد . وكان
مصطفى باشا هو القائد الذى أسره بونايرت فى معركة أبى قير البرية
وأرسله الى الجيزة حيث ظل مقيما بها . ونص المرسوم الثانى على
الزام السيد احمد المحرقى كبير تجار القاهرة بتحصيل ثلاثة
آلاف كيس أى خمسة عشر ألف جنيه لتغطية نفقات ترحيل الجيش
الفرنسى ، وقد وزع السيد احمد المحرقى المبلغ المطلوب على التجار
وأهل الأسواق والحرف وأقبل الشعب على أداء المبلغ « وأخرجه عن
طيب قلب وانشراح خاطر وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك
لترحيل فرنساوية ويقول سنة مباركة ويوم سعيد » (١) أما
الرسوم الثالث فكان خاصا بالتحكير أى احتكار الحكومة العثمانية
لجميع أصناف الأقوات المستوردة فتشترىها بالسعر الذى يحدده
المحتسب وتودعها المخازن . ونجم عن ذلك أن ارتفعت أسعار
المعيشة ارتفاعا كبيرا . وبعث العثمانيون بالأوامر الى الاقاليم
وعينوا الموظفين لجمع الأموال وطلب الغلال . وجعلوا فى كل بندر
أميرا ووكيلا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة وايداعها فى مخازن
الحكومة . وهكذا جاء العثمانيون بداهيتين - على حد تعبير الجبرتنى
- وهما التحكير وفرض الاتاوات . وكانت هذه الاجراءات التعسفية
استهلالا سيئا من جانب العثمانيين . وتحمل الشعب هذه

(١) الجبرتنى ج ٣ ص ٨٨ .

التضحيات عن طيب خاطر ورأى انها تهون فى سبيل التخلص من الفرنسيين وحكمهم الصارم .

نقض المعاهدة :

كان الشعب ينتظر على أحر من الجمر خروج الفرنسيين من البلاد ، ولكن حدث ما عصف باتفاقية العريش فقد كانت الحكومة الانجليزية - منذ أن ترامت اليها أنباء المفاوضات تعارض خروج الجيش الفرنسى من مصر حتى لا يكون هذا الجيش مصدر قوة لفرنسا وهى تخوض وقتذاك حربا مريرة فى أوروبا . ورأت أحد حلين : اما تأجيل خروج الفرنسيين من مصر الى أن تنتهى الحرب فى أوروبا وتركهم للأوبئة والمماليك وثورات المصريين تفتك بهم داخل مصر ، واما تسليم أنفسهم كأسرى حرب ، وانتهت الى الأخذ بالرأى الثانى . وأرسل ادميرال كايت **Admiral Keith** القائد العام للأسطول البريطانى فى البحر المتوسط الى الجنرال كليبر تبليغا مؤرخا فى ٨ من يناير ١٨٠٠ - أى قبل اتفاقية العريش - بأن الحكومة البريطانية لا توافق على خروج الفرنسيين من مصر الا أسرى حرب بعد تجريدهم من أسلحتهم وأعلن فى هذا التبليغ أنه سيأسر فى البحر كل سفينة تنقل جنودا فرنسيين ويعتبرها غنيمة حربية ويعتبر الجنود الذين تقلهم السفينة أسرى حرب ، وقد وصل هذا التبليغ بعد التوقيع على اتفاقية العريش لبطء المواصلات فى تلك الأوقات .

وقد رحب كليبر بنقض اتفاقية العريش لأنه شعر أنه تجاوز المدى فى خطته ، وأن السياسة التى اتبعها ليست فى مصلحة فرنسا تماما ، وأهم من ذلك جاءته الأنباء من فرنسا بالانقلاب الذى قام به بوناپرت وأطاح بحكومة الادارة وانه جعل نفسه على رأس الحكومة فى فرنسا . فخشى كليبر اذا عاد الى فرنسا تنفيذا لاتفاقية العريش

أن يعتبر بونابرت خروجه من مصر هروبا ويقدمه للمحاكمة العسكرية وعلى ذلك استرد كليبر المواقع التي كانت قواته قد جلت عنها وأصدر منشورا الى جنوده أذاع فيه التبليغ البريطانى وقال لهم : أيها الجنود اننا لا نرد على هذا التبليغ الى بحد السيف . . وهزم كليبر الجيش العثمانى المتجمع لدخول القاهرة فى موقعة عين شمس (المطرية) فى ٢٠ من مارس ١٨٠٠ . ولكن عمدت فرقة من فرسان الجيش العثمانى ومشاته يقودها نصوح باشا الوالى العثمانى الجديد الى الانفصال عن الجيش واتجهت نحو القاهرة ، وحذا هذا الحذو قائد عثمانى آخر هو ناصف باشا . وهكذا نجد فرقتين من قوات الجيش العثمانى تتجهان سلیمتين نحو القاهرة بينما اندحرت القوة الرئيسية بقيادة الصدر الاعظم وولت الأدبار الى بلبیس عاصمة مديرية الشرقية فى ذلك الوقت .

عمر مكرم يتنادى الى الثورة على الفرنسيين :

حين دارت معركة عين شمس على مشارف القاهرة سماع الشعب قصف المدافع وحار فى تفسير هذه الحرب والوقوف على بواعثها ، ولكنه أيقن أنها لابد أن تكون ضد الجيش الفرنسى . وكانت نفوس المصريين متحفزة للانتفاض على الفرنسيين ولاحت لهم الفرصة اذ كان الجيش الفرنسى خارج القاهرة يخوض المعركة وظهره الى القاهرة وليس فيها سوى حامية فرنسية قليلة العدد كانت نستعد للجلاء ، فحدث هرج ومرج بين سكان القاهرة وخرج السيد عمر مكرم من اعتكافه وتنادى الى الثورة واستجابوا لندائه « فهاجوا ورمحوا الى أطراف البلد وقتلوا أشخاصا من الفرنسيات صادفهم خارجين من البلد ليذهبوا الى أصحابهم » ودب الحماس فى نفوس الشعب فاقتحمت جموع منه معسكرات الفرنسيين واستولت على ما فيها من أدوات ومهمات حربية وهكذا بدأت ثورة القاهرة الثانية فى ٢٠ من مارس ١٨٠٠ وبرز اسم عمر مكرم منذ اليوم الاول للثورة .

يقول الجبرتي « وخرج السيد عمر أفندي نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي وانضم اليهما أتراك خان الحلي والمغاربة الذين بمصر وتبعهم كثير من عامة أهل البلد وتجمعوا على التلويح خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبائيت والعصى والقليل معه السلاح ، وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والاولباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطراف البلد ، ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يتفوهون بهامن اختراعاتهم وخرافاتهم ، وقاموا على ساق، وخرج الكثير منهم الى خارج البلدة على تلك الصورة ٠٠ ، وكانت معركة عين شمس قد انتهت وخف الجيش الفرنسى بقيادة كليبر فى أثر الجيش العثمانى بعد المعركة يتعقبه فى مديرية الشرقية ، فعادت فى عصر ذلك اليوم الى القاهرة جموع العامة وكان على رأسهم عمر مكرم « ولهم صياح وجلبة » ومعه بعض القواد العثمانيين والأمراء المماليك الذين انسحبوا من معركة عين شمس نذكر منهم نصوح باشا والى مصر الجديد والأمير ابراهيم بك وحسن بك الجداوى وعثمان بك المرادى وعثمان بك الاشقر وغيرهم يتبعهم مماليكهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا الى وكالة ذى الفقار وأقاموا المتاريس على جناح السرعة وقضوا ليلتهم خلفها .

وفى صبيحة اليوم التالى أحضر الثوار بعض المدافع التى كانت للعثمانيين فى عين شمس وسحبوها أمامهم الى الأزبكية ولم تكن بهذه المدافع قنابل فاستعاضوا عنها بكرات الموازين الحديدية التى جلبوها من الوكائل وهاجموا دار كليبر فى الأزبكية وتبادلوا إطلاق النار مع الحامية الفرنسية العسكرية بالأزبكية ولم يقف إطلاق النار طوال النهار حتى سجا الليل . وفى نفس الوقت كانت حشود أخرى كاثرة من الثوار تقتحم بقية مستودعات الفرنسيين فى القاهرة ثم ما لبث أن انشأ الثوار فى جهة بيت القاضى معملاً لصنع القنابل

ومصنعا لصب المدافع ومعملا لاصلاح الاسلحة وانتزعوا من المساجد الحديد والأخشاب وتطوع الحدادون والسباكون والنجارون وغيرهم للعمل في هذه المصانع .

بسالة الشعب :

وانقلب سكان بولاق ثوارا بواسل وخفوا سراعا لدعوة أحد كبار تجارها وهو الحاج مصطفى البشتيلي كان يمتلك وكالة ملاءها بالبارود ووضع في قدور وعلم الفرنسيون بأمره وضبطوا عنده هذه القدور فاعتقلوه في القلعة حينما من الزمن ثم أفرجوا عنه بعد عقد اتفاقية العريش ، ولكنه ظل على عدائه للفرنسيين ، فلما قامت ثورة القاهرة الثانية دعا البشتيلي سكان بولاق الى محاربة الفرنسيين فلبوا سراعا وأعدوا عصيهم وأسلحتهم وقادهم الى مستودعات الجيش الفرنسي المقامة على شاطئ النيل في بولاق فاقترحموها واستولوا على ما فيها من غلال ومدافع وأخذوا الفرنسيين فيها أخذة رابية ثم أقاموا المتاريس « واستعدوا للحرب والجهاد ، وقوى في رأسهم العناد » .

امتدت الثورة الى أحياء القاهرة ومضى أفراد الشعب المصري يجاهدون الفرنسيين جهادا كبيرا ووزعوا أنفسهم على مختلف أحياء المدينة وضواحيها « بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلهم واقفين بأطراف البلد عند الأبواب والمتاريس والأسوار وبعض عساكر من العثمانية ومن انضم اليهم من أهل مصر المسلحين مكثوا بالجمالية اذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمدوه بطائفة من هؤلاء » وهكذا نجد أن ثورة القاهرة الثانية اتخذت من حي الجمالية مكانا لتجمع الثوار المسلحين يقفون على أهبة الاستعداد ليلا ونهارا لمواجهة حالات الطوارئ ، فاذا ما هاجم الفرنسيون أحد أحياء

القاهرة تحركت فورا فرقة من الثوار خفافا وثقالا للاسهام في ضرب الفرنسيين ونجدة أهل هذا الحى الذى تعرض لهجوم الفرنسيين .

والجبرتى يقسم المصريين من سكان القاهرة اiban هذه الثورة تقسيما طريفا الى ثلاثة أنماط أو نماذج بشرية ، طائفة أوتيت بسيطة فى الجسم وكانت على حظ موفور من الشجاعة والاقدام والتمكن من النزال وقد وقف أفراد هذه الطائفة بأطراف القاهرة وراء المتاريس ويتناوبون الحراسة فكانوا قليلا من الليل ما يهجمون كى يحموا الذمار ، وقد جاهدوا الفرنسيين وغلظوا عليهم . وطائفة لم يكن فى مقدور أفرادها مطاولة الفرنسيين أو منازلتهم منازل الند للند ، ولكنهم كانوا ذوى اباء وشمم ، فوقفوا بالأزفة ليلا ونهارا على حذر أن يداهم الفرنسيون مساكن الشعب . أما الطائفة الثالثة فكانت تضم الطاعنين فى السن ثم الجبناء الرعايد والمنافقين الذين مرءوا على النفاق وحادوا المهاجمين المخلصين وقبضوا أيديهم عن الانفاق وتثاقلوا الى الارض فقعدها مع القاعدين ومع الخوالب فى المنازل التماسا للدعة واستمتاعا بملاذ الحياة الرخيصة فى كنف الاحتلال الفرنسى وهؤلاء أصابهم صغار وذل عند مواطنيهم .

وهاجم الثوار فريقا من المصريين اعتقدوا أنهم أعوان الاحتلال الفرنسى فاقترحوا منزل الشيخ خليل البكرى نقيب الاشراف لأنه كان قد وطد صلاته بالفرنسيين وكان يرسل اليهم الاطعمة فنهبوا منزله وأخرجوه منه مع حريمه وأولاده وساقوه حافى القدمين عارى الرأس فى شوارع القاهرة الى مقر قيادة الثورة فى الجمالية والجماهير تحيط به وتسبه بأقذر أنواع الشتائم ولم ينقذه من ثورة الشعب الا السيد أحمد محرم من كبار التجار اذ أخذه وحريمه وأولاده وآواهم جميعا فى منزله (١) . وقتل الثوار أيضا مصطفى أغا محافظ القاهرة .

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٤ .

عاد كليبر الى القاهرة بعد أن طارد يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم مع فلول جيشه في مديرية الشرقية ولم يتركه الا بعد أن ارتحلت بقايا الجيش العثماني عن الصالحية وأوغلت في طريقها الى الشام ، وترك كليبر حاميات عسكرية في الصالحية والقرين وبلبيس . وجد كليبر أن القاهرة تموج بالثورة وقد صرح فيما بعد أنه لم يكن يتصورها على هذه الدرجة من الخطورة (١) . وعلم أنه يقيم فيها مجموعة من القواد العسكريين العثمانيين والأمراء المماليك والجنود العثمانيين ورأى الوكائل والمخازن المقامة على النيل من مصر القديمة حتى بولاق وشبرا قد تحولت الى قلاع أقام فيها الثوار . استخدم منه العسكري في هذا الوقت العصيب . وزع القوات التي كانت لديه وضرب نطاقا محكما من الحصار حول القاهرة ومنع الدخول اليها أو الخروج منها وكان قد مضى على قيام الثورة ثمانية أيام ونجح في الوصول الى داره بالازبكية وارتفعت الروح المعنوية لدى الفرنسيين بعودته .

ولم يكن بالقاهرة رصيد احتياطي من الأقوات يكفي سكانها مدة طويلة ، اذ كانت تعتمد على البلاد المحيطة بها في تموينها بالمواد الغذائية يأتي بها الفلاحون يوما بعد يوم لبيعها في أسواق القاهرة فلما حاصرها كليبر وقعت أزمة تموينية خانقة اذ « عذمت الأقوات وغلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات ونفدت الحبوب والغلات ، وارتفع وجود الخبز من الأسواق وامتنع الطوافون به على الأطباق ، وصارت العساكر الذين مع الناس بالبلد يخطفون ما يجدونه بأيدي الناس من المأكول والمشارب » (٢) وأغلقت الحوانيت وتعطلت المخابز واقفرت الاسواق . وبلغ من ندرة الخضراوات وانعدامها أن أصبحت

(١) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ج ٢ الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٥٨ من ١٤٦ .
(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٩٦ ، ٩٨ .

الغالبية العظمى من أهل القاهرة لا يأكلون سوى الأرز مطهيا بالعسل واللبن . وكان الباعة يعرضونه في الأسواق في طشوت وأوان . وامتدت الأزمة الى ماء الشرب فارتفع سعره اذ تعذر الوصول الى نهر النيل واعتمد السكان على ماء الآبار وما تبقى في خزانات الأسبلة ، ونفقت دواب الحمل من الجوع لنفاد العلف من التبن والفل والشمير ، وهبطت أسعار البغال والحمير . وقام الأعيان والتجار بتقديم الطعام الى الجنود المقيمين خلف المتاريس في الأحياء التي يقطنها هؤلاء وأولئك . وكان من بينهم الشيخ السادات والشيخ الصاوى وكبار الأقباط مثل المعلم جرجس الجوهري وفلتؤس وملطى فقد قدموا المال وفيرا للثوار .

وأبلى حسن بك الجداوى بلاء حسنا فى هذه الثورة فما يكاد يسمع أن العدو يزحف على أحد أحياء القاهرة حتى يسرع بجنوده لنصرة ثوار هذا الحى ويأخذ الفرنسيين أخذا وببلا . ويقول الجبرتنى « ورأى الناس من اقدامه وشجاعته وصبره على مجالدة العدو ليلا ونهارا ما ينبىء عن فضيلة نفس وقوة قلب وسمو همة ، وقل أن وقع حرب فى جهة من الجهات الا هو مدبر رحاها ورئيس كماتها» .

أما عمر مكرم فلم يفتقر له نشاط فى ليل أو نهار ابان تلك الأيام العصيبة ، بل كان دائم التجول والانتقال بين مناطق القاهرة يبعث فى الشعب روح الحماس ويدعوهم الى الثبات فى الجهاد ، ويعرض نفسه للخطر فى الأماكن التي يشتد فيها هجوم الفرنسيين . وكان يصحبه فى هذه الجولات المشايخ علماء الأزهر والسيد أحمد المحروقى . وقام العثمانيون بدور مشابه اذ كان نصوح باشا الوالى العثمانى يطوف مع الأغا - محافظ العاصمة - مع رجال الشرطة وينادون على أفراد الشعب تحريضا على الجهاد وتشجيعا لهم على الاستبسال فى معاربة الفرنسيين .

دور عمر مكرم فى الثورة :

نخرج من هذا أن السيد عمر مكرم كان من بين زعماء ثورة مارس ١٨٠٠ ولكنه لم يكن زعيمها الأوحد ، فقد شاركت أخلاط شتى فى زعامة هذه الثورة وفى التحريض عليها وفى بطولاتها ووقائعها . فمن المصريين كان عمر مكرم وأحمد المحروقى والشيخ السادات والشيخ الجوهري ابن الشيخ محمد الجوهري والحاج مصطفى البشتيلى . وكان هناك العثمانيون ثم الماليك . والجبرتي نفسه يقول عند كلامه على المدافع الثلاثة التى أحضرها الثوار من عين شمس فى مستهل الثورة « وقام ناصف باشا وشمر عن ساعديه وشد وسطه ومشى وصحبته الأمراء المصرية على أقدامهم وجروا أمامهم الثلاثة مدافع وسحبوها الى الازبكية وضربوا منها على بيت الألفى، وكانت هذه الدار هى التى اتخذها بونابرت ومن بعده كليبر مقرا لهما وللمعسكر العام للجيش الفرنسى . ويقرر الجبرتي أيضا أن محمد الألفى بك « قد تترس بناحية السويقة التى عند درب عبد الحق وعطفة البيدق وصحبته طوائفه ومماليكه وأشخاص من العثمانية ، وبذل الهمة وظهرت منه ومن مماليكه شجاعة وكذلك كشفه وخصوصا اسماعيل كاشف فانه لم يزل يحارب ويزحف حتى ملك ناحية رصيف الخشاب وبيت مراد بك وبيت أحمد أغاشويكار وتترس فيهما ، وأن حسن بك الجداوى « قد تترس بناحية الرويعى، وربما فارق متراسه فى بعض الليالى لنصرة جهة أخرى ،

ولا تقلل هذه المشاركة من دور السيد عمر مكرم ابان ثورة مارس ١٨٠٠ . ولكن الامانة العلمية تقتضى ألا يغمط دور الآخرين وأن يضاف على السيد عمر صفة الزعيم الأوحد للثورة . يلاحظ أن الفارق بين ثورة القاهرة الاولى التى نشبت فى اكتوبر ١٧٩٨ وثورة القاهرة الثانية التى اندلعت فى مارس ١٨٠٠ هو أن الثورة الاولى كانت زعامتها للمصريين وحدهم . ولم يشترك فيها عمر مكرم لانه

كان متغيبا عن مصر وقد استمرت يومين أما الثورة الثانية فقد اشترك في قيادتها ووقائعها والتحريض عليها المصريون والعثمانيون والمماليك واستطالت ثلاثة وثلاثين يوما .

الشعب يضرب زعماءه فلنا منه أنهم خانوا الأمانة

طلب كليبر المشايخ ليوسطهم في تهدئة الموقف وموادعة العناصر التي يتألف منها رجال الثورة وتم تكوين وفد كان من بين أعضائه المشايخ : الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى . وعرض كليبر على الوفد شروط الصلح وهي أن يخرج العثمانيون ويلحقوا بالجيش العثماني الذي ارتد الى الشام . أما المماليك فلهم أن يختاروا بين البقاء في مصر لا يمسسهم أذى أو سوء وبين مغادرتها واللحاق بالعثمانيين . وأما أفراد الشعب المصري فقد قرر العفو الشامل عنهم وأمنهم على حياتهم وأموالهم . وقال العلماء ان المصريين يخشون أن ينكل بهم الفرنسيون اذا وقفت العمليات الحربية وخرجت القوات العثمانية من مصر . فرد كليبر مؤكدا أنه لن يحدث شيء من هذا القبيل على الاطلاق . ولما عرض الوفد على رؤساء العثمانيين وزعماء الثورة المصريين شروط الفرنسيين أنكروا عليهم هذا التصرف ، وبسط الثوار أسنتهم وأيديهم بالسوء الى أعضاء الوفد .

يقول الجبرتي « فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليه وسببوهم وشتموهم ، وضربوا الشرقاوى والسرسى ، ورموا عمائمهم ، وأسمعوهم قبيح الكلام ، وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ، ومرادهم خذلان المسلمين ، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيين» (١)

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٩٩ .

اعتقد الشعب أن مبادرة كليبر الى طلب الصلح دليل على حرج مركزه وضعفه ، وأن ذخيرته الحربية قد نفذت ، فأهملوا الرد على كليبر وأرسل الأخير يستعجل نتيجة العرض الذي حمله المشايخ . وقد أرسل الباشا والكتخدا - نائبه - يفولان ان الجنود لم يقبلوا المصالحة وقالوا انهم لن يرجعوا عن حرب الفرنسيين حتى يظفروا بهم أو يموتوا عن آخرهم . وقرر الباشا ونائبه أنه ليس في مقدورهما كبت شعور الجنود واکراههم على ترك القتال . وتعجب كليبر وقال كيف يفقد القائد سيطرته على جنوده ولا ينفذ هؤلاء الجنود الاوامر العسكرية التي يصدرها الضباط لهم .

سكان بولاق يقتلون رسول كليبر اليهم :

أرسل كليبر انذارا الى أهل بولاق يأمرهم بالقاء السلاح ويتهددهم اذا رفضوا الاذعان لانذاره ولكنهم أبوا الا المضي في محاربة الفرنسيين . وكرر عليهم الانذار عدة مرات ، وفي المرة الخامسة حمل الانذار رجل فرنسي يركب فرسا ويقول « أمان ! أمان ! سوا ! سوا ! » أي معا معا ، وبيده ورقة من كليبر فأحاط به أهل بولاق وأنزلوه من فرسه وأوسعوه ضربا ثم قتلوه . وكان نصوح باشا يؤكد مرارا لسكان القاهرة . أن قوات عثمانية جرارة في طريقها اليهم لنجدتهم .

الفرنسيون يبدون بحرق حي بولاق :

فلما كان يوم ١٨ من ابريل ١٨٠٠ هطلت الامطار وبرق البرق وارتعدت السماء رعدا مزعجا وسالت السيول وامتلات الشوارع والأزقة بالوحل . وقد أعاقت الامطار والوحل تحركات الثوار المصريين والجنود العثمانيين فملابسهم كانت فضفاضة واسعة ولطخت بالوحل ، وكانوا يحاربون في الأزقة والطرقات الضيقة .

ولم يكن لهذه الحال من أثر على الفرنسيين لأنه - كما لاحظ الجبرتي - كان لديهم الاستعداد والتحفظ والخفة في ملابسهم وما على رؤوسهم وكانوا في خارج الافنية ، وهي لا تتأثر بمياه الامطار كداخل الابنية . وانتهز الفرنسيون الفرصة وشنوا على المدينة هجوما شديدا واستخدموا أقصى ماوصلت اليه مقدرتهم من وسائل التدمير . وبدءوا بحى بولاق فهاجموه من ناحية النيل ومن ناحية بوابة أبي العلاء ، وأعملوا النار في مباني الحى وتحمل أهل بولاق ببسالة منقطعة النظر أهوال النيران وقذائف المدفعية الفرنسية واستهانوا بالموت واسترخصوا التضحيات الغالية واستمروا في نضالهم أروع ما يكون النضال بكل ما أوتوا من قوة وإيمان وعزم « حتى غلب الفرنسيين عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالتهب والسلب ، وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هول النواصي ، وصارت القتل مطروحة في الطرقات والازقة واحترقت الابنية والدور والقصور ٠٠٠ » (١) ثم أحرقوا الأحياء الأخرى التى اعتصم فيها الثوار وانتقموا من الشعب انتقاما وحشيا .

تدخل العلماء لوضع حد للمجزرة البشرية التى تعرض لها الشعب على يد الفرنسيين ودارت اتصالات اسفرت عن اتفاق أبرم فى ٢١ من ابريل ١٨٠٠ يتألف من تسع مواد وقع عليه ناصف باشا وعثمان افندى وكيل الصدر الأعظم عن العثمانيين وابراهيم بك عن المماليك ، وكليبر عن الفرنسيين وينص الاتفاق على جلاء العثمانيين والمماليك عن القاهرة فى خلال ثلاثة أيام بحيث لا يبقى أحد منهم فى القاهرة بعد ظهر ٢٥ ابريل ما عدا الجرحى ، وأن يأخذوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم ما عدا المدافع فانهم يتركونها فى مواقعها وأن يواصلوا الارتحال حتى يجتازوا حدود مصر الى الشام عن طريق بلبس والصالحية والقطية والعريش ونصت

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١٠١ - ١٠٢ .

المادة السابعة من هذا الاتفاق على أن يمنح كليبر عفوا شاملا لاهل مصر عامة وسكان القاهرة خاصة .

عمر مكرم يترك الشعب لمصيره

في المواعيد المحددة خرج العثمانيون من القاهرة وكان على رأسهم نصوح باشا الوالى العثمانى الجديد وخرج معه الامراء المماليك ابراهيم بك ومحمد بك الألفى وحسن بك الجداوى وغيرهم ومعهم مماليكهم وأتباعهم ، وخرج كذلك السيد عمر مكرم والسيد احمد المحروقى وكثيرون من سكان القاهرة الى الصالحية في طريقهم الى الشام .

ما أشبه الليلة بالبارحة :

خرج عمر مكرم في المرة الاولى من القاهرة مع بكر باشا الوالى العثمانى وابراهيم بك الى بلبيس غداة معركة امبابه (٢١ يوليى ١٧٩٨) وكان وجود عمر مكرم أكبر حافز على قيام سكان مديرية الشرقية على الفرنسيين ، فلما غلب المصريون ومماليك ابراهيم بك على أمرهم فى الصالحية ارتحل عمر مكرم وصحبه الى غزة أول الأمر ثم استقر المقام بعمر مكرم فى يافا الى أن أعيد الى القاهرة . وخرج عمر مكرم فى المرة الثانية من القاهرة مع نصوح باشا الوالى العثمانى وابراهيم بك فى أواخر ابريل ١٨٠٠ بعد أن استطاع الفرنسيون القضاء على الثورة الشعبية الكبرى ومر المرتجلون بلبيس والصالحية فى طريقهم الى الشام . وهنا نجد أن عمر مكرم كان الى ذلك الوقت يربط كيانه السياسى ومستقبله بدعامتى الحكم العثمانى اللتين تتمثلان وقتذاك فى الوالى والأمراء والمماليك ، وهو النظام الذى كان قائما فى مصر وقت قدوم الحملة الفرنسية اليها .

والباحث المحايد لا يستطيع أن يجد تفسيراً لخروج عمر
مكرم في المرة الثانية من القاهرة إلا أنه أراد أن يكون بمفازة من
تنكيل الفرنسيين به . ولنزيد الأمر وضوحاً نقول ان الفرنسيين
كانت تمتلئ قلوبهم حقداً على المصريين وكان أول ما اتجه اليه
تفكيرهم بعد اخماد ثورة القاهرة الثانية ورحيل العثمانيين والمماليك
هو إقامة عرض عسكري ضخم في ضاحية القبة دعوا اليه اعيان
القاهرة . وبعد العرض سارت كتائب الجيش بأعلامها وموسيقاتها
وأسلحتها في شوارع القاهرة بين قصف مدافع القلاع . واستهدفوا
من هذه المظاهرة العسكرية اشاعة الرهبة في نفوس المصريين
واشعارهم أن الجيش الفرنسي لا يزال قوة ضاربة وأنه قادر
على سحق أية ثورة يفكرون في القيام بها من جديد ، ثم أمر
الفرنسيون باقامة الزينات ثلاثة أيام تضاء في لياليها القناديل
ابتهاجا بانتصارهم على الثوار . ولما انقضت هذه الأيام الثلاثة
أقام كليبر في أول مايو ١٨٠٠ وليمة للمشايخ والأعيان وأسبغ
على الشيخ خليل البكري نقيب الاشراف الكثير من مظاهر العطف
والتقدير تعويضاً له عن الاهانات والخسائر التي لحقته من غضب
الشعب عليه ابان الثورة الكبرى فخلع عليه خلعة وأمر باعطائه
منزل عثمان كاشف بدلاً من منزله الذي عبث به الثوار . وفي
نهاية الولاية طلب كليبر من المشايخ الحضور اليه في صباح يوم
الجمعة ٨ من ذي الحجة ١٢١٤ (٣ من مايو ١٨٠٠) وتظاهر بأن
الفرض من هذه الدعوة « هو ترتيب الديوان لأجل تنظيم البلد
وصلاح حالكم وحال الرعية » وأنصرفوا من عنده مطمئنين
فرحين مستبشرين بهذه الروح الطيبة وتلك الوعود الحلاية .

الاجتماع الأغبر (٣ من مايو ١٨٠٠)

فلما كان اليوم المحدد للاجتماع بكر المشايخ بالذهاب الى

كليبّر تداعبهم اعذب الآمال بأن خيرا عميما فى انتظارهم ولم يدر بخلدهم شىء عن المفاجأة المفزعة التى اعدّها لهم كليبّر والتى جعلت هذا الاجتماع هو أحلك اجتماع شهدوه حتى بال بعضهم على ملابسه وتمنى كل منهم أنه لم يكن شيئا مذكورا فى هذا اليوم . وترك الجبرتنى يصف حالتهم النفسية البهيجة وهم فى طريقهم الى الاجتماع الأغبر فيقول انهم « بكرّوا بالذهاب الى بيت سارى عسكر ولبسوا أفخر ثيابهم وأحسن هيئاتهم ، وطمع كل واحد منهم ، وظن أن سارى عسكر يقلّده فى هذا اليوم أجل المناصب أو ربما حصل التغير والتبديل فى أهل الديوان فيكون فى الديوان الخصوصى » ولكنهم قوبلوا بمقابلة جافة انطوت على معانى الازدراء والاستهانة بهم فقد أجلسوا فى الردهة الخارجية ، ولم يخاطبهم أحد ، ولم يؤذن لهم فى الدخول ، وتركوا على هذا الوضع المهين فترة طويلة ، ثم فتح باب القاعة وطلب منهم الدخول والجلوس ، وتكرّر نفس المشهد ولقوا الإهمال المتعمد . ثم فتح الباب ودلف منه كليبّر فى فوج من كبار الفرنسيين وأعيان النصارى . ووضع لكبير مقعد فى وسط المجلس وتكلم طويلا والمترجم يعرب كلامه أو شتائمّه ، فهو يرمى المشايخ بالنفاق وضعف الخلق واهتزاز الشخصية ، ويمن عليهم بأنه أتاح لهم نفوذا لم يحلموا بمثله من قبل ، وأنه أنشأ لهم ديوانا ، وكانت شفاعتهم لديه مقبولة وكلمتهم مسموعة ، ونعى عليهم مسلكهم ابان الثورة وقرر أن ضررهم أكثر من نفعهم « لأنكم اذا حضر اخصامنا قمتم معهم ، وكنتم واياهم علينا ، واذا ذهبوا رجعتم الينا معتذرين . فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم وحرق بلدكم وسبى حريمكم وأولادكم » وقد دافع المشايخ عن تصرفاتهم فقالوا ان الفرنسيين قد أذاعوا على الشعب نصوص اتفاقية العريش متضمنة جلاء القوات الفرنسية عن مصر « وعرفتمونا أننا صرنا فى حكم العثملى

من ثانی شهر رمضان ، وأن البلاد والأموال صارت له ،
وخصوصا وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين « (١) وقالوا
انهم فوجئوا بقيام الثورة ولم يكن في استطاعتهم اخمادها ودللوا
على صدق كلامهم بأنهم تعرضوا للضرب والاهانة والقاء عمائمهم
على الأرض عندما نصحوا الشعب بالاخلاد الى السكينة .

مطالب تصفية

أنهى كليبر المناقشة بقوله ان الفرنسيين يحترمون كلمتهم
وحيث انهم أعطوا الشعب الامان فلن ينقضوا هذا الامان ثم أعلن
المطالب الآتية على أن تكون مشمولة بالنفاذ العاجل الفوري .

أولا : فرض ١٢ مليون فرنك بصفة غرامة حربية على أهل
القاهرة . (وقد ذكر الجبرتي أنها عشرة ملايين فرنك بينما
أجمعت المصادر الفرنسية على أنها ١٢ مليونا)

ثانيا : يلتزم سكان القاهرة بتقديم عشرين ألف بندقية
وعشرين ألف طبنجة وعشرة الآلاف سيف .

ثالثا : اعتقال خمسة عشر شخصا من الحاضرين ليكونوا
بمثابة رهائن حتى تؤدي الغرامة .

وخص بعض العلماء والأعيان بنصيب كبير من الغرامة
الحربية وكان على رأس هؤلاء السيد أحمد المحروقي والشيخ
محمد السادات والشيخ محمد الجوهري وفتوح الجوهري
ومصطفى الصاوي والعناني . أما السيد عمر مكرم فقد نهبت
داره ولم تكن لديه مدخرات مالية ، اذ كان الفرنسيون قد استولوا

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١٠٧ .

على أمواله عند خروجه من القاهرة أول مرة . وبعد اعلان هذه المطالب خرج كليبر وأغلق الباب . ولما أراد المشايخ مفادرة المكان منعهم الحراس ولم يسمحوا لأحد بالانصراف الا للشيخ خليل البكرى والشيخ محمد المهدي وكانا على صلات طيبة بالفرنسيين، ويلاحظ أن الشعب كان قد نهب منزل الاول وأحرق منزل الثانى ابان الثورة ، وكان هذا المهدي « يستعمل المداهنة وينافق الطرفين بصناعته وعادته » واستمر الحراس متحفظين على الحاضرين وحيل بينهم وبين اداء صلاة الجمعة وفي نفس الوقت كان الشيخ محمد المهدي مجتمعا مع الاقباط يتشاور معهم فى طريقة توزيع الغرامة فوزعوها على الملتزمين وتجار الفورية وخان الخليلى والصاغة والنحاسين واصحاب الحرف وبائعى الدخان والصابون والدلالين والقبانية والجزارين والشوآءين والمزينين والنجارين حتى الحواة والقردتية والمحبطين كما قرروا أن يسهم قضاة المحاكم فى دفع الغرامة وأن يدفع أصحاب العقارات المبنية القيمة الايجارية عن أملاكهم لمدة سنة كاملة .

اعتقالات وتعذيب

استمرت الاتصالات بين الشيخ محمد المهدي وبعض كبار الاقباط من ناحية وبين الفرنسيين من ناحية أخرى ، واستقر الرأى على اطلاق سراح المشايخ والأعيان الذين لديهم مدخرات مالية تكفى لتغطية نصيبهم المقرر عليهم آداؤه من الغرامة الحربية ، فكان الواحد منهم ينصرف الى ذويه لاحضار قيمة الغرامة وهو محاط بجنود مدججى السلاح يذهبون ويعودون به لاستيفاء المبلغ . أما غيرهم ممن عجزوا عن الدفع فقد اعتقلوا فى أماكن متفرقة فى القاهرة ، وامتهنت كرامتهم بل أهدرت آدميتهم فى المعتقلات .

سيق السيد محمد السادات الى القلعة حيث اعتقل في احد المخازن بها ، وكان ينام على التراب ويتوسد بحجر ، وكان الفرنسيون يضربون كل يوم خمس عشرة عصا في الصباح ومثلها في المساء ، ثم سمحوا له بالذهاب تحت الحراسة المشددة الى داره وقدم لهم من الاموال السائلة تسعة آلاف ريال فرانسية وقدم ما كان في داره من المصاغ والفضيات والفراء والملابس والتحف وقد ثمنها الفرنسيون بأبخس الاثمان وباع مجموع ما دفعه نقدا وعينا واحدا وعشرين ألف ريال فرانسه وأعيد ثانية الى المعتقل . واستمرت عمليات الضرب والتعذيب في الصباح والعشاء وقد تحملها الشيخ السادات في شجاعة وصبر وبحث الفرنسيون عن زوجته وابنه فلم يعثروا لهما على اثر ، وألقوا القبض على تابعه محمد السندوبى وعمدوا الى تعذيبه حتى اشرف على الموت واضطر أن يفصح عن مكانهما . وسرعان ماتم القبض عليهما وحبسوهما عند اغات الانكشارية وكانوا يضربون الابن على مرأى من والدته زيادة في ايلامها فكانت تبكى وتصرخ ، وتدخل عدد كبير من علية القوم لدى الفرنسيين لنقل الزوجة من عند اغات الانكشارية فنقلت الى منزل الشيخ الفيومى .

واخذ الفرنسيون يهاجمون المنازل ويستولون على المصوغات الذهبية والفضية وأثاث البيوت وفاء للقرامة الحربية ، واذا وجدوا أن صاحب المنزل متغيب قبضوا على زوجته واقاربه ثم يضربونهم ويسحبونهم الى المعتقلات بعد أن ينهبوا اثاث المنزل . فاذا لم يجدوا به شيئا ذا قيمة أضفوا غرامته على جيرانه أو أهل حرفته . وأمعن الفرنسيون في ازدراء الشعب ، فجمعوا البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها على الاطلاق ماعدا خمس شخصيات : الشرقاوى والمهدى والفيومى والامير وابن محرم والاخير من كبار تجار القاهرة وهكذا اجتمعت على سكان القاهرة أهوال الحرائق والقتل والتدمير والمجاعة والاعتقال والتعذيب

وفرض الغرامة الحربية الفادحة وغير ذلك من صنوف المصائب وحل عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة ١٢١٤ (٥ من مايو ١٨٠٠) « ومضى ولم يلتفت اليه احد ولم يشعر به احد ، ونزل بهم من البلاء والذل مالا يوصف »

مقارنة بين عمر مكرم والسادات :

نضع فى الصورة أمامنا عمر مكرم محمد السادات والشعب المصرى . فنجد أن الأول خرج من اعتكافه السياسى وتنادى الى الثورة فى مارس ١٨٠٠ واستجاب له الشعب سراعا . وكان عمر مكرم ومحمد السادات من زعماء الثورة ، واستهان الشعب بالموت واستبسل فى القتال ثلاثة وثلاثين يوما حتى غلب على أمره بسبب تفوق الفرنسيين فى السلاح ووصول التجذات اليهم من شتى جهات القطر ، وعقد الفرنسيون اتفاقية خرج بمقتضاها العثمانيون والمماليك من القاهرة الى الشام . وبقي محمد السادات بجانب الجماهير فى العاصمة ولقى الاضطهاد والاعتقال والتعذيب . أما الشعب فقد أحاطت به مظالم الفرنسيين من يمين وشمال بعد اخماد الثورة حتى «ضاق خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه» كما يقول الجبرتى (١) . وفى هذه الظروف المتناهية فى ظلامها وظلمها تلفت الشعب الى عمر مكرم فوجده قد خرج من القاهرة مرتحلا الى الشام مع العثمانيين والمماليك . حقيقة ان عمر مكرم لم يكن رجل حرب ، وحقيقة انه لم تكن لديه الوسائل أو الامكانيات كى يمنع عن الشعب انتقام الفرنسيين ، وحقيقة أن الأوضاع السياسية فى مصر كانت واحدة عند هجرته من مصر أول مرة وعند ارتحاله عنها فى المرة الثانية ، ولكن كان الفرنسيون فى المرة

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٠٩ .

الأولى يوادون المصريين رياء ونفاقا ، وكانوا في المرة الثانية يحادون المصريين جهارا واستكبارا ، ولا ريب أن بواعث هجرة عمر مكرم مع القوات العثمانية والمملوكية كانت هي نفس الاسباب التي حملته على الهجرة الأولى ، ولكن يضاف اليها في ضوء ملابسات الموقف أن عمر مكرم أراد في هجرته الثانية أن ينأى بنفسه عن انتقام الفرنسيين منه . ومن واجب الزعيم أن يقف الى جانب الشعب في وقت المحن والشدائد وأن يشاركه آلامه وأتراحه وهو ما لم يفعله عمر مكرم عقب ثورة القاهرة الثانية وهذا هو المأخذ الذي نسجله على عمر مكرم ابان الحملة الفرنسية . ولا ينفي هذا المأخذ أن حياته جاءت حافلة بصدقه الثورى مليئة بالشجاعة والنزاهة زاخرة بالنضال .

عودة عمر مكرم بعد نهاية الحكم الفرنسي :

لم تطل هجرة عمر مكرم فقد تطورت الاحداث في مصر تطورا عجل بنهاية الاحتلال الفرنسي ، وكان أول هذه الاحداث مصرع كليبر ، اذ تسلل الى حديقة داره فدائي عربى من مدينة حلب عمره أربع وعشرون سنة اسمه سليمان الحلبي طعنه بخنجره عدة طعنات أودت بحياته في ١٤ من سبتمبر ١٨٠٠ .

وتسلم الجنرال مينو قيادة الحملة بصفته اقدم ضباط الحملة ثم صدر قرار بونابرت بتثبيته في هذا المنصب . وبدأ عهد القيادة الثالثة والاخيرة للحملة . كان مينو يمثل انصار البقاء في مصر وهو من الرجال الذين استهواهم حب الاستعمار . وكان يثق في نجاح الحملة وفي قدرة فرنسا على الاحتفاظ بمصر واستغلال مواردها . وعلى اثر توليه القيادة العامة أوضح للضباط والجنود عزمه على البقاء في مصر ووصف اتفاقية العريش بأنها تسليم من كليبر . وكان هذا مدعاة لانقسام الضباط والجنود بين اقلية من

انصار البقاء واغلبية من أنصار الجلاء . وقد فعل هذا الانقسام فعله فى التعجيل بنهاية الحملة . وقد أنف كثير من الضباط أن يعملوا تحت قيادته لأنهم اعتقدوا أنه أقل كفاية من سلفيه وكانوا يعلمون أن وصوله الى رتبة لواء (جنرال) لا يستحقها اذ لم يكن فى ميادين القتال فقد قضى حياته العملية فى مناصب مكتبية وان صفحته العسكرية فى مصر ليست مشرفة . ولذلك كان أبرز ماتميز به عهد القيادة الثالثة للحملة هو عدم تبادل الثقة والتفاهم بين مينو وكبار الضباط ، وكان جهل مينو بدقائق المسائل الحربية مدعاة لارتيابه فى آراء زملائه ولذلك كان هناك سوء تفاهم مستمر وكان القواد يعقدون اجتماعات لتدبير خطة للقبض على مينو واعتقاله فى القلعة .

أيقنت انجلترا أن العثمانيين عاجزون بمفردهم عن اخراج الفرنسيين من مصر وأن الثورات الشعبية فى القاهرة والأقاليم، على الرغم من تعددها وتلاحقها وانهاكها الفرنسيين ، لم تسفر عن اجلائهم ومن ثم استقر رأيها على ارسال قوات بريطانية تسهم فى اخراج الفرنسيين من مصر لعدة أسباب تتعلق بالموقف السياسى والحربى فى أوروبا . فتحرك جيش بريطانى من جبل طارق وبلغ الاسكندرية فى أول مارس ١٨٠١ وحوالى هذا الوقت تحركت قوات بريطانية من الهند ونزلت غالبيتها فى القصير فى مايو ١٨٠٦ وعبرت الصحراء الشرقية الى قنا ثم صعدت فى النيل الى الجزيرة فبلغتها فى ٧ أغسطس ١٨٠١ ولكنها لم تشترك فى العمليات الحربية لأنه كان قد تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة ومن ثم اتجهت الى رشيد ، كما عملت بريطانيا على ارسال جيش ثالث من رأس الرجاء الصالح ينزل فى القصير أيضا . وكان العثمانيون ومعهم الأمراء المماليك يتقدمون الى مصر من ناحية الشرق بجيش تحت قيادة يوسف باشا ضياء الصدر الاعظم وهكذا أصبحت مصر تموج بقوات عسكرية فرنسية وبريطانية وعثمانية ومملوكية وقد

تعارضت أهدافها ومصالحها تعارضا جذريا .

فقد الفرنسيون أعصابهم فى هذه الفترة الحرجة فاعتقلوا فى القلعة كبار المشايخ ونحو خمسة عشر شخصا من أعيان القاهرة وحدث أن توفى ابن الشيخ محمد السادات أثناء اعتقاله فأذنت السلطات الفرنسية للوالد فى تشييع جنازة ابنه وهبط من القلعة فى حراسة مشددة وأعيد الى المعتقل بعد دفن فلذة كبده .

أظهر مينو ضعفا متناهيا وسوء تدبير وعنادا لا يتفق مع خطورة الموقف وأبى أن يستمع لنصيحة كبار الضباط وقبّع فى الاسكندرية بجزء من الجيش حاصره الانجليز وتعذر عليه الخروج من المدينة برا وبحرا . ووصل الجيش الانجليزى الى امبابة والجيش العثمانى الى القبة فطلبت الحامية الفرنسية فى القاهرة وقف القتال والدخول فى مفاوضات على قاعدة الجلاء وانتهت بتوقيع اتفاقية فى ٢٧ من يونيو ١٨٠١ نصت على جلاء الفرنسيين عن القاهرة والجيزة وبولاق بأسلحتهم وأمتعتهم وعتادهم على نفقة الحلفاء فى فترة لا تتجاوز خمسين يوما وسافر الفرنسيون فى السفن النيلية الى رشيد ومنها الى أبى قبر حيث أبحرت بهم السفن فى أوائل شهر أغسطس ١٨٠١ الى فرنسا . أما مينو فقد شدد الانجليز الحصار عليه برا وبحرا ونقصت مواد التموين لديه الى حد خطير وأكل الفرنسيون لحوم الخيل الهزيلة وانقطع ماء الشرب وانتشرت الأمراض والطاعون بين الضباط والجنود حتى اضطر الى التسليم ووقع اتفاقية فى ٣١ من أغسطس ١٨٠١ نصت على جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية بشروط أسوأ من الشروط التى وافقت عليها الحامية الفرنسية فى القاهرة وتم جلاء الحملة نهائيا عن مصر . فى ١٨ من أكتوبر ١٨٠١ .

كان السيد عمر مكرم قد عاد مع الجيش العثمانى الذى زحف على مصر من الشام وعاد معه أيضا السيد أحمد المحروقي

والأمير ابراهيم بك الكبير وغيره من الأمراء المماليك . ولما بلغ الجيش العثماني ضاحية القبة أقام السيد عمر مكرم في معسكر الصدر الأعظم وركب المشايخ أعضاء الديوان بعد آخر جلسة عقدت فيه في ٦ من يوليو ١٨٠١ الى القبة للترحيب بالصدر الأعظم ثم توجهوا الى عمر مكرم وأحمد المحروقي للسلام عليهما وقضوا ليلتهم في المعسكر .

ودخل عمر مكرم القاهرة في ١٥ من يوليو ١٨٠١ ومعه أحمد المحروقي وارتدى كل منهما خلعة من السمر رمزا لتقدير رجال الدولة العثمانية لهما . وفي اليوم التالي دخل القاهرة يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم في موكب عسكري حافل من باب النصر واستمرت مسيرة الموكب من الصباح حتى الظهر . وسار في الموكب كبار موظفي الدولة وأفراد جميع الطوائف وخرجت جموع الشعب لمشاهدة الموكب واستأجروا الدور المظلة على الشوارع التي يمر منها الموكب وقد أسهب الجبرتي في وصف الاستقبال الحافل الذي ظفر به الصدر الأعظم ثم علق عليه تعليقا يتمشى مع نظرة الشعب وقتذاك الى السلطان العثماني والدولة العثمانية فيقول « فكان ذلك اليوم يوما مشهودا ، وموسما وبهجة وعيدا ، عمت المسلمين فيه المسرات . . ودقت البشائر وقرت النواظر وأمروا بوقود المنارات سبع ليال متواليات ، فله الحمد والمنة على هذه النعمة ، ونرجو من فضله أن يصلح فساد القلوب ، ويوفق أولى الأمر للخير والعدل المطلوب » (١)

وشرع العثمانيون يمارسون سلطاتهم . وقد بعث يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم في ٤ من أغسطس ١٨٠١ في استدعاء الشيخ خليل البكري وابنته زينب وذهبت قوة البيدار أمها في

(١) الجبرتي ج ٣ من ص ١٨٩ - ١٩٠

الجودرية (٢) بعد المغرب وأحضروها حيث سئلت أمام أبيها عما كانت تفعله مع الفرنسيين ، فقالت : انى تبت من ذلك . فوجه المحقق سؤالا الى والدها : ما تقول أنت ؟ فقال : أقول انى برىء منها فكسروا رقبتها «(٢) أى قتلوها . أما الشيخ خليل البكرى فقد عزل من نقابة الأشراف لأنه كان قد وطد علاقاته مع الفرنسيين على النحو الذى أشرنا اليه من قبل ، ولأنه سمح لابنته أن « تتبرج مع الفرنسيين » و « أن تخرج عن طورها فى أيام الفرنسيين . » وانه أساء بتصرفاته وبأسلوب معيشته فى الحياة الى سمعة بيت البكرى العريق وصدر قرار بتعيين عمر مكرم نقيباً للأشراف . والحق أن تصرفات الشيخ خليل البكرى قد يسرت أمام العثمانيين مهمة إعادة عمر مكرم الى منصبه القديم نقيباً للأشراف ، فهم فى اقصائهم الشيخ خليل البكرى عن نقابة الأشراف كانوا يعتمدون على أسانيد قوية وصمته بعدم الأهلية لشغل منصب النقيب . وفى نفس السنة الهجرية أصدر محمد خسرو باشا الوالى العثمانى قرارا بعزله أيضا من مشيخة السجادة البكرية واستند فى قرار العزل الى أن

(١) الجودرية اسم طائفة من العسكر كان عددهم أربعمائة اختطفوا هذه الشارع أيام الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى . ثم علم هذا الخليفة أن جماعة من اليهود يجتمعون فيه فى أوقات فراغهم ويتسامرون فيه بما لا يليق فما كان منه الا أن ذهب ليلا وأغلق أبواب الشارع والحارة المتفرعة منه وأعمل فيهما النار . ومنذ ذلك الوقت لا يسكن ولا يبيت فيهما يهودى أبدا .

ويقع شارع الجودرية بالقرب من أول شارع المؤيد وينتهى الى أول شارع الخطاب . أما حارة الجودرية فتتفرع منه وتمتد الى جامع بيبرس والى درب سعاده فى شارع الازهر . أنظر على مبارك الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٣٩ - ٤٤ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٩٢ حوادث ٢٤ من ربيع أول سنة ١٢١٦ (٤ من أغسطس ١٨٠١) .

الشيخ خليل البكري « لا يصلح لسجادة الصديق » (١) اشارة الى أن البكرية ينسبون الى أبي بكر الصديق .

ونخرج من هذا العرض التاريخي بأن عمر مكرم كان ابان الحكم الفرنسي يتميز بالايجابية القيادية الثورية حيناً ، والنفي الاختياري حيناً ثانياً والاعتكاف السياسي يلجأ اليه مختاراً حيناً ثالثاً وهو في جميع هذه المراحل لم يدنس زعامته بالتعاون مع الفرنسيين في أية صورة من صور التعاون وأشكاله وألوانه .

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٢١٠ حوادث ١٥ من شهر ذي القعدة ١٢١٦ (١٩ من مارس ١٨٠٢) .

البَابُ الثَّالِثُ

عمر مكرم في عهد الانقلابات السياسية

١٨٠١ - ١٨٠٥

الفصل السادس

(أفاق تركى ينتزع نقابة الأشراف من عذر دكرم)

ابتهج المصريون بخروج الفرنسيين من مصر ، ولكنهم رأوا بلادهم تموج بالقوات العثمانية التى كانت قد جاءت للاسهام فى اخراج الفرنسيين وكانت هذه القوات تضم أخلاطا شتى من الجنود الاكراد والالبانيين والأتراك والمغاربة والشوام ومن اليهم . وسرعان ما أصبحوا عوامل فوضى واضطراب ، كانوا فخورين أنهم أنقذوا مصر من الحكم الفرنسى ، وسيطرت عليهم هذه الفكرة ورتبوا عليها نتائج قاسى منها الشعب المصرى الكثير من المتاعب ، اعتقدوا أن هذا الانقاذ المزعوم يبيح لهم أن يفعلوا فى البلاد وأهلها ما شاءت أطماعهم وأهواؤهم . انتشروا فى الشوارع يخطفون أرزاق الناس ويقتحمون المنازل وينتهكون الحرمات والأعراض وارهقوا المصريين بشتى أنواع الضرائب والاتاوات . ورأى الشعب الى جانب العثمانيين الأمراء المماليك واتباعهم يريدون الاستئثار بالحكم واغتصاب الأهوال من المصريين ، وهكذا خرج المصريون من محنة الاحتلال الفرنسى ليواجهوا ظلما ثنائيا تعددت صورته ومظاهره على أيدي العثمانيين الطغاة من ناحية والمماليك البغاة من ناحية أخرى .

لم يعمد المصريون الى الاستكانة ازاء مظالم العثمانيين والمماليك بل تعددت ثورات الشعب فى القاهرة والأقاليم احتجاجا على تلك المظالم واستمر الصراع بين الشعب وبين هؤلاء الحكام أعنف ما يكون الصراع ، وتعاقبت حوادث اغلاق الجامع الأزهر احتجاجا على عسب

الحكام ، وكثرت تجمعات الجماهير فى حى الأزهر انتظارا لاشارة زعماء الشعب بالتحرك استنكارا لتصرفات هؤلاء الحكام وتحديا لهم . واشتركت النساء مع الرجال فى هذه الحركات الشعبية .

والحق أن مصر أصبحت مسرحا لفوضى سياسية لا مثيل لها وكثرت حوادث قتل واعتقال وعزل الباشوات العثمانيين . وحسبنا أن نذكر أنه تعاقب على حكم مصر - خلال الفترة التى بدأت منذ أن تم جلاء الفرنسيين عن مصر فى سنة ١٨٠١ حتى قاد السيد عمر مكرم الثورة الشعبية الكبرى فى سنة ١٨٠٥ - خمسة حكام عثمانيين قتل منهم اثنان وأخرج الثلاثة الباقون من البلاد اخراجا غير كريم ، الأمر الذى يجعلنا نطلق على هذه الفترة «عهد الانقلابات السياسية» .

وتضافرت عوامل أخرى على استتفحال الفوضى التى كانت الطابع المميز لعهد الانقلابات السياسية ، منها تدهور الحالة الاقتصادية فى البلاد بسبب كثرة الحروب والثورات التى شهدتها البلاد على عهد الفرنسيين وبعد جلائهم الأمر الذى أدى الى تعطيل الزراعة وانقطاع المواصلات وكساد التجارة ، ثم استيلاء المماليك عقب عودتهم على أقاليم شاسعة فى الصعيد والوجه البحرى واستئثارهم بايراداتها ومحاصيلها . وغدت خزانة الحكومة خاوية . وعجزت الحكومة فى القاهرة عن مواجهة النفقات العاجلة ودفع مرتبات الجنود . ولم يجد الحكام أمامهم سوى الشعب الكادح يفرضون عليه الاتاوات الفادحة والقروض الاجبارية وغير ذلك من ضرائب جزافية تعسفية مختلفة المسميات . وليس من شأن هذا البحث أن يخوض فى تفاصيل الفوضى السياسية الحادة التى سادت البلاد ابان عهد الانقلابات السياسية . وحسنا ان نشير الى حادث وقع ابان هذه الفترة ويتصل بالسيد عمر مكرم .

فى غمار الفوضى السياسية التى عمت البلاد واضطراب

السياسة العثمانية ازاء مصر نزعَت نقابة الأشراف من السيد عمر مكرم وتولاها أفاق تركى يدعى يوسف أفندى . كان فى مطلع حياته يقيم فى القاهرة حيث اتخذ له محلا فى خان الخليلى يبيع فيه الخردة على مدار السنة حتى اذا أقبل شهر رمضان من كل عام نوفر على بيع البندق والجوز واللوز وغيره من أصناف الياميش . ثم بدا له احتراف التصوف ، فعدا من متصوفة الأتراك . وكان للمتصوفين شأن عظيم فى المجتمع الدينى الذى كان طابع مصر فى ذلك الوقت ولما مات شنيخ رواق الأتراك بالأزهر هفت نفسه الى تقلد هذا المنصب ، ونجح فى تحقيق بغيته بمعونة بعض سفهاء الأتراك . وسرعان ما ظهر سوء خلقه وخراب ذمته ، اذ استغل منصبه واختلس أموال رواق الأتراك ، أو رواق الأروام كما كان يسمى وقتذاك . وكشف أمره ، فعزل من منصبه وعين تركى آخر يسمى حسين أفندى شيخا للرواق ، وامتلا قلب الشنيخ المعزول ضغينة وموجدة وغلا لهذا الذى انتزع منه مشيخة الرواق ، ومن ثم سولت له نفسه أن يرتكب جريمة منكرة فى الحفاء كى يتخلص منه نهائيا ويسترد منصبه ، فدعاه الى منزله بعد أن دس له السم الزعاف فى شراب اعتزم تقديمه له ، ولكن حدث أن أخطأت ابنة الداعى فشربت من الشراب المسموم فماتت لفورها ونجا حسين أفندى من موت محقق .

ولما تعرضت مصر للغزو الفرنسى هاجر يوسف أفندى شيخ رواق الأتراك السابق الى الآسـتانة حيث أقام بها طوال الحكم الفرنسى . وتحت ستار الدين والتصوف نجح فى توثيق صلاته بكبار رجال الدولة ، وزعم لهم أنه كان شيخا للجامع الأزهر ، وتظاهر بالتقوى والتدين ، وأنه على حظ موفور من العلم ، وطلب اليهم تعيينه نقيبا للأشراف فى مصر ، كما طلب أن تسند اليه مشيخة الحبانية بالقاهرة . ويلوح أن الامر قد اختلط على رجال الباب العالى ، فلم يفرقوا بين مشيخة الأزهر وبين مشيخة رواق

الأروام بالأزهر ، فاستجابوا لطلبه ، اعتقادا منهم أنه صادق في قوله ، ومن ثم فهو أهل لشغل هذين المنصبين . وجدير بالذكر أن الأتراك يحبون التصوف ويميلون الى تقديس أهله والايمان بصدق ولايتهم (١) .

هبط هذا المدعى الأفاق مصر يحمل مرسوما بتولية نقابة الأشراف ومشيخة المدرسة الحبانية . وبلغ بولاق - ميناء القاهرة النهري - في مستهل شهر شعبان ١٢١٦ هـ (٧ من ديسمبر ١٨٠١) وقضى ليلته في بولاق ، وأرسل في الصباح نفرا من أتباعه يبلغون ولاية الأمور نبأ وصوله ، ولكن لم يحفل أحد منهم به ، ولم يخرج لاستقباله أحد ، فأحضر اليه أتباعه فرسا ركبه وذهب به الى القاهرة .

عقد عمر مكرم اجتماعا شهدته الأشراف وقرروا الاعتراض على تعيين هذا التركي نقيبا للأشراف وشميخا للحبانية ، وقالوا « لا يكون هذا حاكما ولا نقيبا علينا أبدا » وكان الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا لا يزال في القاهرة . وعلم قصة هذا التركي على حقيقتها ، وأدرك أنه محتال مزور ، فأهمل أمره وتقرر صرف النظر عن تعيينه في هذين المنصبين: نقابة الأشراف ومشيخة الحبانية، وتقرر أن يستمر عمر مكرم في منصبه . وأبدى الشيخ الجبرتي ابتهاجه بموقف الصدر الأعظم في هذه المسألة وتقديره العميق لقراره الحكيم ، وقال تعليقا على ذلك الموقف المشرف العادل «وهكذا شأن رؤساء الدولة ، أدام الله بقاءهم ، اذا تبين لهم الصواب في قضية لا يعدلون الى خلافه » . (٢)

(١) د . توفيق الطويل : التصوف في مصر ابان الحكم العثماني ص ١٦٢

(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ . حوادث شهر شعبان ١٢١٦ (٧ من ديسمبر ١٨٠١ - ٤ من يناير ١٨٠٢) .

لم يدعن الأفاق التركي لرأى الصدر الأعظم ، ومن ثم طفق يسعى لتمكينه من تقلد نقابة الأشراف ، فانتهاز فرصة قدوم محمد باشا خسرو الى القاهرة في ١٣ من رمضان ١٢١٦ (١٧ من يناير ١٨٠٢) وهو أول وال عثمانى يعين لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها. وبذل يوسف أفندى مساعيه لديه ، واستند في مسعاه الى أنه يحمل مرسوما صدر من السلطان بتعيينه نقيباً للأشراف ، وأذا هذا المرسوم واجب النفاذ ، فقلده هذا الوالى نقابة الأشراف في ٢٩ من رمضان ١٢١٦ (٢ من فبراير ١٨٠٢) وفي ذلك يقول الجبرتي « وفي ليلة الاربعاء تاسع عشرينه ذهب يوسف أفندى الى والى مصر فقلده نقابة الأشراف وألبسه فروة بعد أن كان أهمل أمره ، ويلاحظ أن المرسوم الصادر بتعيين يوسف أفندى نقيباً للأشراف في مصر كان من الناحية القانونية لا يزال قائماً ، لأنه لم يكن قد صدر مرسوم لاحق يلغيه أو يعدله ، ومن ثم كان يتعين على الوالى محمد خسرو باشا تنفيذه . ولا ننسى أن في مقدمة واجبات الوالى العثماني في مصر تنفيذ الفرمانات أى المراسيم التي يصدرها السلطان . وكان خسرو باشا يعتقد أن مهمته الأولى في مصر هي توطيد دعائم الحكم العثماني في العهد الجديد واقتصاد الممالك عن حكم البلاد . وكان تجاهل مرسوم صدر من السلطان مما يتنافى مع مهمته التي أخذ على عاتقه تنفيذه بحذافيرها .

لم يسكت السيد عمر مكرم عن أمر اعتبره ضيماً نزل به ومهانة لحقت نقابة الأشراف بمصر وبخاصة ان الذي انتزعها منه أفاق تركى ليست لديه الأهلية لشغل هذا المنصب الدينى ، وأن ماضيه في مصر كان ملوثاً ، وأنه شخص مرد على النفاق والكذب وقلب الحقائق ، فادعى أمام ولاة الأمور في الآستانة أنه كان في يوم ما شيخاً للأزهر العتيد . وقد تحدث السيد عمر مكرم مع الصدر الأعظم يوسف ضياء باشا أثناء وجوده في القاهرة في هذه المسألة على السلطان عقب عودته الى الآستانة ، وعند رحيل الصدر

الأعظم من القاهرة فى طريق عودته الى الآستانة بطريق الشام فى ١٠ من شوال ١٢١٦ (١٣ من فبراير ١٨٠٢) ذهب لوداعه السيد عمر مكرم وبعض المتعممين فأعطاهم صررا وقرءوا له الفاتحة ، وخرج أيضا فى ذلك اليوم بقية المشايخ وذهبوا الى الخانكة حيث أقيم معسكره وودعوه (١) .

وقد بر يوسف ضياء باشا بوعده ، لأنه لم يمض وقت طويل على وصوله الى الآستانة حتى فاتح السلطان فى موضوع نقابة الأشراف واستطاع تسويتها معه . وقد وصل الى القاهرة فى ١٥ من ذى الحجة ١٢١٦ (١٨ من ابريل ١٨٠٢) رسول من الباب العالى يحمل مكاتبات كان من بينها مرسوم باعادة نقابه الأشراف الى السيد عمر مكرم وعزل يوسف أفندى منها . وقد ركب عمر مكرم الى القلعة حيث قابل الباشا الذى ألبسه خلعة سمور ثم توجه من عنده الى الدفتردار . وبذلك عادت الحقوق الى ذويها واسترد عمر مكرم نقابة الأشراف ، بعد أن انتزعها منه يوسف أفندى شهرين ونصف شهر .

ولم يعد أحد يسمع شيئا عن النقيب التركى السابق الا مرة واحدة حين تناول على أحمد خورشيد باشا الوالى العثمانى بالسب والقذف فى حقه . وكان ذلك فى ٨ من ذى الحجة ١٢١٩ (١٠ من مارس ١٨٠٥) يصف الجبرتى الاهانة التى لحقت به ، فيقول : « وفى يوم الأحد ثامنه طلع يوسف افندى الذى كان تولى نقابة الأشراف فى أيام محمد باشا خسرو ثم عزل عنها الى القلعة ، فقبض عليه صالح أغا قوشى وضربه ضربا مبرحا وأهانته اهانة زائدة وأنزلوه أواخر النهار وحبسوه فى بيت عمر أفندى النقيب ثم تشفع فيه الشيخ السادات وأفرجوا عنه تلك الليلة وذهب الى داره ليلا ، وذلك بسبب دعوى تصدر فيها المذكور وتكلم كلاما فى حق الباشا فحقدوا عليه ذلك ، وفعلوا معه ما فعلوه ، ولم ينتطح فيها عنزان » .

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٠٨ .

الفصل السابع

دور عمر مكرم القيادى فى ثورة ١٣ مايو ١٨٠٥

بعد أن عاد عمر مكرم الى منصبه نقيبا للأشراف لم يعمد الى الاعتكاف بل شارك فى الحياة العامة فى النطاق الذى رسمته له أحداث الفوضى السياسية التى كانت طابع هذه الفترة . فهو لم يشترك اشتراكا ايجابيا فى المنازعات التى وقعت بين طوائف العثمانيين سواء بين الجنود الانكشارية وبين الجنود الألبانيين أو بين الآخرين وبين المماليك . وقد ترك عمر مكرم - الى حين - هذه العناصر العسكرية الدخيلة تتطاحن وتتقاتل على السلطة والنفوذ وهى فى الحقيقة تعمل على اضعاف وافناء نفسها بنفسها .

وفى ٢٦ مارس ١٨٠٤ وصل الى القاهرة أحمد خورشيد باشا واليا على مصر وهو خامس وال يلى مصر فى ثلاث سنوات ، وكان على شاكلة من سبقوه ، أسرف اسرافا بعيدا فى ظلم الشعب . استقدم جنودا أشداء من الاكراد عرفوا باسم الدلاة (١) ليتخلص بهم من محمد على وجنوده الألبانيين مما أثار عليه حفيظة الآخرين ثم عجز خورشيد عن دفع مرتبات الدلاه والألبانيين على السواء ولجأ الى فرض ضرائب جزافية وقروض اجبارية على الشعب واستخدم فى جمعها وسائل تعسفية كان من بينها اعتقال الأعيان وكسار

(١) الدلاة أو الدلاتية كلمة تركية معناها المجانين ومفردها ديل . وأطلقت هذه اللفظة على الجنود الاكراد لشهرتهم بالبسالة والتهور والاندفاع الذى يصل الى حد الجنون .

التجار فى القلعة وعدم الافراج عنهم الا بعد سداد ما قرره عليهم
ثم فرض على صغار التجار دفع خمسمائة كيس .

اسفاف الجنود الدلاة فى الاجرام :

كان الجنود الدلاة يقيمون فى مصر القديمة ، وانقلبوا
وحوشا كاسرة بعد أن تأخرت مرتباتهم ثلاثة أشهر وأخذوا يهاجمون
الشعب وبدأوا اعتداءاتهم بالأسلوب التقليدى وهو خطف العمائم من
رءوس المسارة ثم انقلبوا مجرمين عتاه ينهبون ويقتلون ويقتحمون
البيوت ويرتكبون جرائم خلقية منكرة . وما أن علم المشايخ بهذه
الجرائم حتى عملوا على تعبئة الرأى العام ضد هؤلاء الدلاة ، فأمروا
عددا من الرجال بالمرور فى الطرقات الرئيسية وإذاعة أنباء هذه
المآسى ، ولم تمض ساعة واحدة حتى أغلقت الحوانيت والوكائل
واقفرت الاسواق من روادها . وتدفقت الجماهير الى حى الأزهر
تطلب من المشايخ بصوت مرتفع الاذن لها فى الزحف على مصر
القديمة والانقضاء على الدلاة (١) . وقد شعر خورشيد بهذه
الحركة وخشى أن يتفاقم الموقف فأرسل وكيله ومعه قائد فرقة
الانكشارية فى حراسة قوة من الجند الى الأزهر للتفاهم مع المشايخ
على تهدئة الجماهير ولكن انهال عليهم الطوب من أسطح المنازل .
وتعذر عليهم الوصول الى الأزهر فعادوا من حيث أتوا .

وقد وقف المشايخ من خورشيد موقف المحتج الغاضب
فصعدوا اليه فى القلعة وخاطبوه فى هذا الارهاب الاجرامى الذى
يمارسه جنوده الدلاة . فأصدر أمرا الى الدلاة بعدم التعرض
للأهلين ، فلم يمتثلوا . وخطب خورشيد مرة ثانية فأجاب بأنهم

(١) Achille de Vaulabelle, Histoire Scientifique et Militaire de

l'Expédition française en Egypte. «Paris, 1832» 10 vols.

t. 9, pp. 206-207.

مسافرون بعد ثلاثة أيام ، فزاد ضجيج الشعب . واجتمع المشايخ في الأزهر صباح يوم الخميس ٢ من مايو ١٨٠٥ وأوقفت الدراسة فيه ، وخرج الناس الى الأسواق يصرخون ويأمرون التجار بغلاق الحوانيت . ورأى خورشيد أن يخطو خطوة في سبيل علاج الموقف فأرسل كتخده - وكيله - الى جامع الأزهر يعرض على المشايخ عقد هدنة مدتها ثمانية أيام تنتهى فى ١٠ من مايو يبذل المشايخ نفوذهم حتى يركن الشعب الصاخب الى الهدوء وتعود الحياة الى مجراها الطبيعى ، ويتعهد خورشيد من ناحيته باتخاذ الاجراءات الكفيلة بردع الجنود الدلاة . ولكن لم يجد الكتخدا أحدا فى الجامع فتوجه الى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى بصفته شيخ الأزهر وعقدا اجتماعا لهذه عمر مكرم وسائر المشايخ . ولما نقل الكتخدا الى المجتمعين رغبة الوالى فى عقد الهدنة اشترطوا للموافقة عليها أن يطهر خورشيد مدينة القاهرة وضواحيها من الجنود الدلاة كلية فى خلال ثلاثة أيام . ولما انصرف الكتخدا بعد أن انفض الاجتماع فوجئ بالجماهير تقذفه بالطوب وتوسعه سبا وشتما (١) . وعلى الرغم من عقد الهدنة فقد ظلت الدراسة معطلة فى الأزهر ، وبقيت معظم الحوانيت مغلقة .

نذر الثورة وموقف عمر مكرم :

استقر رأى التجار وأرباب الحرف على اغلاق حوانيتهم كمظهر عملى من مظاهر الاحتجاج على مظالم خورشيد وفرضه الضرائب الجزافية عليهم . وفى اليوم التالى نفذوا ماتعاهدوا عليه ، وظلوا مترقبين متحفزين ، وذهبت أفواج منهم الى الجامع الأزهر . وعلى الرغم من أن

Mengin Felix: Histoire de l'Égypte sous le gouvernement
de Mohammed Aly. Paris 1823 2 vols. t I. p. 159

(١)

محافظ العاصمة ورئيس الشرطة (١) قاما بجولة فى شوارع القاهرة يأمران التجار بفتح محلاتهم فان أحدا منهم لم يمثل لأوامرهما ، ذلك أن روحا جديدة دبت فى نفوس المصريين . وفى ٢٩ من مايو ١٨٠٤ كانت القاهرة كمرجل يغلى استعدادا للثورة اذ « اجتمع الكثير من غوغاء العامة والاطفال بالجامع الأزهر ، ومعهم طبول ، وصعدوا الى المنارات ، يصرخون ويطلبون ، وتحلقوا بمقصورة الجامع ، يدعون ويتضرعون ويقولون يا لطيف ، وأغلقوا الأسواق والدكاكين ، ووصل الخبر الى الباشا ، بل سمعهم من القلعة » .

استنجد خورشيد بعمر مكرم لتهدئة الشعب الشائر ، وأرسل رسولا الى الزعيم يقول له ان الحكومة قررت اعفاء الفقراء من دفع الضريبة فأجابه عمر مكرم قائلا ان أرباب الحرف والصناعات أصبحوا فى عداد الفقراء ، ويكفى ما يعانونه من حالة الكساد ووقف المعاملات التجارية وقلة البضائع المعروضة ، فلا يحق للحكومة أن تطلب منهم الاسهام فى تحمل مرتبات الجنود . وتسأل عمر مكرم عن العلاقة بين التجار وبين تدبير الاعتمادات المالية لحرب المماليك . وعاد الرسول الى خورشيد يحمل اجابة عمر مكرم . وذهب محافظ العاصمة فى حشد من الجنود الى الغورية يأمر التجار بفتح الحوانيت ويتوعد من يتخلف ولكن لم يحضر أحد ولم يرهبهم وعيد أو تهديد . واضطر خورشيد ، ازاء رفض عمر مكرم التعاون معه وازاء تضامن التجار ، الى اصدار فرمان فى نفس اليوم « برفع الغرامة عن المذكورين ، ونادى المنادى بذلك ، فاطمأن الناس وتفرقوا وذهبوا الى بيوتهم » . وأفرج عن الأقباط بعد أن دفعوا ألفا ومائتين وخمسين كيسا وتغاضى عن المائتين وخمسين كيسا المتبقية عليهم من الغرامة . وتم اطلاق سراحهم ليلا وغادروا معتقل

(١) كان يطلق على محافظ القاهرة فى مصطلح ذلك العصر اسم الاغا .

ويطلق على رئيس الشرطة اسم الوالى .

القلعة على ضوء المصابيح (الفوانيس) . وفى اليوم التالى صدرت الأوامر باعتقال اليهود وسيقوا الى معتقل القلعة وتقرر التحفظ عليهم حتى يدفعوا ألف كيس (خمسة آلاف جنيه) .

كان فى ظن خورشيد أنه مستطيع توفير الأسباب لتهدئة خواطر الأهلى ، ولكنه فشل فى علاج الموقف . اذ أعلن أن مركز الحكومة المالى يضطره الى فرض مزيد من الضرائب ليدفع من حصيلتها مرتبات الجنود . ولهذا الفرض فرض فى ١٠ من مايو ١٨٠٥ ألفى كيس على جرجس جوهرى ومحمد المحروقى . ثم أعلن خورشيد فى نفس اليوم عن عزمه على فرض ضريبتين جديدتين . وانتشرت هذه الأنباء بسرعة البرق بين سكان القاهرة واحتوى الشعب شعور جارف بتحدى أحمد خورشيد باشا . فأعلنوا أنهم لن يدفعوا أية ضريبة يفرضها عليهم ، ومضوا ليلتهم فى هرج ومرج شديدين . وكانت الصورة التى ظلت عالقة فى أذهانهم مفزعة رهيبة تمثلت فى أمرين ، هما : الجرائم المنكرة التى يرتكبها الجنود الدلاة فى وضوح النهار وفى ظلمة الليل ، وعجز الوالى أحمد خورشيد عن وضع حد لها ، ثم اصرار هذا الوالى على المضى فى سياسته الضريبية الجائرة .

أما الزعماء فأخذوا يتبادلون الرأى فى الخطة العملية التى يجب عليهم انتهاجها فى اليوم التالى وقد انتهت بهم المداولات الى أن يطلبوا من القاضى عقد مجلس شرع يختصمون فيه الوالى أحمد خورشيد . فلما أصبح يوم الأحد ١٢ من مايو ١٨٠٥ ركب المشايخ الى دار المحكمة الكبرى - بيت القاضى - وطلبوا عقد مجلس شرع واختصام الوالى فيه ، وطلبوا من القاضى استدعاء « المتكلمين فى الدولة لمجلس الشرع » أى كبار رجال الحكومة لمصارحتهم بما استقر عليه رأى زعماء الشعب ، فحضر من طرف الوالى خمسة مندوبين . ولم يكذ يعلم الشعب بما استقر عليه رأى زعمائه حتى كانت الشوارع المؤدية الى دار المحكمة تموج بجموع زاخرة من الجماهير

تدفقت من كل حذب وصوب على دار المحكمة ، واجتمع حولها حشود
« المتعممين والعامة والاطفال » وأخذوا يرددون هتافات عدائية موجهة
ضد الوالى العثمانى أحمد خورشيد باشا ، وكان من بينها « شرع
الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم - يالطيف - يا رب يامتجلى ، اهلك
العثملى - حسبنا الله ونعم الوكيل » .

مطالب زعماء الشعب برياسة عمر مكرم

ولما اكتمل عقد المجلس أعلن المشايخ فى مواجهة مندوبى الوالى
أن أحدا لن يدفع الضريبة التى قررها الوالى فى اليوم السابق (١١ من
مايو) وأنهم لن يعترفوا بسلطته كوال على مصر ما لم يخضع
للشروط التى يرون أنها كفيلة بإعادة الأمن والاستقرار الى البلاد
وانهاء الجرائم التى يرتكبها الجنود ووضع حد لمظالم الباشا .
واتفقوا على كتابة « عرض حال » أى مذكرة تتضمن الوسائل
العملية لتحقيق رغبات الشعب .

وتذكر وثائق وزارة الخارجية الفرنسية (١) أن هذه المطالب
بلغ عددها واحدا وعشرين مطلباً كان أهمها حسب ترتيب ورودها
فى نشرة الوكلاء الفرنسيين بمصر والمؤرخة فى ٢٠ من مايو
١٨٠٥ :

١ - عدم مرابطة القوات العسكرية فى القاهرة وضرورة
انتقالها الى الجيزة .

٢ - عدم السماح لأى جندى بدخول القاهرة حاملا سلاحا
معه .

٣ الامتناع عن فرض أية ضريبة على سكان القاهرة بدون
موافقة المشايخ والأعيان .

(١) وثيقة رقم ٢٦ . وانظر Douin G. Mohamed Aly, Pacha du Care

Achille de Vaulabelle. ouvr. cit., t. 9. pp.210-211

٤ - إعادة المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى .

أما بقية الشروط فتقول الوثيقة الفرنسية انها شروط أقل أهمية وهي تتعلق بالاجراءات التى يجب اتخاذها لاعادة الهدوء والأمن الى القاهرة والأرياف والمحافظة على حياة السكان ، ثم العودة الى النظام القديم فيما يختص بسفر قافلة المحمل والحجاج الى الأقطار الحجازية .

أما الوثائق الانجليزية (١) فتزيد على هذه المطالب مطلباً آخر هو تخصيص جزيرة الروضة فى القاهرة لإنشاء الحانات والمحال المعدة للترفيه عن الجنود . كما أنها ذكرت أن حظر فرض الضرائب يمتد الى سائر أنحاء القطر المصرى ، وليس الحظر مقصوراً على القاهرة وحدها كما جاء فى الوثيقة الفرنسية .

أما الجبرتى فلم يسجل البنود التى تضمنتها مذكرة زعماء الشعب بل أوردها فى صورة عامة . قال عن مجلس الشرع « واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات ، ففعلوا ذلك ، وذكروا فيه تعدى طوائف العسكر ، والايذاء منهم للناس ، وإخراجهم من مساكنهم ، والمظالم والفرد ، وقبض مال الميرى المعجل ، وحق طرق المباشرين ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك » (٢) وقد

(١) انظر الوثيقة رقم ١٦٥ فى مجموعة الوثائق الانجليزية التى جمعها ونشرها دوان بعنوان

L'Angleterre et l'Egypte. La Politique Mameluke (1803-1807) ,
Le Caire, 1930. 2 Vols. t. II. doc. no. 165 pp. 231-233.

أما الجزء الاول من مجموعة الوثائق الانجليزية فقد اشتركت معه فيه مدام Fawtier Jones وهو يحمل نفس عنوان الجزء الثانى ويفطى حوادث السنوات من ١٨٠١ حتى ١٨٠٣ وقد طبع فى القاهرة سنة ١٩٢٩ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

أخذ مندوبو الوالى هذه العريضة لتقدمها اليه ووعدوا بالعودة اليهم ومعهم الرد عليها فى اليوم التالى .

خورشيد يدبر خطة لقتل عمر مكرم :

شعر خورشيد أن الحركة جد خطيرة . ولم يكن فى مقدوره أن يستجيب لطلبات الشعب التى وردت فى العريضة حتى يتجنب انفجار الشعب . فليس لديه فائض من مال يدفع منه مرتبات الجنود حتى يخلدوا الى السكينة ، وليس له سلطان على الجنود حتى يأتروا بأمره ويرحلوا عن القاهرة الى الجيزة . وعلم من مندوبيه الذين حضروا مجلس الشرع أن عمر مكرم كان فى طبيعة مؤيدى العريضة وان كلمته مستجابة ، وأن فى استطاعة هذا الزعيم أن يدفع الشعب فى طريق الثورة حتى يحقق مطالب الجماهير فعول على أن يتخلص منه . وفى هذا يقول اكيل دى فولابل *Achille de Vaulabelle* ،

المؤرخ والسياسى الفرنسى ان السيد عمر مكرم برز فى الصف الأول من صفوف المناضلين الذين رأهم الشعب يدافعون عن حقوقه . واعتقد خورشيد أن فى مقدوره اخماد الحركة اذا اعتقل هذه الشخصية القيادية الثورية ثم تخلص منها . فلما تسلم خورشيد المذكرة التى تتضمن مطالب الشعب أعلن أنه لا يستطيع أن يقرر شيئاً قبل أن يتشاور مع عمر مكرم . ولهذا فهو يرجو أن يصعد الى القلعة لمقابلته (١) . أما الجبرتى فيذكر هذه الواقعة بصورة أخرى تدل على أن عمر مكرم كان هو المرجع فى أحداث الثورة وأنه هو زعيمها وموجهها ، فيقول ان خورشيد بعث

(١) *Achille de Vaulabelle, ouvr cit., t 9pp 211-213*

Gouin Edouard, L'Egypte au Dix-Neuvieme Siècle Paris, 1847

ويذكر مؤرخ آخر فرنسى معاصر أن خورشيد بعث الى القاضى يرجو أن يحضر اليه فى القلعة فى اليوم التالى ومعه السيد عمر مكرم ليتشاور معها . ولكنهما رفضا الذهاب اليه . انظر *Mengin, ouvr. cit., t. I, p. 161*

برسالة الى القاضي « يظهر الامتثال ويطلب حضوره اليه من الغد مع العلماء ليعمل معهم مشورة فلما وصلتته التذكرة (الدعوة) حضر بها الى السيد عمر أفندي ، واستشاروا في الذهاب ثم اتفقوا على عدم التوجه اليه ، وغلب على ظنهم أنها منه خديعة ، وفي عزمه شيء آخر ، لأنه حضر بعد ذلك من أخبرهم أنه كان أعد أشخاصا لاغتيالهم في الطريق ، ونسب ذلك الفعل لأوباش العسكر أن لو عوتب بعد ذلك » .

ولما علم خورشيد برفض الزعماء قبول دعوته أعلن رفضه مطالب الشعب جملة وتفصيلا . وقد حسمت هذه الاجابة مصيره المرتقب ودفعت عمر مكرم والمشايخ الى العمل الجدى السريع . والحقيقة أن الزعماء كانوا قد يثسوا تماما من أى اصلاح يأتى على يد خورشيد واعتقدوا فيه العجز عن احداث أى تغيير يقضى على المظالم التى حفل بها حكمه . وعلى الرغم من أنهم كانوا واضعى العريضة وموقعيها فانهم كانوا قد بيتوا النية على ضرورة عزله والمناداة بمحمد على واليا على مصر (١) وصرحوا فيما بينهم بهذا الاتجاه وتسربت الى الجماهير أنباء ما اعتزموه فتناقلته الألسن ووجد هذا التغيير المرتجى هوى فى نفوس افراد الشعب ، ومن ثم حدث اللقاء والتجاوب بين الشعب وبين زعمائه . ولهذا ففي الصباح الباكر من اليوم التالى (١٣ من مايو ١٨٠٥) ذهب الزعماء الى دار المحكمة وحولهم جموع الشعب تظاهروا بهم . ولكن القاضي وقد أدرك أن ثورة الشعب تدخل مرحلتها الحاسمة وخشى عاقبتها أمر باغلاق أبواب المحكمة . وأسرع الى المحتشدين سعيد أغا وكيل خورشيد وكبار رجال حكومته ليتداركوا الموقف ، ولكن كان عمر مكرم أسبق

(١) Guemard Gabriel, les Reformes en Egypte d'Ali Bey El Kébir
à Méhémet Ali (1760-1848) Le Caire, 1936. p 87

منهم فى الحركة والعمل • فقد جاهر أمامهم بضرورة عزل أحمد خورشيد وتولية محمد على مكانه ، فتعالت هتافات الشعب مدوية بسقوط خورشيد لكثرة مظالمه والمناداة بمحمد على واليا على مصر • وعندئذ قرر عمر مكرم والزعماء الذهاب الى محمد على فى داره بالأزبكية وعرض منصب ولاية مصر عليه بنفس الشروط التى ضمنوها مذكرتهم السابقة الى أحمد خورشيد •

ويصف الجبرتى المقابلة التى تمت فى نفس اليوم بين عمر مكرم والمشايخ من ناحية وبين محمد على من ناحية ثانية فيقول «وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له انا لانريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولابد من عزله من الولاية • فقال : ومن تريدونه يكون واليا ؟ قالوا له : لا نرضى الا بك ، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير • فامتنع أولا ثم رضى وأحضروا له كركا وعليه قفطان (١) وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى ، فألبسناه له وذلك وقت العصر ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة ، غير أن الجبرتى يعود - عند ترجمته لمحمد بك الألفى وهو يتكلم عن وفيات سنة ١٢٢١ هـ - فيعطينا صورة أكثر وضوحا وأدق تفصيلا • فيقول ان عمر مكرم عقد مجلسا فى منزل محمد على دعا اليه المشايخ والاعيان • وتصدر عمر مكرم الحديث فى هذا المجلس ، فتكلم عن تفاقم الموقف واستمرار الحروب والفتن بين طوائف الجند وتوالى المظالم والجرائم فى غير انقطاع على الشعب ، وأفصح عن رأيه فى أن لا مخرج من هذه الحالة التعسة التى انحدر اليها الشعب الا بعزل أحمد خورشيد • وطلب منهم أن يختاروا أحدا من العثمانيين يعين واليا بالنيابة حتى يصدر الباب العالى قرارا بتعيينه أو تعيين وال آخر • ففوض الحاضرون الأمر الى عمر مكرم يختار من

(١) كان الكرك والقفطان من شارات الحكم فى ذلك الوقت •

يراه . فأشار الى محمد علي فأظهر الاخير التمتع وقال « أنا لا أصدّق
لذلك ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة ، وكأر
هذا القول رياء ونفاقا من محمد علي حتى يتمسك الحاضرون به .
وفعلا » قالوا جميعا قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة ، والعبرة
رضا أهل البلاد . وفى الحال احضروا فروة وألبسوها له وباركوا
له ، وهنئوه ، وجهروا بخلع خورشيد أحمد باشا من الولاية ،
واقامة المذكور فى النيابة حتى يأتى المتولى أو يأتى له تقرير بالولاية .
ونودى فى المدينة بعزل الباشا واقامة محمد علي فى النيابة .
ونخرج من هاتين الصورتين بعدة حقائق :

١ - أن عمر مكرم كان هو الذى تزعم انقلاب مايو ١٨٠٥ وأول
من اقترح على المشايخ والأعيان عزل خورشيد وتعيين محمد علي
مكانه . وكان رأى عمر مكرم نافذا وكلمته مسموعة فقد أخذ
الحاضرون باقتراحه ولم يرتفع صوت واحد بالمعارضة .

٢ - قرر زعماء الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم حق الأمة فى
اختيار وتعيين حاكمها وهو مبدأ دستورى هام . وكان تقرير هذا
المبدأ وتنفيذه كسبا شعبيا كبيرا .

٣ - أن عمر مكرم كان يرى أن والى مصر يجب أن يكون
عثمانيا وسنتعرض لهذه المسألة بعد حين فى شيء من التفصيل .

٤ - أن تعيين محمد علي كان بصفة قائم مقام أى وال بالنيابة
حتى يصدر السلطان مرسوما بتعيينه أو تعيين عثمانى آخر واليا
على مصر .

٥ - أن محمد علي قبل الشروط التى عرضها عليه عمر مكرم
وكانت نفس الشروط التى رفضها من قبل خورشيد باشا وقد
كتب ميسيت Misset قنصل بريطانيا العام فى مصر رسالة
مؤرخة فى ١٨ من يونيو ١٨٠٥ الى حكومته قال فيها ان المشايخ

والأعيان صمموا قبل المناذاة بمحمد على واليا على مصر أن يوقع على تصريح أو اعلام يتضمن نفس الشروط التي رفضها خورشيد وكان أهمها - في نظره - عدم السماح للجنود بدخول القاهرة بسلاحهم ويستثنى من هذا الحظر رجال الشرطة ، وعدم فرض أية ضريبة غير قانونية في أى جزء من أجزاء مصر .

مقارنة بين عريضة الزعماء ووثيقة قانون الحقوق :

وقد نعت أحد رجال السياسة في فرنسا هذه العريضة التي تضمنت شروط المشايخ بأنها وثيقة الحقوق bill des droits (١) وانها تشبه وثيقة قانون الحقوق Bill of Rights الذي أقره البرلمان الانجليزى فى سنة ١٦٨٩ عقب الثورة التي قام بها الشعب الانجليزى فى سنة ١٦٨٨ وأسفرت عن انهاء حكم أسرة ستيوارت فى انجلترا ، وتعتبر هذه الوثيقة من القواعد التي قامت عليها حرية الشعب الانجليزى وأعلن فيها أن حق الملك فى العرش مستمد من ارادة الشعب الممثل فى البرلمان ، وأن البرلمان له حق نقل التاج وفقا لمصلحة البلاد ، وأنه لا يجوز للملك أن يفرض الضرائب بدون موافقة البرلمان . والوثيقة التي كانت تحمل توقيع العلماء وقدموها لخورشيد فرفضها ثم لمحمد على فقبلها تشبه قانون الحقوق . فهى قد أنهت حكم أحمد خورشيد باشا وكان آخر وال عثمانى يحكم مصر وفق النظام الذى أرسى قواعده السلطان سليم الأول عقب الغزو العسكرى العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ ، وأتت بمحمد على واليا على مصر ، والذى استطاع أن ينشئ حكما وراثيا فيها يتوارثه بنوه وحفدته ، كما أنها تتضمن نصا بعدم انشاء أية ضريبة دون موافقة الشعب ممثلا فى زعمائه المشايخ والأعيان . وهذا النص صيغة

(1) Achille de Vaulabelle, ouvr. cit., t 9 p. 211

للمبدأ الدستوري المعروف No taxation without repesentaronti
أى لا ضريبة بدون قانون يعرض على ممثلى الشعب • والفارق بين
هاتين الوثيقتين محصور فى مجال التطبيق العملى • فملوك انجلترا
احترموا وثيقة قانون الحقوق والتزموا بها منهاجا ومسلكا فى
تصرفاتهم بينما رفضها خورشيد ثم قبلها محمد على ولكنه لم يعمل
بها أكثر من سنتين ثم عبث بها •

البَابُ الرَّابِعُ

عمر مكرم زعيم المقاومة الشعبية

مايو — أغسطس ١٨٠٥

الفصل الثامن

عمر مكرم يقود الكفاح المسلح

خورشيد يتحدى الشعب :

حمل زعماء الشعب في نفس اليوم الى خورشيد قرار عزله ولكنه - وهو التركي المفرور الصلف - أبى واستكبر ، ووقف موقف العناد والتحدى . فأعلن تصميمه على البقاء في منصبه استنادا الى أنه معين من قبل السلطان فلا يعزل - كما قال - بأمر الفلاحين ، (١) وصرح بأنه لن يغادر القلعة الا بأمر من السلطان . وبدل أسلوب اجابته على مبلغ تعاليه على الشعب وازدراؤه له ، قرر خورشيد المقاومة واعتصم بالقلعة وسارع الى اتخاذ تدابير عسكرية وسياسية متحديا الشعور الشعبي الجارف ضده . فنقل الى القلعة ذخائر حربية ومواد تموينية استعدادا لتلقى الحصار اذا اضطرت الظروف الى ذلك . وكان يعتمد على القوة العسكرية المرابطة في القلعة والتي كانت تدين له بالولاء ، وكان عددها ألفا وخمسمائة جندي . وعول في نفس الوقت على الاستفادة من انقسام ظهر في صفوف زعماء الألبانيين وراوده الأمل في مناصرة فريق منهم له مثل عمر بك الأرنوودي الذي غادر مسكنه في بولاق في ١٤ من يونيو ١٨٠٥ - أي في صبيحة الانقلاب - وصعد اليه في القلعة يشد أزره ، ونهج هذا النهج صالح أغا قوش . والتزم حسن باشا الزعيم الأرنوودي الآخر موقف الحيدة بين محمد علي وخورشيد ثم أخذ

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٣٣٠ وانظر Gouin Edouard, ouvr. cit., p. 154

خورشيد ينشد مساعدة محمد الألفى بك وإبراهيم بك وعثمان بك وغيرهم للوقوف الى جانبه ضد محمد علي ، كما انه استدعى على باشا سلحداره بجيشه من المنيا ، وعقد آمالا كبارا على مساعدة الجنود الدلاة له وكانوا في ذلك الوقت في القليوبية ، وبعث الى الحكومة العثمانية يطلب تأييدها له في موقفه باعنباره نائب السلطان في حكم مصر . وظن خورشيد أن في مقدوره بهذه التدابير وأد الثورة الشعبية معتقدا أنها ليست الا وميض نار لا يلبث أن يخبو وشيكا . ولكنه كان في ظنونه من الواهين الخاسرين . فان زعماء الشعب قرروا مقابلة تحدى خورشيد بتحد مثله فقرروا بالاتفاق مع محمد علي محاصرة القلعة وأن يشترك الجنود الألبانيون مع المصريين في قتال خورشيد . وكان عمر مكرم هو أول من دعا الشعب الى ضرب الحصار على القلعة . ورفع رأسه بالإيمان والعزة والقوة .

عمر مكرم يقود النضال الشعبى المسلح :

بدأ الصراع المسلح بين الشعب وبين خورشيد وأبدى عمر مكرم في هذه الآونة الكثير من ضروب النشاط والمثابرة والشجاعة وهو يقود النضال الشعبى العنيد لتدبير المقاومة الشعبية وتوجيهها لحصار خورشيد فى القلعة وتضييق الحناق عليه . فآكثر من الطواف بأنحاء العاصمة لتعبئة المشاعر ودعوة الجماهير الى تأييد الثورة والانضمام اليها . وكان الأزهر هو مركز التجمعات الشعبية فيقودها عمر مكرم الى دار محمد علي فى الأزبكية بصفته الوالى الذى ارتضاه حاكما للشعب ، ثم يخرج عمر مكرم بهذه الجموع الى القلعة لتعزيز القوات التى تحاصرها واقامة المتاريس فى الشوارع المحيطة بها . يقول الجبرتى « واجتهد السيد عمر أفندى النقيب وحرص الناس على الاجتماع والاستعداد ، وركب هو والمشايخ الى بيت محمد علي ، ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية ، والكل بالأسلحة والعصى والنبابيت ، ولأزمو السهر بالليل فى

الشوارع والحارات ويسرحون أحزابا وطوائف ، ومعهم المشاعل ويطوفون بالجهات والنواحي وجهات السور ٤٠ ، (١) وأصبحت المواكب الشعبية الثائرة وعلى رأسها عمر مكرم وتحركاتها الصاخبة في شوارع القاهرة من الأزهر الى الأزبكية فالقلعة منظرا مألوفاً وقتذاك وامت القاهرة موجة ثورية حتى ان دروفتي Drovetti قنصل فرنسام العام في مصر قرر أن هياج الشعب في القاهرة قد أعاد الى ذاكرته صورة الأيام المجيدة التي شهدتها باريس في مطلع الثورة الفرنسية (٢) أما مانجا الدبلوماسي والمؤرخ الفرنسي فيقول : ان المظاهرات الحربية التي كان يقوم بها عمر مكرم مجتازا أحياء القاهرة وما أبداه الشعب المصري من روح القوة والتحدى كان لها أثرها في نفوس جنود خورشيد فانكمشوا أمام هذه المظاهرات (٣) .

وأراد خورشيد أن يستعين بالقاضي التركي في الحصول على مرتبه فبعث اليه كي يرسل له مرتبه ومرتبات الجنود المرابطين معه في القلعة الى أن ترسل الآستانة خطابا تحسم به الموقف . وأخذ خورشيد يدافع في خطابه عن موقفه ، فقال ان اقامته في القلعة لا تنطوي على اضرار بالرعية أو خراب البلاد . وقد رد القاضي التركي عليه ، فقال عن المرتبات انه سبق أن تناولها أثناء توليه الحكم . أما من حيث رفضه مغادرة القلعة فقال له القاضي : « فان اقامتكم بالقلعة هو عين الضرر ، فانه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة وطلبون نزولكم أو محاربتكم ، فلا يمكن دفع قيام هذا الجمهور . وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام » . في ليلة ٢٤ من مايو ١٨٠٥ قام جنود خورشيد بهجوم مفاجيء

(١) الجبرتي ، ج ٣ ص ٣٣٠

(2) Shafik Ghorbal. The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. London. 1928 p. 227

(3) Mengin , ouvr cit. , t I , p 164

على متاريس الثوار وتبادل الفريقان إطلاق النيران . واستطاع
الثوار أن يردوا جنود خورشيد الى القلعة خاسرين . ولجأ خورشيد
الى الخديعة ففي صبيحة هذا الهجوم الفاشل نزل عمر بك الأرنوودى
من القلعة وأطلق شائعة تقول ان خورشيد باشا قد آثر التسليم
ومغادرة القلعة . ولم تكن هذه الشائعة الا خدعة حتى يهدأ الشعب
الناثر من ناحية ، لينزل أنصار خورشيد من القلعة الى المدينة
كى يتزودوا بالمواد الغذائية من ناحية ثانية ، وليتصل عمر بك
الأرنوودى بزعيم الثورة السيد عمر مكرم كى يتباحث معه ويسبر
غوره من ناحية ثالثة .

وقد لازم الشعب المرابطة فى مواقعه « والأمر مستمر من
اجتماع الناس وسهرهم وطوافهم بالليل واتخاذهم الأسلحة
والنبايت » .

حوار مشير بين عمر مكرم وأحد أنصار خورشيد :

وفى ٢٥ من مايو ١٨٠٥ تمت مقابلة هامة بين السيد عمر
مكرم وبين عمر بك الأرنوودى وهو كما سبق أن ذكرنا من مؤيدى
خورشيد ومن خاصة مستشاريه . وتمت المقابلة فى منزل حسن
باشا ودار بينهما حديث طويل حول حق الشعب فى عزل الحاكم
الظالم ومحاربته . وأظهر عمر بك الألبانى حنقه الشديد على الشعب
المصرى لأنه - فى نظر هذا الألبانى - قد تجاوز حدوده وأعلن عزل
خورشيد متحديا فى ذلك ارادة السلطان الذى أصدر مرسوما
بتعيينه واليا على مصر . وجرى الحديث على النحو الآتى :

عمر بك الألبانى :

كيف تعزلون من ولاء السلطان عليكم ؟ وقد
قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا
الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

السيد عمر مكرم:

أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة
والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وجرت
العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون
الولاة ، وهذا شيء من زمان ، حتى الخليفة
والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه
ويخلعونهم .

عمر بك الألباني:

وكيف تحصرونا ، وتمنعون عنا الماء والاكل،
وتقاتلوننا ؟ نحن كفرة حتى تفعلوا معنا
ذلك ؟

السيد عمر مكرم:

نعم ، قد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم
ومحاربتكم لأنكم عصاة .

عمر بك الألباني:

ان القاضي هذا كافر .

السيد عمر مكرم: اذا كان قاضيكم كافرا فكيف بكم ؟ وحاشاه الله
من ذلك ، انه رجل شرعى لا يميل عن الحق .
وانفض المجلس ولم يتحول عمر بك الألباني « عن الخلاف
والعناد » (١) .

عمر مكرم طليعة الأحرار المسلمين في القرن التاسع عشر :

يعتبر هذا الموقف من المواقف الرائعة التي حفلت بها حياة
عمر مكرم فقد دل في هذا الحوار على أنه زعيم متفتح الذهن صادق
الفهم قوى الارادة عميق الايمان بعدالة قضية الشعب ، شديد

(١) انظر نص الحديث في الجبرتي ج ٣ ص ٣٣١ .

التمسك بالمبادئ يفهمها حق فهمها ويرعاها حق رعايتها مستعدا للبذل والتضحية في سبيلها . وقد تجلت شجاعته وصرامته في الحق حين قرر بصريح العبارة في حوارهِ المثير وجوب عزل السلطان نفسه اذا حاد عن العدل . ولا شك أن الزعيم ، وهو يدلي بهذا التصريح الخطير ، كان يستند الى ركن ركين هو الحكم الالهي الأزلي الذي ورد في القرآن الكريم ، الكتاب الخالد . « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتاهن . قال : انى جاعلك للناس اماما . قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين . » (١) فالامامة والقيادة والرياسة ممنوعة على الظالمين الذين يتجاوزون حدود الله وينحرفون عن تعاليمه . والعدالة بكل معانيها هي شرط أساسي لاستحقاق الامامة في أية صورة من صورها . والحاكم أيا كان لقبه اذا ركن الى الظلم فقد جرد نفسه من حق الامامة وأسقط حقه فيها . وما كان لمثل عمر مكرم - وهو من نعرف على حظ موقور من الثقافة الدينية العميقة تلقاها في رحاب الأزهر - أن يغيب عن ذهنه المتفتح ما استقر عليه رأى فقهاء المسلمين في شروط الامامة وفي موقف الرعية من الحاكم اذا أخل بواجباته . وها هو الماوردي الملقب «بأقضى القضاة» والذي عاش في أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس للهجرة يعقد فصلا في « الشروط المعتبرة في أهل الامامة » ويذكر أن هذه الشروط سبعة أولها « العدالة على شروطها الجامعة » (٢) ويعقد الماوردي فصلا آخر يحدد فيه واجبات الحاكم وعلى رأسها تنفيذ الأحكام الشرعية واقامة العدل وبعد أن يعدد هذه الواجبات وعددها عشرة ويشرحها يقول مانصه : « واذا قام الامام بما ذكرناه من حقوق الأمة فقد أدى حق الله تعالى

(١) سورة البقرة : ١٢٤ .

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري البغدادي الماوردي : الاحكام السلطانية والولايات الدينية جمع بين المسائل الشرعية والسياسية : الناصر المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) ص ٤ .

فيما لهم ، وعليهم ، ووجب له عليهم حقان : الطاعة والنصرة
مالم يتغير حاله » (١) ويلاحظ أن الماوردي قد استهل هذه العبارة
بأداة الشرط « اذا » أى أن الطاعة والنصرة لا نجبان على الرعية
للمحاكم الا اذا نهض الأخير بالواجبات المفروضة عليه ، فاذا أهمل
فلا طاعة ولا نصرة .

وهناك ملاحظة هامة أخرى فى الحوار الذى دار بين عمر مكرم
وبين عمر بك الألبانى ، وسوف نتعرض لشرحها فى شىء من
التفصيل فى موطن قادم ، لم يكن عمر مكرم ينشد سوى الحاكم
العادل ، ولم يجز على لسانه قط فى هذا الحديث أو فى غيره عبارة
الحرية أو الاستقلال عن دولة الاسلام الكبرى ، فهو الزعيم
ذو النزعة الاسلامية لا يكاد يرى الأمان الا فى ظل سلطان
المسلمين ، ولم يكن يترامى فكره السياسى الى الآفاق والمفاهيم
التي تزدهم بها أغنثة الثوار المناضلين فى أيامنا هذه . والحق أن
الوجدان الدينى والفكر السياسى كانا يتلاحمان بعضهما مع بعض
فى نفس الزعيم عمر مكرم : فهو يردد فى حديثه مع عمر بك
الألبانى نظرية اسلامية سياسية هامة هى حق الشعب فى عزل
حكامه اذا أساءوا الحكم ، وهو يصر على نقل هذه النظرية الى مجال
التطبيق العملى . وكان ترديد هذه النظرية والاصرار على تطبيقها
فى ذلك الوقت المبكر من القرن التاسع عشر ظاهرتين هامتين فى
تاريخ الفكر السياسى فى مصر . لقد كان هذا الزعيم العربى المصرى
هو بلا منازع طليعة الأحرار المسلمين فى القرن التاسع عشر وأول
بشائر البعث الجديد فى الشرق العربى الحديث .

عاد عمر بك الألبانى الى القلعة بعد حديثه مع عمر مكرم
واستؤنف القتال بعنف بعد أن كان قد تراخى بعض الشىء ثلاثة
أيام ، وشدد عمر مكرم فى حصار القلعة . ويصف الجبرتنى الدور

(١) المصدر السابق ص ١٥ .

القيادى الذى اضطلع به الزعيم عمر مكرم فى هذه المرحلة من مراحل المقاومة الشعبية فيقول : « وفى يوم الاثنين (٢٦ من مايو ١٨٠٥) ركب السيد عمر وصحبته الوجاقلية وأمامه الناس بالأسلحة والعدد والأجناد وأهل خان الخليلى والمغاربة شئ كثير جدا ومعهم بيارق ، ولهم جلبة وازدحام بحيث كان أولهم بالموسكى وآخرهم جهة الأزهر ٠٠٠ ورجع السيد عمر الى منزله وأخذ فى أسباب الاحاطة بالقلعة كالأول ، وذلك بعد العشاء ليلة الثلاثاء ، ووقع الاهتمام فى صباحها بذلك ، وجمعوا الفعلة والعربجية وشرعوا فى طلوع طائفة من العسكر والعرب وغيرهم الى الجبل ، وأصعدوا مدافع ورتبوا عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز ، وروايا الماء تطلع وتنزل فى كل يوم مرتين ، وطلع اليهم الكثير من باعة الخبز والكعك والقهاوى وغير ذلك » (١) وهكذا أصبح الشعب يعيش فى ثورة ألف مظاهرها وحياتها وأحداثها .

ومن الانصاف أن نذكر أن جهود الشعب قد فاقت بكثير جهود الجنود اللبنانيين فى قتال خورشيد اذ تجلت فى الشعب فى هذه الفترة روح البذل والتصميم على بلوغ الهدف ، وأبدى سكان الحسينية والصليبة والرميلة والقرافة وغيرها من جهات القاهرة شجاعة مثالية، فكان المقاتلون منهم يصعدون الى منارة مسجد السلطان حسن وهو على مقربة من القلعة ويرمون بقذائفهم على جنود خورشيد فيها . كما كونوا من أنفسهم فرقا تتناوب السهر طوال الليل فى المواقع التى يحتلونها خشية أن يداهمهم جنود خورشيد فى ظلمة الليل . وكان عمر مكرم يمر على هذه المواقع فى العشى والابكار يثير فيهم الحماس وليكونوا على أهبة الاستعداد لرد أى عدوان غادر . يقول أحد المؤرخين والسياسيين الفرنسيين الذين عاصروا هذه الثورة الشعبية ولمسوا الدور القيادى لعمر مكرم فيها « كان من الصعب

(١) الجبرتنى ج ٣ ص ٣٣٢ .

أن يسود النظام وتنسق التدابير المحكمة بين الجنود الذين اعتادوا حياة الفوضى وبين الأهالي الذين لم يألّفوا من قبل حركات القتال ومشقاته ، ولكن سد عمر مكرم هذا النقص من جميع النواحي بهمته ونشاطه وشجاعته ، فكان دائما دائب العمل واليقظة ، يحرك الجموع ويرتب مواقعهم ، ويبعث الحمية في نفوسهم ، ويشعل في كل لحظة نار الحماسة كلما خمدت جذوتها أو دب اليها دبيب الفتور . (١)

وإذا كان جنود محمد علي قد اشتركوا مع المصريين في حصار القلعة وخصصت لكل من الفريقين مواقع معينة يرابطون فيها ، فإن الجبرتي يذكر ملاحظتين لاذعتين تكشفان عن دور الجنود الالبانيين في النضال الشعبي المسلح فاذا هو دور لا يشرف رجالا اتخذوا الجندية مهنة لهم ، وهو في نفس الوقت صفحة مجد وفخار للشعب المصري المناضل في سبيل كرامته . قرر الجبرتي أن جنود محمد علي كانوا يحاربون بفتور الى جانب المصريين لأنهم وضعوا في اعتبارهم الأول أن غالبية الجنود الذين مع خورشيد كانوا من جنسهم ولذلك لم يشسّدوا عليهم في القتال . وذكر الجبرتي أن الجنود الالمانيين طالبوا بمرتباتهم فاستمهلهم محمد علي حتى يدعن خورشيد ويغادر القلعة ويضع محمد علي يده على خزائن الحكومة فرفض الجنود وغادروا مواقعهم ، فما كان من الشعب الثائر الا أن ذهب الى هذه المواقع واحتلها ليسد الفراغ الذي تركه الجنود الالبانيون بهروبهم من الميدان . وفي هذا يقول الجبرتي « في ليلة الثلاثاء سادس ربيع أول ١٢٢٠ (٤ من يونيو ١٨٠٥) تحرك العسكر وطلبوا العلوفة من محمد علي ، فقال لهم ليس لكم عندي علوفة حتى ينزل أحمد باشا (خورشيد) من القلعة ونحاسبه وتأخذون علائفكم منه ، فلم يمتثلوا وتركوا المتاريس التي حوالى القلعة فتفرقوا وذهبوا ،

فذهب جماعة من الرعية وتترسوا في مواقعهم ، وهكذا وقع على المصريين وحدهم منذ اوائل شهر يونيو ١٨٠٥ عبء حصار القلعة وكانوا يتلقون الاوامر من عمر مكرم الذى أصبح الزعيم والقائد . وكان يشرف على عمليات تموين الثوار وتقديم المعونات لعائلات المحاربين الذين انقطعوا عن أعمالهم وظلوا فى أماكنهم وراء المتاريس مصبحين وممسين وفيما بين ذلك من آناء الليل وأطراف النهار .

احتكاك بين المصريين والألبانيين :

ولم يكتف جنود محمد على بالتقاعس عن القتال فحسب بل انطلقوا ينهبون الاموال من الشعب استيفاء للمرتبات التى عجز محمد على عن دفعها لهم . فانتهزوا فرصة انصراف الجماهير الى محاصرة القلعة والمراقبة فى المتاريس وهاجموا منازل المصريين ينهبون ويسفكون الدماء ويرتكبون الآثام . ووقعت مناوشات بين الجماهير والجنود الالبانيين سقط فيها قتلى من الفريقين . وأطلقت الفتنة برأسها ، وزاد من استفحالها امعان الالبانيين فى سياساتهم العدائية ثم عبارات مثيرة كان يرددها الرؤساء الالبانيون تحريضا للجنود على قتل المصريين فكانوا « يقولون لهم بلسانهم (أى باللغة التركية) وبالعربى اضربوا الفلاحين ونحو ذلك ، وبالجمله فهى قضية مشكلة بين أوباش مختلفة وطباع معوجة منحرفة . ، وبلغ من بلبلة الافكار واضطراب النفوس أن مضت ليالى المولد النبوى الشريف دون أن يقام حفل واحد . وشرع المصريون يقيمون متاريس أخرى فى الشوارع المؤدية الى الازهر ، وصعد الاولاد والنساء الى أسطح المنازل يقذفون الجنود بالحجارة وانصرف الرجال الى قتال الالبانيين فقتلوا منهم ستين جنديا .

وبرز فى ذلك الوقت مصرى يسمى حجاج الحضرى تميز بالبطولة والفدائية والايفال فى ذبح الجنود الالبانيين الذين يعتدون على الشعب . وكان حجاج شيخا لطائفة الحضرية فى القاهرة ويفهم

فى حى الرملة بالقلعة واليه تنسب البوابة المعروفة ببوابة حجاج وتسمى أيضا بوابة الحلاء وهى على مقربة من مسجد السيد عائشة .
وكون من سكان هذا الحى فرقة من الرجال ذوى بأس شديد كانوا يأتمرون بأمره ويخضعون لتوجيهات زعيم الثورة عمر مكرم .
وسنلتقى فى مواطن أخرى من هذا البحث بهذه الشخصية التى لم تلق تقديرا فى تاريخ مصر القومى وكان جزاؤها فى نهاية المطاف الشنق فى أغسطس ١٨١٧ بأمر محمد على بعد أن وطد أركان حكمه وقد أشاد الجبرتى فى مواضع كثيرة بمواقف حجاج الخضرى وبطولته وشجاعته (١) .

تدخل عمر مكرم لوقف الاحتكاك :

وابتهج خورشيد بوقوع هذه الفتنة بين الشعب وبين جنود محمد على حتى تنخرف الثورة عن أهدافها النبيلة وقد سعى محمد على الى عمر مكرم فى منزله يرجوه مطالبة الجماهير بالكف عن الاعتداء على جنوده وأعلن محمد على أن كل جندى يعتدى على أحد من الأهلين يضرب عنقه فوراً . وهنا يبرز فضل آخر لعمر مكرم . فتدخل لحسم الموقف تدخلا يقوم على الحذر والتيقظ ومسالة الجنود المسلمين وضرب الجنود المعتدين مع الاستمرار فى محاربة خورشيد . وأطلق عمر مكرم المنادين فى شوارع القاهرة يعلنون « حسبما رسم السيد عمر أفندى والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ويحترسوا فى أماكنهم وأخطاطهم ، وإذا تعرض لهم عسكري بأذية قابلوه بمثلها ، والا فلا يتعرضوا له » ويتضح من منطوق هذا النداء أن سلطة الحكم فى أيام الثورة الشعبية قد انتقلت الى عمر مكرم

(١) أنظر بنصوص حجاج الخضرى :

الجبرلى ج ٣ ص ٣٣٢ ، ٣٣٤ - ٣٣٧ ، ٢٤١ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ . ج ٤ ص ٢٧٩ .
وانظر أيضا محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ٢ ص ١١٣ - ١١٦ .

والعلماء وأن عمر مكرم كان المرجع لحل المشكلات التي تزاومت في تلك الأيام المجيدة ، وكان محمد علي يعرف أن عمر مكرم هو عماد الثورة وأن الجماهير تستجيب لتوجيهاته ، فكان يتردد على دار عمر مكرم متوددا اليه .

والواقع أن عمر مكرم كان ، بفضل ما أوتيته من شجاعة واقدام ونشاط ، أعظم نفوذا على سكان القاهرة من سائر الزعماء والمشايخ . وقد جاء في النشرة الاخبارية التي أذاعها الوكلاء الفرنسيون من القاهرة بتاريخ ٧ من يونيو ١٨٠٥ أن السكان الذين استجابوا لنداء عمر مكرم وحملوا السلاح واشتركوا في أحداث الثورة قد بلغ عددهم أربعين ألفا ، قالوا عنهم انهم يطيعون السيد عمر مكرم طاعة عمياء وينفذون أوامره بحذافيرها حتى غدا عمر مكرم زعيم القاهرة كلها (١) .

وتنفيذا لأوامر عمر مكرم شرع القاهريون يقيمون المتاريس عند رموس الشوارع لصد أى هجوم قد يقوم به جنود محمد علي لنهب أموال الشعب .

وأراد خورشيد أن يعزز مركزه في هذا الوقت العصيب فاستنجد بالجنود الدلاة - وكانوا في قليوب - فأرسل اليهم « يطلبهم للحضور ويذكر لهم أنه يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة واقامة لناموسها وناموس الدين ، وأن الفلاحين محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشرب » ، فما كان من رؤساء الدلاة الا أن أرسلوا هذا الخطاب الى محمد علي الذي أرسله بدوره الى السيد عمر مكرم ، أما محمد فقد أظهر تقديره لموقف الدلاة ، فلما حضر رؤساؤهم الى القاهرة خلع عليهم محمد على الخلع والكساوى وعادوا الى قليوب ليرتحلوا منها لمحاربة الألفى ، ولكنهم انصرفوا عن محاربته « وأفحشوا في نهب البلاد ونهب الأموال مالم يسمع بمثله ولم يتقدم نظيره » .

(١) وثيقة رقم ٢٧ . Douin G., Mohamed Aly Pacha du Caire 1805-1807

وكان خورشيد قد استدعى على باشا السلحدار قائد الجيش العثماني من المنيا فبلغ مشارف القاهرة وعسكر بجيشه في مصر القديمة ، وعمل على استمالة الجنود الالبانيين حتى انضموا الى خورشيد ووعدهم بدفع مرتباتهم المتأخرة فانضم اليه كثير منهم . وتمت اتصالات سرية بينه وبين خورشيد المحاصر في القلعة . وكان يرسل اليه الخبز واللحوم والسكر والذخائر تنقلها الجمال من باب صغير فتحوه من ناحية عرب اليسار ، وفي خلال هذه الاتصالات السرية تم الاتفاق بين خورشيد باشا وعلى باشا السلحدار على أن يقوم كل منهما في وقت واحد بهجوم مفاجيء على مواقع المصريين فتنهار مقاومتهم وتصبح الثورة أثرا بعد عين .

عمر مكرم يفسد مكيدة حربية

ودبر على باشا سلحدار خورشيد مكيدة حربية كي يضمّن نجاح هذا التدبير فعهد الى اثنين من كبار قواده - رجب أغا وسليمان أغا - بأن يكتبوا خطابا الى عمر مكرم وباقي المشايخ ذكرا فيه أنهما يعتزمان الحضور الى القلعة لاقتناع خورشيد بالكف عن المقاومة وانهاء هذا النزاع المستعمر ، وطلبا الى عمر مكرم أن يصدر أوامره الى المصريين المرابطين في المتاريس وسائر النواحي باخلاء الطريق لهما وألا يتعرض أحد منهم لهما بسوء . وارتاب عمر مكرم في حقيقة أهداف هذين القائدين من ارسال هذا الخطاب واشتم منه الخدعة . وما لبث أن تحقق حدسه اذ حضر اليه بعد الفجر رجل مخلص وأطلعه على ما بيته القائدان . فأرسل عمر مكرم نداء عاجلا الى الثوار يأمرهم بالتيقظ والاستعداد وعدم مبارحة مواقعهم ، ولم يمض وقت طويل حتى شاهد الثوار قافلة تتكون من ستين جملا تجدد في سيرها وتحمل الذخائر من جيش على باشا السلحدار فخرج اليها حجاج الحضري ومعه أهالي الرميلة واستولوا على القافلة وقتلوا جنديين وأسروا ثلاثة وفر الباقون . وحضر الثوار بالأسرى ورأس القتيلين الى منزل عمر مكرم فأرسلهم الى محمد علي الذي أمر بقتل

الأسرى ، وفي نفس الوقت أخذت حامية القلعة تقذف المدينة بقنابل مدافعها وترميها بأدوات حارقة ورد عليهم الثوار . واستمر الضرب متبادلا بين الفريقين مدة أسبوع وركزت حامية القلعة قذائفها على حي الأزهر والأزبكية حيث منزل محمد علي ووقعت خسائر في الأرواح والممتلكات ، وجدير بالذكر أن الجبرتي قرر أن الرعب لم يعرف طريقه إلى قلوب المصريين ، لأنهم اعتادوا سماع قصف المدافع ومشاهدة القنابل وهي تتساقط عليهم من أيام الفرنسيين ، ولذلك ظلت روح الثوار عالية ولم يتزحزحوا عن مواقعهم وضيقوا الحصار على جنود خورشيد حتى ضاقت عليهم أرض القلعة بما رحبت وتصدى الثوار للمحاولات المتكررة التي قام بها جنود خورشيد للتسلل إلى المدينة من أجل الحصول على ماء الشرب ومواد التموين ، وأجبروهم في كل مرة على الارتداد على أعقابهم إلى القلعة فاشلين .

ومنذ ١٣ يونيو كانت مدافع القلعة تلقى قنابلها صوب الجهات التي توجد بها دار السيد عمر مكرم والشيخ السادات ومحمد علي (١) وأرسل وكيل محمد علي إلى السيد عمر مكرم يقترح عليه نقل مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون - وهي إحدى القلاع التي أنشأها الفرنسيون بالقاهرة - وتركيب هذا المدفع عند باب الوزير لضرب القلعة ، لأن قذائف هذا المدفع أشد فتكا من المدافع التي كان يستعملها الثوار وأرسل عمر مكرم الحمالين الذين استخدموا الأبقار في سحب هذا المدفع الضخم واستغرقت عملية نقله يومين . ولما تم تركيبه واعداده استخدمه الثوار في ضرب القلعة وشعرت حاميتها بشدة قذائفه وفتكه . فنزلت قوة من جنود خورشيد من القلعة تريد تدميره أو سد فلوله فضرب المصريون على أفراد القوة وقتلوا قائدها ومعه آخر وأخذوا أسلحتهما ورأسيهما وذهبوا بها إلى السيد عمر مكرم جريا على العرف السائد وقتذاك .

(١) وثيقة رقم ٤١ في Douin G., Mohamed Aly, ouvr. cit.,

الفصل التاسع

انتصار الشعب وترحيل خورشيد

عمر مكرم يفوت على محمد الألفى فرصة دخول القاهرة

وبجانب الدور القيادى الذى قام به عمر مكرم فى توجيه النضال الشعبى المسلح لتأييد الثورة نجد أنه أدى أيضا دورا سياسيا تعددت صورته ومظاهره مستهدفا نفس الغرض . كان محمد الألفى بك قد زحف بقواته نحو القاهرة حين ترامت اليه أنباء الثورة واستقر فى المنصورية قرب الاهرام ، وأرسل خطابا الى كل من عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى ومحمد على يطلب جهة يستقر فيها مع أتباعه ، فأشاروا عليه بأن يختار مكانا « يرتاح فيه ، الى أن تهدأ العاصفة ، وقد استقر فى جهة « الطرانة » (١) يترقب الأحداث ويتحفظ للتدخل .

كان فى استطاعة الألفى وهو أكبر وأقدر الأمراء المماليك أن يحتل القاهرة فى ذلك الوقت العصيب وأن يحقق لنفسه مغنما . وكان عمر مكرم يدرك على ضوء التجارب المريرة أن عودة المماليك لحكم البلاد معناها عودة الفوضى واشتداد المظالم على الشعب الكادح ، وكان عمر مكرم فى ذلك الوقت مطمئنا الى وعود محمد على له بالتزام العادل وتوفير الأمن للجماهير والرجوع الى الزعماء فى

(١) الطرانة تقع على الشاطئ الغربى لفرع رشيد على مقربة من وادى النطرون وتبعد عن القاهرة أربعين ميلا . على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١١

مشكلات الحكم ، ولذلك اتجه تفكير عمر مكرم الى صرف الألفى عن القيام بأية محاولة عسكرية حتى لا يزداد الموقف تعقيدا ، فأكثر من الكتابة اليه في هذه الفترة وأدخل في روعه أن الثورة المندلعة في القاهرة لا تستهدف شيئا سوى مصلحة الألفى فهي تعمل جاهدة لاجراج جنود خورشيد ، وقد نعتهم عمر مكرم بأنهم سفلة القوم ، وعند ما يتم طردهم يصبح الطريق ممهدا أمام الألفى لدخول القاهرة وتولى زمام الحكم ، وأضاف عمر مكرم أنه يتوسم في الألفى الخير والعدل والصلاح . وقد آمن الألفى بهذا الكلام وكان يرسل الى عمر مكرم الأموال لينفقها على المقاتلين . وهكذا نجح عمر مكرم في تعويق الألفى عن القيام بأى اجراء عسكرى كان من المحتمل أن يعصف بالثورة .

عمر مكرم ينظم استقبالا شعبيا لمندوب السلطان

ومن مظاهر الدور السياسى الذى قام به عمر مكرم لانجاح الثورة انه نظم استقبالا شعبيا لمندوب السلطان ، فقد تلقت القاهرة فى ٢٩ من يونيو ١٨٠٥ أنباء بوصول قابجى (١) هو صالح أغا ال الاسكندرية « وعلى يده جوابات بالراحة ، وفسرها عمر مكرم والزعماء بأنها مرسوم من السلطان بعزل خورشيد وتعيين محمد على واليا على مصر ، وهو تفسير لم يكن يحمل الحقيقة كلها كما سنرى بعد قليل . وتناقلت الجماهير هذه الأنباء وغمرت بها موجة من الابتهاج واعتبرت قدوم مندوب السلطان ومعه مثل هذا المرسوم نصرا لارادة الشعب وانهاء لحالة الحرب القائمة . » فحصلت ضجة فى الناس وفرحوا ورمحوا بطول ذلك اليوم وعملوا شنكا تلك الليلة التى هى

(١) القابجى ضابط موفد فى مهمة رسمية من قبل رئيس الدولة ، ويقدم عن طريق البحر . أما اذا حضر عن طريق البر مارا ببلاد الشام فيطلق عليه طبرى .

ليلة السبت (٢٩ - ٣٠ من يونيو ١٨٠٥) ورموا سوارىخ فى سائر النواحي وضربوا بنادق وقرابين بالازبكية وخارج باب الفتوح وباب النصر والمدافع التى على أبراج الابواب ، ولما سمع خورشيد وجنوده فى القلعة وعلى باشا السلحدار وجنوده فى مصر القديمة هذه الطلقات فسروها تفسيراً يتمشى مع آمالهم ، فظنوا أن الفتنة قد أطلت برأسها من جديد وأن الحرب قد استؤنفت بين المصريين وبين جنود محمد على ، فأطلقت مدفعية القلعة قنابلها كما تحرك على باشا بقواته من مصر القديمة . وقد تصدى للأخير سكان الرميلة بقيادة حجاج الحضري وتبادلوا إطلاق النيران وكان عمر مكرم قد خف الى حجاج ، وانتهت هذه المعركة بهزيمة السلحدار وانسحابه بجنوده .

سافر مندوب السلطان من الاسكندرية الى رشيد ليعبر منها فى النيل الى القاهرة ، وكان قد قدم معه من الآستانة سلحدار الصدر الاعظم . وأعد عمر مكرم ترتيبات واسعة لاستقبال مندوب السلطان استقبالا شعبيا حافلا حتى يقف المندوب السلطاني عن كذب على مدى اتساع الثورة الشعبية واصرار الجماهير على عزل خورشيد من منصبه وتعيين محمد على مكانه . وكانت الترتيبات التى وضعت على النسق الآتى :

أولا : تخرج القاهرة على بكرة أبيها رجالها وسميدياتها وصبيانها للترحيب به .

ثانيا : يجتمع المشايخ والاعيان فى دار محمد على حيث يتجه المندوب السلطاني اليه وحيث تنتهى عند هذه الدار مسيرة المواكب الشعبية .

ثالثا : يظل احمد خورشيد باشا حبيس القلعة .

وتنفذا لهذه الترتيبات أرسل محمد على جنودا لحراسة مندوب السلطان فى سفره خوفا من تعرض الممالك أو العربان أو الجنود الدلاة له فى الطريق ، كما « سافر جماعة من المتعممين هم

السيد محمد الدواخلى وابن الشيخ الأمير والشيخ بدوى الهيتمى وابن الشيخ العروسى لاستقباله خارج القاهرة واصطحابه . ، اما السيد عمر مكرم فقد أرسل باشجاويش نقابة الاشراف نيابة عنه .

وفى الصباح الباكر لليوم المحدد لوصوله وهو ٩ من يوليو ١٨٠٥ خرج العامة زرافات ووحدانا ووقفوا على جانبي الشوارع وتحت السقائف ، وخرجت جماعات منهم خارج باب النصر وباب الفتوح ، يحمل بعضهم البنادق ويحمل البعض الآخر الطبول ، وازدحمت بهم الطرقات ازدحاما شديدا كأنهم جراد منتشر ، ووصل مندوب السلطان وسلحدار الصدر الاعظم الى زاوية الدمرداش حيث تخلفا لتناول طعام الافطار واحتساء القهوة ، ثم ركبا وبدأت مسيرة مواكب الطوائف بأعلامها وشاراتها وطبولها ، يتقدمها وكيل محمد على وكبار الضباط الالبانيين والجنود ، ثم أهالى بولاق ومصر القديمة وسكان نواحي باب الشعرية والحسينية وخط الخليفة ، والقراطين والرميلة والخطابة والحباله ، وعلى رأس هذه الحشود الشعبية حجاج الحضري وبيده سيف مسلول ومعه ابن شمع شيوخ الجزارين ، ثم حملة الطبول والزمور . واستمر مرور هذا الموكب ثلاث ساعات حتى توقف عند دار محمد على فى الازبكية . وكان المشايخ والاعيان مجتمعين فى احدى قاعات الدار فحفوا لاستقبال الوافدين الكبارين . وبعد استراحة قصيرة قرىء المرسوم الذى يحمله المندوب السلطاني « ومضمونه الخطاب لمحمد على باشا والى جده سابقا ووالى مصر حالا ابتداء من عشرين ربيع أول ١٢٢٠ (١٨ من يونيو ١٨٠٥) حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن احمد باشا معزول عن مصر ، وأن يتوجه الى الاسكندرية بالاعزاز والاکرام حتى يأتيه الامر بالتوجه الى بعض الولايات . » وأفردوا للمندوب السلطاني دار أحد كبار التجار فى حي الازبكية ، كما نزل سلحدار الصدر الاعظم فى دار

محمد المحروقي . وفى اليوم التالى « ركب عمر مكرم فى جمع كثير من العسكر من أولاد البلد والمغاربة والصعائدة والكل بالأسلحة » وذهب الى دار محمد على حيث قضى معه بعض الوقت . ثم قصده الى حيث يقيم كل من المندوب السلطانى وسلحدار الصدر الاعظم للتحية .

المندوب السلطانى يحمل مرسومين متناقضين :

كان الترتيب الحافل الذى نظمه عمر مكرم لاستقبال مندوب السلطان سببا فى رجحان كفة محمد على ، اذ كان صالح أغا مندوب السلطان - كما تجمع الوثائق الانجليزية والفرنسية - يحمل معه مرسومين مختلفين تماما . كان المرسوم الأول يقضى بتثبيت خورشيد فى منصبه واخراج محمد على من مصر . وكان المرسوم الثانى ينص على تعيين محمد على واليا على مصر ونقل خورشيد منها الى منصب آخر يحدد فيما بعد . وترك الباب العالى للمندوب السلطانى أن يبرز أحد المرسومين على ضوء تقديره للموقف فى مصر . ويقول ميسر Misset قنصل بريطانيا العام ان صالح أغا قد تسرع فى السفر الى القاهرة ، وبذلك وضع نفسه تحت نفوذ محمد على والاهالى الذين كان خمسة عشر ألفا منهم مسلحين بالبنادق وثلاثون ألفا مسلحين بالنبابيت ، فلم يجد صالح أغا مندوحة عن أن يقدم لديوان القاهرة المرسوم الذى فى صالح محمد على .

ولما أرسلت فى ١١ من يوليو ١٨٠٥ الى أحمد خورشيد صورة المرسوم الذى أبرزه صالح أغا رفض الاذعان وامتنع عن مغادرة القلعة وقال « أنا متول بخطوط شريفة وأوامر منيفة ، ولا أنعزل بورقة مثل هذه . وطلب الاجتماع بصالح أغا والسلحدار يخاطبهم مشافهة ، وينظر فى كلامهم وكيفية مجيئهم ، فلم يرضوا بطلوع

المذكورين اليه . (١) وقرر خورشيد أنه لم يتلق ردا على المكاتبات الرسمية التي أرسلها الى الباب العالي في الآستانة بخصوص الموقف الداخلى فى مصر . والواقع أن خورشيد استهدف من هذا الرفض كسب الوقت ريثما يتسنى له الوصول الى اتفاق مع الامراء المماليك على القيام بهجوم مشترك متعدد الجبهات على القاهرة لاختفاء الحركة الشعبية وطرد محمد على كلية من القاهرة بل من مصر . ولما كان خورشيد معتصما بالقلعة وكان يتعذر عليه الاتصال برؤساء المماليك فقد عهد بهذه المهمة الى على باشا السلحدار وكان مرابطا بجيشه فى الجيزة . (٢)

الخلاف بين عمر مكرم وبين شيخ الازهر :

وفى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل الثورة وقع انقسام خطير فى الراى بين السيد عمر مكرم من ناحية وبين الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الازهر والشيخ محمد الأمير وغالب المتعممين من ناحية ثانية . وما كان ينبغى أن يقع هذا الانقسام لو تذرع الآخرون بقسط قليل من الأناة والمصابرة وبعد النظر ، ولكنهم تعجلوا الامور وظنوا أنها استقرت بصدور المرسوم السلطاني بخلع خورشيد وتعيين محمد على واليا على مصر ، وأنه تأسيسا على ذلك يجب على الشعب أن يلقي السلاح ويستأنف حياته العادية وأن تفتح الحوانيت وتغشى الأسواق وتستأنف الدراسة فى الازهر . أما انزال خورشيد من القلعة وحمله على احترام مرسوم السلطان فأمر يختص به الوالى الجديد محمد على ينفذه بالصورة التى يراها مناسبة

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٣٧ .

(٢) وثيقة رقم ٥٤ مؤرخة فى ١٥ يوليو ١٨٠٥ فى

Douin Mohamed Aly, Pacha du Caire , ouvr. cit., pp. 58-59

بدون اشراك الشعب فى محاربة الوالى المعزول . ولكن كان لعمر مكرم رأى آخر على النقيض من ذلك تماما كان يرى أن تظل شعلة النضال متقدة لا تخمد فى نفوس أفراد الشعب ، لأن الموقف ازداد تعقيدا بل خطورة ، فالوالى العثمانى المعزول أحمد خورشيد مستميت فى التمسك بالبقاء فى منصبه ولا يرضى به بديلا . وقد ضرب بمرسوم السلطان عرض الحائط ، وبدأ فى صورة الوالى الثائر على السلطان ، وهو يعمل على كسب الوقت لتدعيم مركزه . كما كان يعلق أعذب الآمال على معاونة المماليك له بعد أن أصبحوا حلفاءه الجدد وزحفوا زحفا خاطفا من الصعيد عقب استدعاء خورشيد لعلى باشا السلحدار بجيشه من المنيا . وقد بلغ المماليك الجيزة وعبرت قوات منهم نهر النيل الى الضفة الشرقية ووصلوا الى طره وهدموا قلعتها « وساووها بالارض » وكان وصول المماليك نذيرا بانقلاب ميزان القوى لصالح خورشيد ، فقد أصبح لديه ثلاث قوات : القوة العسكرية بالقلعة ، وجيش على باشا السلحدار فى مصر القديمة والجيزة ، وقوات المماليك . وانساح الاخرون أيضا فى بلاد الوجه البحرى . وقد ينجح خورشيد بتعاون هذه القوات الثلاث وتنسيق الحُطط بينها فى سحق الثورة الشعبية والبقاء فى منصبه ويضطر السلطان الى التراجع وقبول الامر الواقع جريا على السوابق التى وقعت فى مصر من قبل . يضاف الى ذلك أن المماليك وجيش السلحدار قد فرضوا حصارا على القاهرة فامتنع وصول الاقوات اليها ، ولاح شبح المجاعة يتهدد المدينة . واستأنف الجنود الألبانيون والدلاة أعمال السلب والنهب والقتل . ولهذا رأى عمر مكرم أن يستمر الشعب شاهرا سلاحه ماضيا فى حصار خورشيد حصارا صارما بغية تصفية الموقف مع خورشيد تصفية حاسمة سريعة حتى لا يتعرض الشعب لمحن جديدة سواء على يد خورشيد أو المماليك .

نعود الى الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وغالب المتعممين

فنقول انهم لم يقنعوا بالمجساهرة برأيهم بل نقلوه الى محمد علي فاستجاب الى رغبتهم « وركب الاغا - محافظ القاهرة - وصحبه - بعض المتعممين ونادوا في المدينة بالامن والامان والبيع والشراء وأز الناس يتركون حمل الاسلحة بالنهار . واذا وقع من بعض العساكر قباحة رفعوا أمره الى محمد علي ، وان كان من الرعية رفعوه الى بيت السيد عمر النقيب ، واذا دخل الليل حملوا الاسلحة وسهروا في أخطائهم على العادة وتحفظوا على أماكنهم . » (١) وما ان سمع أفراد الشعب هذا النداء حتى استنكروا ما جاء به ورموا المشايخ بالجبن وقصر النظر وتساءلوا عن معنى هذا النداء ، وقالوا مستنكرين « اننا حينئذ نصير طعمة للعسكر بالنهار وغفراء بالليل ، والله لا نترك حمل أسلحتنا ، ولا نمثل لهذا الكلام ولا هذا النداء . » وهكذا تكشفت في الشعب المصري في أوقات الشدائد صلابة في عزيمة وقوة في أخلاقه وثقة في نفسه من أجل الحفاظ على كرامته فقد سلك الشعب بداية الطريق ولما اتضحت له الرؤيا صمم على الاندفاع بأقصى طاقاته لتحقيق هدفه مهما تكبد في هذا السبيل من مشقة وعناء وتضحيات .

وكان مما استرعى النظر استجابة محمد علي السريعة في تنفيذ رغبة فريق الزعماء الذين نادوا بتجريد الشعب من سلاحه . وليس من العسير تفسير موقف محمد علي . فعلى الرغم من أن مصلحته الشخصية كانت تقتضي إنهاء الأزمة بسرعة وترحيل خورشيد من مصر كلية ، فقد كان حريصا على نزع الاسلحة من الجماهير حتى لا تتأصل في نفوس أفراد الشعب روح القتال ، لأن حركات الكفاح الشعبى تلهب الشعور الوطنى وتشكل دعامة قوية من دعائم الحياة القومية في مصر . ومحمد علي لا يريد لهذه الحياة نماء ولا وجودا لأنه كان ينظر الى المدى البعيد حين يخلو له حكم مصر فيمضى في حكم الشعب

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٣٣٧ .

حكما استبداديا مطلقا ومطمئنا الى أنه لا يقابل بمثل هذه الروح ،
روح النضال والمعارضة . ولهذا أصدر محمد على الأوامر « ومر الأغا
ببعض العامة المتسلحين فقبض عليهم وأخذ سلاحهم ، فازدادوا قهرا ،
وباتوا على ذلك » وفي الصباح ذهبوا الى عمر مكرم وراجعوه في
مسألة القاء السلاح ، فكان صريحا معهم اذ كاشفهم بحقيقة الموقف ،
وقال لهم « ان هذا الأمر على غير مراده » ، وألقى التبعة على الشيخ
الشرقاوى والشيخ الأمير والمتعممين .

وعقد اجتماع كبير في دار عمر مكرم ضم العسكريين الألبانيين
وتداولوا في الموقف على ضوء المعلومات التي لديهم وهي أن خورشيد
يراسل المماليك سرا يبتغى الاستعانة بهم ، وقرروا المبادأة بانتهاء
مسألته بكل حزم وسرعة حتى يتفرغوا بعد ذلك لمحاربة المماليك .
ولكنهم رأوا أن يتيحوا لخورشيد فرصة أخيرة كي يراجع نفسه ويجنح
الى السلم ، فارسلوا اليه في القلعة يطلبون منه مغادرتها ، فاذا رفض
جدوا في قتاله .

وقد استجابت قلة من الأهلين لنداء المشايخ ففتحوا المحلات
وذهب المشايخ الى الجامع الازهر « وقرأوا بعض الدروس ففترت همم
الناس ورموا الأسلحة وأخذوا يسبون المشايخ ويشتمونهم لتخذيلهم
اياهم » ، وقد أثبتت الأحداث التي تتابعت سراعا أن عمر مكرم
كان على حق في موقفه ، فقد انتهز الجنود فرصة نزع السلاح من
الشعب وشمخوا بأنوفهم عليهم ، ثم عاودوا أعمال السلب والقتل ،
وضج الناس بالشكوى ، وذهبوا مرة أخرى الى السيد عمر مكرم
فأحالهم الى الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير « فهما اللذان أمرا
الناس برمي السلاح . فلما زادت الشكوى نادوا في الناس
بالعود الى حمل السلاح والتحذر » .

وخشى محمد على أن يدخل المماليك القاهرة بعد أن بلغوا المعادى
وطره ، فخرج في ١٦ من يوليو على رأس قوة كبيرة من جنوده ومعه
حسن باشا وأخوه عابدى بك الى مصر القديمة فتقهقر المماليك

وعبروا النيل الى الجيزة ، وانضموا الى جيش على باشا السلحدار ،
وترامى الفريقان بضرب المدافع والقنابل من ضفتى النيل ، وانتهاز
الجنود الدلاة فرصة خروج الجنود الالبانيين من القاهرة لمحاربة
المماليك فزحفوا على بولاق وهجموا على البيوت يخرجون سكانها
ويرتكبون جرائمهم المنكرة . وذهب كثير من سكان بولاق الى عمر
مكرم يشكون اليه افعال الدلاة ، فأرسل عمر مكرم الى وكيل محمد
على ليردهم عن جرائمهم « فلم يمتنعوا واستمروا على فعلهم
وقبائحهم » .

السلطان يرسل حملة بحرية الى مصر :

وفى هذا الجو المشحون بشتّى عوامل الاضطراب والذي
استأنف فيه الشعب المصرى نضاله بمحاصرة خورشيد فى القلعة
والمراقبة فى المتاريس وعديد المواقع وردت الأنباء الى القاهرة فى
١٩ من يوليو ١٨٠٥ بوصول حملة عثمانية بحرية بقيادة القبطان
عبد الله رامز باشا ومعه ٢٥٠٠ جندى تحملهم وحدات من الاسطول
العثمانى « فاجتمع المشايخ واتفقوا على كتابة عرضحال يرسلونه اليه
مع بعض المتعممين ، ثم اختلفت آراؤهم فى ذلك . » وقد صرفوا
النظر عن ارسال وفد منهم انتظارا لوصول سلحدار القبطان رامز
باشا ، وكانوا قد علموا فى ٢٣ من يوليو بأنه فى طريقه الى القاهرة ،
وقد بلغها فى ٢٤ من يوليو وكان معه خطابان .

كان الباب العالى قد قرر وضع حد للفوضى التى كانت تزدد
حدة وعنفا يوما بعد يوم فى مصر ، وخشى أن ينتهز المماليك هذه
الفرصة فيوحدوا صفوفهم وينتزعوا مصر كلية من الدولة العثمانية .
وكانت الحركة الوهابية فى بلاد العرب تنتقل من نصر الى نصر حتى
كاد الحجاز يسقط كله فى ذلك الوقت فى أيدي الوهابيين ، وعجزت
الحكومة فى مصر فى غمار هذه الفوضى عن تلبية طلبات الباب العالى

المكرورة بارسال نجدات عسكرية الى الحجاز . ولهذا قرر الباب العالي أن يرسل - بعد حوالى شهر من وصول المندوب السلطاني - مرسومين جديدين يؤكدان المرسومين السابقين وأن يكون ارسال المرسومين الجديدين مقرونا بارسال حملة حربية بقيادة رامي باشا من قبيل الارهاب وليحمل جميع الأطراف المعنيين في مصر على تنفيذ ما جاء بهما . كان المرسوم الأول موجها الى « أحمد باشا المخلوع » يأمره بالنزول فورا من القلعة والتوجه الى الاسكندرية . أما المرسوم الثاني فموجه الى محمد علي « بابقائه في القائمقامية حيث ارتضاه الكافة والعلماء والوصية بالسلوك والرفق بالرعية » كما تضمن هذا المرسوم أمرا بانفاذ حملة عسكرية من مصر الى الحجاز لمحاربة الوهابيين وتزويد هذه الحملة بكل حاجياتها من ذخائر ومؤن .

ولما بلغ سلحدار قبطان باشا القاهرة أظهر خورشيد امتثاله لأوامر السلطان وطلب مقابلة السلحدار للتحديث معه، فصعد اليه في القلعة مع بعض من الرفاق ، فنفي أحمد خورشيد باشا عن نفسه تهمة العصيان ، وقال انه مدين بخمسمائة كيس لعمر بك الأرثوودي وصالح أغا قوش ، وانه اقترض هذا المبلغ لدفع مرتبات الجنود المحاصرين معه في القلعة واستطرد فقال « ولم يبق عندي شيء سوى ما على جسدي من الثياب ، وقد أخذ العسكر المحاصرون موجوداتي جميعا » .

عمر مكرم يساعد في اجراءات ترحيل خورشيد؛ يستضيفه في داره

ودارت اتصالات ومحادثات متعاقبة متباطئة بين خورشيد ومحمد علي والسلحدار ومن اليهم من كبار العثمانيين دفع محمد علي خلالها خمسمائة كيس الى خورشيد ، واتفقوا على أن يغادر الأخير القلعة في ٥ من أغسطس ١٨٠٥ ، واستعانوا بالسيد عمر مكرم

الذى جمع لهم مائتى جبل لحمل أمتعة خورشيد من القلعة الى بولاق .
وفى ٦ من أغسطس نزل خورشيد من القلعة نهائيا وصحبه وكيل
محمد على وعمر بك الأرنوودى وصالح أغاقوش . وكان عمر مكرم
خصما شريفا قبل عن طيب خاطر أن يستضيف فى داره ببولاق
أحمد خورشيد باشا الوالى المعزول ليحميه من غضب الشعب ريثما
تتم عملية شحن أمتعته فى السفن (١) ، ولكنه كان فى نفس
الوقت حريصا على عدم تعريض الشعب لانتقام الجنود الذين كانوا
مع خورشيد فى القلعة لأنهم تغلغلوا فى داخل المدينة وانتشروا فى
أحيائها . فأطلق السيد عمر مكرم المنادين يطلبون من سكان
القاهرة « الاستمرار على التحرز والسهر وضبط الجهات ، فان القوم
لا أمان لهم » (٢) .

رحيل خورشيد وانتصار الشعب

وفى ١١ من أغسطس ١٨٠٥ غادر خورشيد دار عمر مكرم
متجها الى ميناء القاهرة النهري فى بولاق وأقلعت السفن تحمله مع
حريمه وأتباعه وأمتعته . ويعلق الجبرتى تعليقا لازعا على أخلاق
بعض أعوان خورشيد - والآخر يغادر مصر - وطمعهم فى البقاء
فى البلاد والاستمتاع بخيراتهما وغناها ، فيقول « وفى يوم الاحد
نزل أحمد باشا المخلوع الى المراكب من بولاق ، وسافر الى جهة
بحرى بعياله وأتباعه المختصين به ، وتخلف عنه كتخداه (وكيله)
وعمر بك وصالح قوش والدفتردار وكثير من أتباعه ، ولم يسهل بهم
مفارقة أرض مصر وغنائمها مع أنهم مجتهدون فى خرابها » .
وبرحيل خورشيد توج الشعب كفاحه بأعلاء كلمته واملأه
ارادته على الدولة العثمانية وانتصاره على أحمد خورشيد . وكان

(١) Mengin ovr cit., t. I. p. 180.

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٤٠ .

فى مقدمة الاسباب التى أرغمت خورشيد على الاذعان هو نشاط المقاومة الشعبية واصرار عمر مكرم زعيم الثورة على عزله ، ثم صدور أمر الباب العالى الذى اعترف - على عادته بالأمر الواقع - بتثبيت محمد على فى مصر ومطالبة خورشيد بالنزول من القلعة ثم تعيينه واليا على سالونيك . لقد قامت ثورة ١٨٠٥ بإرادة الشعب واعتمدت على الشعب ونجحت بقوة الشعب . وكان هناك زعماء مصريون أسهموا فى تدبيرها واشعال جذوتها ، ولكن من الانصاف أن نذكر أن عمر مكرم كان هو أبرز الزعماء بلا منازع ، فقد كان هو عماد الثورة وروحها وموجهها ، فهو الذى دعا اليها ونظمها ودعمها وجنبها أسباب الفشل فى أكثر من مرة بفضل تيقظه واقدامه واخلاصه . وهو الذى دعا الشعب الى مواصلة الجهاد وواصل المرور غدوا وعشيا على مواقع الثوار فى سائر النواحي والجهات يثير فيهم الحماس وينظم المقاومة أحسن ما يكون التنظيم . وكان هو المرجع فى حل المشكلات التى واجهت الثوار حتى أصبحت هذه الثورة الشعبية مقرونة باسم عمر مكرم . وفى هذا يقول الجبرتى (١) « وانتصر محمد على بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضى وأهل البلدة والرعايا ، فمحمد على مدين للشعب المصرى ولكبير الزعماء عمر مكرم بتوليته حكم مصر . وقد عرف قيمة القوة الشعبية والزعامة الشعبية وعمل على الافادة منها الى حين . وكان عمر مكرم هو أعظم شخصية قيادية ظهرت من بين صفوف الشعب فى مطلع القرن التاسع عشر .

خصائص ثورة ١٨٠٥

كانت ثورة ١٨٠٥ والكفاح المسلح الذى حمل الشعب شعلته أربعة أشهر حدثا سياسيا فريدا فى تاريخ مصر القومى . فلأول مرة يقوم زعماء الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم بثورة يطيحون فيها

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٣٢ وهو يترجم لمحمد الالفى بك .

بأحد الباشوات العثمانيين اتسم عهده بالاسراف في الظلم ويسندون الحكم الى حاكم وقع عليه اختيارهم بمحض رغبتهم . ومعنى هذا ان الزعماء والمشايخ لم يقنعوا بالدور التقليدى الذى كانوا يقومون به من قبل وهو بذل الوساطة بين الحاكم والشعب بل « تزعموا المحكومين وخاطبوا الحاكمين بلهجة شديدة الجرأة بعيدة المعنى، وهذا هو البعث الجديد لمصر ، وهو سر هذه القوة التى بلغت فى السنوات الاولى من القرن التاسع عشر وهو عماد محمد على وسبب انتصاراته » (١) ولم يسبق للمشايخ الاشتراك فى الانقلابات التى وقعت خلال عهد الانقلابات السياسية (١٨٠١-١٨٠٥) أما قبل قدوم الحملة الفرنسية فكان الأمراء المماليك هم الذين يعزلون الباشا العثمانى دون أن يكون لزعماء الشعب دور فى هذا العزل . وبذلك يظهر فى انقلاب مايو ١٨٠٥ العنصر المصرى الوطنى الأصيل .

ولم تكن هذه الثورة مقصورة على استبدال حاكم بحاكم بل كانت اعلانا بحق الشعب المصرى فى تقرير مصيره بانتخاب الحاكم ويزيد من أهمية هذه الثورة أن اختيار عمر مكرم لمحمد على كان مقرونا بشروط أساسية هى التزام العدل وعدم انشاء أية ضريبة بدون موافقة مسبقة من الزعماء على سننها والرجوع اليهم فى شئون الحكم وهى مبادئ دستورية هامة وكان تقريرها كسبا كبيرا للشعب المصرى ، وارتفع عمر مكرم فى هذه الثورة بطلا مصريا رفع صوت الشعب عاليا بحقه فى الحياة الكريمة . وقد ترتبت على هذه المبادئ نتيجة هامة هى اسهام الزعماء وعلى رأسهم عمر مكرم فى مواجهة ومعالجة الأزمات والأحداث الخطيرة التى تلاحقت بعد ذلك مثل أزمة نقل محمد على الى سالونيك والحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ والوساطة التى طلبها محمد على منهم لانهاء خصومة المماليك له . كما كانت هناك نتيجة أخرى هى أنه لما أراد محمد على أنه يتحلل من الالتزام

(١) دكتور حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ص ٩٨ .

الذى يقضى عليه بطلب المشورة من الزعماء والرجوع اليهم فى شئون الحكم تمسك عمر مكرم بالميثاق الذى واثقه عليه عند مبايعته فى ١٣ من مايو ١٨٠٥ ، فحدث صراع حول هذا المبدأ بين عمر مكرم ومحمد على أدى الى وقوع الصدام بينهما .

وتبدو روعة ثورة ١٨٠٥ فى انها كشفت عن معدن الشعب المصرى وطبيعته الأبية ، فما ضعف وما وهن وما استكان أمام ظلم الحكام العثمانيين بل قابل التحدى بتحد مثله ، وصمم على مواجهة الباشا الظالم أحمد خورشيد وعقد العزم فى غير تردد على تحقيق مطلبه بعزله من منصبه باستخدام القوة مهما كانت التضحية وهكذا تجلت فى الشعب ابان نضاله المسلح ضد خورشيد أروع صور الكفاح والفدائية والبذل ، وظهرت فيه روح العزة والكرامة فى أسمى درجاتها وكان « الفقير من العامة يبيع ملبوسه أو يستدين ويشترى به سلاحا » (١) ويقول الدكتور محمد صبرى تعليقا على ثورة مايو ١٨٠٥ ان سكان القاهرة الذين قاموا بثورتين عنيفتين ضد الحكم الفرنسى قاموا بثورة ثالثة ضد الباشا المعين من قبل السلطان وأظهروا صلابة وعنادا وكان عمر مكرم يحض الجماهير على المضى فى الحرب ويعمل جاهدا على حفظ النظام فى القاهرة (٢) .

(١) الجبرتنى ج ٣ ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٢) Dr. M. Sabry, ouvr. cit., p. 26

الفصل العاشر

سؤالان يفرضان نفسيهما فرضاً

بقى سؤالان يتبادران الى الذهن ، بل انهما يفرضان نفسيهما فرضاً في هذا البحث بعد أن استعرضنا أحداث الثورة الشعبية في سنة ١٨٠٥ ودور عمر مكرم فيها . وهذان السؤالان هما :

اولا : لماذا لم يناد الشعب المصري بعمر مكرم أو بزعيم مصر آخر واليا على مصر ؟

ثانيا : لماذا اتجه اختيار عمر مكرم الى محمد علي بالذات ليكود وانيا على مصر ؟

أما عن السؤال الأول فقد كانت الثورة الشعبية موجهة ضد أحمد خورشيد باشا بصفته الشخصية على أساس أنه أسرف اسراف بعيدا في الظلم ، ولم تكن الثورة موجهة ضد السلطان العثماني . وتجربنا هذه النقطة الى مناقشة المسألة التي أشرنا اليها في مقدما هذا البحث ، وهي أن المجتمع في مصر كان في ذلك الوقت مجتمعا دينيا . ولم يكن الشعب المصري ينظر الى السلطان العثماني على أنه حاكم أجنبي دخيل مستعمر ، بل نظر اليه على أنه سلطان الاسلام . هكذا كان يصرح زعماء الشعب المصري في شتى المناسبات في ذلك الوقت . ونذكر على سبيل المثال تصريحاً أدلى به كبار المشايخ علماء الأزهر في مقابلة عاصفة تمت بينهم وبين الجنرال كليبر عقب اخماد ثورة القاهرة الثانية في ابريل ١٨٠٠ ونعى عليهم الجنرال كليبرتارجحهم بين الولاء للفرنسيين وبين الولاء للعثمانيين، فانطلق

الزعماء يصفون سلطان الدولة العثمانية بصريح العبارة بأنه « سلطان المسلمين » وكان السلطان العثماني من جهته جد حريص على تأكيد صفته الدينية لا في علاقاته مع الولايات العربية فحسب بل في علاقاته مع الدول الأوروبية . وقد ظهر هذا الحرص منذ أواخر القرن الثامن عشر حين واجهت الدولة العثمانية ضغطا متزايدا من بعض الدول الأوروبية التي تروم اقتطاع أجزاء عثمانية وضمها اليها (١) . وقد نجحت الدولة العثمانية في مخططاتها السياسية اذ فرضت على مصر ومعظم أجزاء العالم العربي - مشرقا ومغربا - استعمارا مقنعا باسم الدين ، والدين منه براء . وقد جمع بين أفراد الشعب شعور عام بالولاء للسلطان باعتباره سلطان الاسلام والمسلمين . ولذلك كان الشعب المصري متشبعا بفكرة الوطن الاسلامي أكثر من تشبعه بفكرة الوطن القومي . وكان مفهوم الوطنية ملحقا بمفهوم الدين ، وبعبارة أخرى كانت العاطفة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث كان يصعب الفصل بينهما . والواقع أن الحكم العثماني قد ساعد على تأكيد الحياة الدينية لسكان مصر وغيرها من الولايات العربية ، وذلك بتمسكه بأحكام ومبادئ الشريعة الاسلامية وجعلها أساسا لحكم هذه الولايات مع الحرص على احترام التقاليد الاسلامية والمحافظة على اقامة الشعائر الدينية . فمضت الحياة تطبع المصريين بالطابع الديني البحت ، وأضحت حضارة مصر وقتئذ حضارة دينية . وكان الشعب المصري لا يعرف علوما أسمى من علوم الدين ولا ثقافة أخرى بالدراسة من الثقافة الدينية .

وكانت السياسة العليا للدولة العثمانية منذ أن تم الغزو العسكري العثماني لهذه البلاد في سنة ١٥١٧ تقضى بأن يكون وإلى

(١) كان أول ظهور هذا الاتجاه في معاهدة كيتشك كينارجي سنة ١٧٧٤ وبمقتضاها بسطت روسيا نفوذها على بلاد القرم وهي بلاد اسلامية . فنصت المعاهدة على أن يظل المسلمون في القرم تحت السيادة الروحية للسلطان وأصبح من حقه أن يعين القضاة والمفتي في هذه البلاد .

مصر عثمانيا صرفا ، بمعنى أن يكون عثمانى المولد والنشأة واللسان والعقلية . فاذا تم اختيار عمر مكرم أو الشيخ الشرقاوى أو غيرهما من زعماء البلاد واليا لمصر ، فان مثل هذا الاختيار كان يعتبر فى ضوء مفاهيم ذلك المجتمع الدينى ثورة على النظام الذى أخذت به الدولة ونقضا لمبدأ أساسى وضعه سلطان الاسلام وخروجاً على طاعته وهى الطاعة التى كانت أجهزة الحكم العثمانى تحرص على تأكيدها بترديد الآية القرآنية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١) .

وفى رأى أحد الباحثين النابهن كان عمر مكرم « يقبض على زمام الشعب ويسيطر عليه تماما ، ولكن ماعساه أن يفعل ؟ انه يرجو الخلاص من ولاية السلطان لا من السلطان نفسه ، انه يسعى للانقاذ ولكنه لا يريد أن يكون ملكا أو أميرا فليس هذا من خلق العلماء ولا حماة الشرع ولا رجال الدين ، ان عليهم أن يولوا على الناس أصلحهم ، وأن يشدوا أزر الصالحين ، ويحولوا بينهم وبين الظلم اذا مالت بهم نفوسهم الى الطغيان » (٢) .

ومن ناحية أخرى فان سلطان الدولة العثمانية ما كان ليقر تعيين مصرى واليا على مصر . وقد تفسر دوائر الباب العالى فى الاستانة ثورة سنة ١٨٠٥ فى مصر بأنها حركة فردية استهدف متزعموها المصريون تحقيق مآرب شخصية لهم . ولذلك حرص عمر مكرم منذ المرحلة الأولى للثورة على أن يجنبها أسباب الفشل ، فاشتراط أن يكون الوالى الذى ينتخبه الشعب عثمانيا، وجاهر بهذا الرأى أمام الزعماء والأعيان حين دعاهم الى اجتماع عقد فى دار محمد على للبحث فى اختيار من يخلف الوالى أحمد خورشيد . يقول الجبرتى وهو يترجم لمحمد بك الالفى « عقد السيد عمر مجلسا عند محمد على ، وأحضر المشايخ والأعيان ، ذكر لهم أن هذا الامر وهذه

(١) النطر الاول من الآية رقم ٥٩ من سورة النساء .

(٢) دكتور حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره . ص ١١٥ .

الحروب ما دامت على هذه الحالة لا تزداد الا فشلا ، ولا بد من تعيين شخص من جنس القوم للولاية . فانظروا من تجدوه وتختاروه لهذا الأمر ليكون قائم مقام حتى يتعين من طرف الدولة من يتعين . فقال الجميع الرأى ماتراه . فأشار الى محمد علي ، ونخلص من هذا العرض الى أن المصريين فى ثورة سنة ١٨٠٥ لم يتطلعوا الى تغيير جذرى فى وضع مصر السياسى ولم يطالبوا باستقلال بلادهم عن الدولة العثمانية . ولكن الروح الجديدة التى دبّت فى الشعب من زيادة الوعى واليقظة هى التى دفعته الى مقاومة الظلم بالاصرار على تغيير شخص الحاكم . وحال الولاء الدينى للسلطان دون مطالبة الشعب بالانفصال عنه .

ويلاحظ أيضا أن أحداث حركة على بك الكبير (١٧٦٨ - ١٧٧٣) كانت لا تزال عالقة فى أذهان المصريين بل ان كثيرين ممن شاركوا فى ثورة مايو ١٨٠٥ قد عاصروا تلك الحركة . وكانوا يعلمون أن على بك لم يجرؤ على قطع جميع الروابط التى كانت تربط مصر بسلطان الدولة العثمانية ، على الرغم من أنه عزل الوالى العثمانى وحدد اقامته حتى جاز الى ربه ، ولم يسمح بدخول الولاة العثمانيين الى مصر وقطع الجزية عن السلطان ، ومد فتوحاته الى الحجاز والشام . ولكنه لم يذهب الى أبعد من ذلك ، فلم يتخذ لنفسه لقب سلطان ، أو أى لقب آخر ينم عن أنه غدا حاكما مستقلا تمام الاستقلال عن سلطان الدولة العثمانية ، سلطان الاسلام والمسلمين ، وقنع بلقب قائم مقام مصر المحروسة . وأمر بأن يستمر الدعاء فى خطبة الجمعة لسلطان الدولة العثمانية بل انه أمر بأن يبطح أرضا أمام مسجد الداودية ويضرب بالعصى لأنه دعا لعلى بك فى خطبة الجمعة . (١) وأهم من ذلك كله أمر بسك عملة فضية وأخرى ذهبية بعد انقراضه

(١) يقول الجبرتى : « اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان ١١٨٣ (٢٩ من ديسمبر ١٧٦٩ - ٢٧ من يناير ١٧٧٠) بجامع الداودية، فخطب الشيخ عبد ربه ، ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك . فلما انقضت الصلاة =

بحكم مصر . وكانت هذه العملة تحمل على أحد وجهيها طغراء باسم مصطفى الثالث سلطان اندولة اعثمانية في ذلك الوقت . وتحمل على الوجه الآخر اسم « علي » بطريقة تنطوي على التحايل . اذ نقش على هذا الوجه عبارة ضرب في مصر سنة ١١٨٥ هـ واستخدم حرف الباء في لفظة ضرب كحرف ياء لكلمة علي (١) .

ومع ذلك فان حركة علي بك لم تستهوَ أفئدة الشعب ولم يتجاوب معها ، لانها لم تكن حركة شعبية ، بل كانت في لحمتها وسداها حركة مملوكية استهدف منها علي بك الانفراد بحكم مصر . فوضع مواهبه ونشاطه الجهم في خدمة هذا الغرض الشخصي . ولم يصرف اهتمامه لرفع المظالم عن كاهل الشعب ، ولعل وطأتها قد ازدادت ، لانه ساق البلاد الى مغامرات حربية عقيمة دفع الشعب ثمنها باهظا في شكل اتاوات وضرائب ومغارم ومصادرة أموال .

واذا انتقلنا من الجيل السابق لجيل عمر مكرم الى الأجيال التالية له نجد أنه على الرغم من أن الشعب المصري قد خطا خطوات واسعة في شتى مجالات التقدم والتطور واشتد اتصاله بأوروبا فقد ظلت الفكرة الدينية الممثلة في الولاء للدولة العثمانية باعتبارها دولة الاسلام الكبرى مهيمنة على أذهان المصريين في القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين . وكان جمال الدين الأفغاني وصفه

= وقام علي بك يريد الانصراف احضر الخطيب . وكان رجلا من اهل العلم . يغلب عليه البله والصلاح . فقال له : « من أمرك بالدعاء باسمي على المنبر ؟ أفيل لك الى سلطان ؟ » فقال : « نعم أنت سلطان . وأنا أدعو لك » فظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى . فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب الى داره وهو يقول في طريقه : « بدأ الاسلام غريبا . وسيعود كما بدأ » وبلوح أن ضمير علي بك قد تحرك في اليوم التالي فأرسل اليه يستسمحه وبعث اليه بدراهم وكسوة . أنظر الجبرتي ج ١ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(١) انظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع في :

د . محمد رفعت رمضان : علي بك الكبير . دار الفكر العربي ١٩٥٠ ص

٥٧ - ٦٤ .

محمد عبده يدعوان الى تأكيد الروابط الروحية والثقافية والسياسية مع الدولة العثمانية على أساس انها دولة الخلافة ، وأوضحا أن في تمزق هذه الدولة أمام الزحف الأوربي قضاء على دولة الاسلام الكبرى .

ويمكن تشبيه الزعيم عمر مكرم - في هذه الناحية ومن بعض الوجوه - بالزعيم مصطفى كامل حين التصق بتركيا في مرحلة من مراحل كفاحه الوطني المجيد . ولما تكون حزب الأمة في مصر في سبتمبر ١٩٠٧ لم يفكر الأعيان من أعضاء هذا الحزب في نبذ الولاء للدولة العثمانية . أما المثقفون من أعضاء الحزب فكانوا يرون الانفصال بمصر عن الروابط العثمانية وعملوا على تسفيه فكرة السيادة العثمانية على أساس أنها تعوق تحقيق الكيان القومي لمصر واستقلالها التام ، ونادوا بأنه يجب النظر الى المسائل السياسية من زاوية المصالح المصرية وحدها . ولذلك لم تستسغ الجماهير هذه الآراء التي نادى بها أحمد لطفى السيد في جراءة على صفحات « الجريدة » . وليس أدل على ذلك أنه لما أغارت ايطاليا على طرابلس الغرب وقامت الحرب بينها وبين تركيا في سنة ١٩١١ برزت عاطفة الولاء للسلطان العثماني بروزا واضحا قويا بين الجماهير التي اندفعت تقدم التبرعات المالية والعينية لمساعدة تركيا في الحرب مما جعل أحمد لطفى السيد يصرح « بأن الأمة وهي بهذه الحال من تأييد تركيا والاقبال على مساعدتها والتبرع لها لا يمكن أن تربد الانفصال عنها » (١) . وكان لطفى السيد قد شن حملة صحفية تحت عنوان « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » واعتقد أن نشوب الحرب التركية الايطالية فرصة لتحقيق « ماكنت أدعو اليه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين » وقد أخذت أنبه - على استحياء - الى واجب مصر من هذه الحرب وهو أن تكون على الحياد ، وأن سيادة

(١) أحمد لطفى السيد - قصة حياتي ص ١٣٢ .

تركيا لا تجلب لمصر منفعة ولا تدفع عنها مضرة ٠٠٠ وقد أغضب هذا الموقف بعض الناس ولكنى لم ألتفت الى غضبهم ٠ »

نخرج من هذه المناقشة الموضوعية بأن النزعة السياسية التي سيطرت على عقول الغالبية الساحقة من المصريين حتى مطلع القرن العشرين كانت نزعة ذات صبغة اسلامية عثمانية واضحة جعلت الشعب نهبا لتيارات مختلفة وعرضة لمؤثرات قوية حالت دون نمو فكرة القومية بمفهومها المعاصر الواضح ، مما جعل أحمد لطفى السيد يشعر بالأسى المرير حين لمس أن الشعب لم يستطع أن يتخلص من رواسب الماضي ممثلة في تشبع الجماهير بفكرة الوطن الاسلامى والولاء للسلطان العثمانى باعتباره خليفة المسلمين ٠ فاذا رجعنا الى الوراء قرنا وبعض قرن حين قام عمر مكرم بثورته الشعبية عام ١٨٠٥ نجد أن مطالبة هذا الزعيم ومن ورائه الشعب باختيار أحد العثمانيين واليا على مصر كان أمرا طبيعيا فى ضوء المفاهيم السياسية والدينية فى ذلك العصر ، فمفهوم الانفصال عن الدولة العثمانية لم يكن من الأمور التي تخطر بالبال أو تتطرق الى الذهن ٠

بقى السؤال الثانى ، وهو ، لماذا اتجه اختيار عمر مكرم الى محمد على بالذات ليكون واليا على مصر ؟ كانت هناك عدة اعتبارات أملت على عمر مكرم هذا الاختيار ٠ أولها أن محمد على كان قد رقى الى مرتبة مماثلة أو قريبة من ذلك المنصب ٠ ولتفسير ذلك نقول ان أحمد خورشيد باشا كان قد سعى لدى الباب العالى لتعيين محمد على واليا على احدى الولايات العثمانية وذلك ابان الصراع السافر الذى احتدم بين ذلك الوالى وبين محمد على ٠ وقد أراد أن يتخلص من غريمه ومنافسه بنقله نهائيا من مصر الى منصب مرموق يجعله يترك الميدان خاليا لخورشيد ٠ وقد نجح فى مسعاه ٠ فصدر مرسوم من السلطان بتعيين محمد على واليا على جده ٠ ولما أبلغ خورشيد هذا المرسوم الى محمد على وطلب منه الصعود الى القلعة لحضور الحفل التقليدى رفض

الذهاب اليه خشية غدر خورشيد به ، وأظهر استعدادده لتلقى المرسوم في أى مكان آخر يقع عليه اختيار الوالى ، فرفض خورشيد بدوره . وتوسط المشايخ الذين كانوا حريصين على اقامة الحفل رفعا لشأن محمد على وتعزيزا لمركزه وكيدا لخورشيد . وتم الاتفاق حسب رغبتهم على اختيار منزل سعيد أغا مكانا لتقليده شارات الوالى . وفعلا نزل خورشيد من القلعة فى ١٠ من مايو ١٨٠٤ الى ذلك المنزل حيث كان محمد على والمشايخ والقاضى والأعيان مجتمعين . وبدأت مراسم الاحتفال وقرىء المرسوم وارتدى محمد على الفروة والقاووق ، وهما من شارات الحكم ، وانفض المجلس . وذهب محمد على الى داره بالأزبكية وهو فى حلة الوالى الرسمية ، وأخذ ينشر الذهب على الأهالى الذين وقفوا على طول الطريق لتحيته .

يهمنا من هذا التعيين أن محمد على ارتفع الى مرتبة الولاية العثمانين ، وأصبح فى عدادهم ومرتبتهم ودرجتهم ، وهو وان لم ينفذ هذا المرسوم ويرحل عن مصر فهو حق كسبه ولا يلحقه البطلان، وأصبحت لديه الصلاحية والأهلية لشغل منصب والى مصر . وقد جرت العادة ابان الحكم العثمانى على أن يصدر السلطان حركة تنقلات ينقل فيها والى جدة واليا على مصر . فاذا جاء عمر مكرم ونادى بمحمد على واليا على مصر فان هذا الاختيار يكون مقبولا من الناحية الشكلية .

وهناك الناحية الموضوعية التى جعلت عمر مكرم يؤثر بمحمد على بترشيحه والمناداة به واليسا على مصر . فقد كان هذا الألبانى يظهر عطفًا مصطنعًا على الشعب ومناصرة زائفة له ، ويبدى مواساة له ابان المحن التى تلاحقت على الجماهير على يد الأمير المملوكى عثمان بك البرديسى ثم الوالى العثمانى أحمد باشا خورشيد . ولم يدر بخلد أحد من الشعب فى ذلك الوقت أن هذه المواساة وذلك العطف كانا وسيلة لغاية أبعد هى وصوله الى الحكم ، لان محمد على كان قد أدخل

فى حسابها القوة الشعبية يتخذ منها ركيزة قوية للوثوب الى منصب الوالى . ولهذا كان محمد على فى قرارة نفسه يبتهج بتوالى المظالم على الشعب لسبب بسيط ، هو أنه بقدر ما كانت هذه المظالم تباعد بين الشعب وبين حاكميه ، كانت هذه المظالم تعطيه مزيدا من الفرص للتودد الى الشعب واظهار عطفه عليه ، فغدا محمد على فى نظر الشعب القائد المثالى الكامل العطوف على الجماهير العزوف عن الظلم الذى يمشى على الأرض هونا الى آخر هذه الصفات التى نجح محمد على فى اصفائها على نفسه ، ونجح فى اقناع الشعب وزعمائه بها .

كان محمد على كلما جن عليه الليل اتخذ طريقه سربا الى دار عمر مكرم يتملقه باعتباره كبير زعماء الشعب ، ويتحدث اليه حديثا يفيض بأرقى مشاعر العطف على الشعب ويبدى فيه نفوره من أساليب الجور والتعسف التى يتبعها خورشيد ، ويبذل لعمر مكرم الوعود الحلاية بأنه اذا أتيح له حكم مصر فسيكون حريصا على التزام العدل والبعد عن المظالم والاقلاق عن ابتزاز الأموال ، وأنه يضع نفسه تحت رقابة صارمة دقيقة من زعماء الشعب فلا يتخذ قرارا الا بموافقتهم ، وأنه اذا حاد عن الطريق السوى كان لهم أن يعزلوه ، وانهم على ذلك لقديرون . يقول الجبرتى وهو يترجم لمحمد بك الألفى « ومحمد على يداهن السيد عمر سرا ويتملق اليه ، ويأتيه ويراسله ، ويأتي اليه فى أواخر الليل وفى أوساطه مترددا عليه فى غالب أوقاته حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة والإيمان الكاذبة على سيره بالعدل واقامة الأحكام والشرائع والاقلاق عن المظالم ، ولا يفعل أمرا الا بمشورته ومشورة العلماء ، وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه ، وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن . » (١) وقد اطمأن عمر مكرم الى هذه الوعود وتوسم فيه الخير والتزام العدل ، فكان أن اقترح اسمه على المشايخ والأعيان ، وأخذوا باقتراحه أو ترشيحه .

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٣٢ .

كان في تقدير عمر مكرم أن في هذا الاجراء انهاء للفوضى السياسية وراحة للشعب من أعمال السلب والنهب والجرائم الخلقية والركود الاقتصادي وغير ذلك من مساويء رانت على قلوب الجماهير أمدا طويلا . واعتقد عمر مكرم أن محمد علي هو الأمل المرتجى لتحقيق آمال الشعب في الاستقرار والأمن والهدوء وسيادة القانون والكف عن فرض الضرائب الجزافية . ولكنه كان في اعتقاده من الواهمين . وقد تبين لعمر مكرم خطأ اعتقاده واتضح له أن محمد علي لا يقل جشعا واستبدادا وظلما عن أحمد خورشيد وغيره من الولاة العثمانيين . وتنبأ بأنه اذا طال بحكمه الأمد فسيرهق المصريين من أمرهم عسرا وستتضاعف المظالم على يديه . وكان ادراك عمر مكرم لهذه الحقيقة بعد فوات الأوان ، اذ كان محمد علي قد توطدت أقدامه في مصر ورسخ حكمه فيها .

الفصل الحادى عشر

إسطارة فرنسية تجرد الزعيم من دوره القيادى

مزاعم الإسطارة

ابتدع الفرنسيون أسطورة تاريخية تجرد السيد عمر مكرم من دوره القيادى فى تنصيب محمد على واليا على مصر ، وتنسب الفضل كله فى تقلده هذا المنصب الى فرنسا ورجالات فرنسا وعلى رأسهم الامبراطور نابليون الاول . وقد لقيت هذه الاسطورة قبولا ورواجا لدى المؤرخين والكتاب الأوربيين الذين كتبوا فى تاريخ مصر الحديث وبوجه خاص من الفرنسيين ، بحيث غدت هذه الاسطورة فى مؤلفاتهم حقيقة تاريخية لا مرأى فيها . وندر أن صدر عنهم كتاب تناول هذه الحقبة من تاريخ مصر الحديث دون أن تذكر فيه الاسطورة الفرنسية .

تقول هذه الاسطورة ان بوناپرت - وقد غدا على رأس الجمهورية الفرنسية بعد أن قام بانقلاب برومير Brumaire الذى أطاح بحكومة الادارة - رأى أن الفوضى السياسية سادت مصر منذ أن تم جلاء الفرنسيين عنها ، وان الاضطراب يزداد حدة وعنفا يوما بعد يوم ، فالحروب الداخلية لا تنقطع بين القوات العثمانية وبين المماليك ، وأن المماليك يبدون شجعورا طيبا نحو الانجليز تحدوهم رغبة قوية فى التعاون معهم وخدمة المصالح البريطانية فى مصر فى مقابل مساعدة الانجليز لهم على استعادة نفوذهم الذى ذوى منذ مجيء الحملة الفرنسية فى سنة

١٧٩٨ ، وان الممالك ينظرون الى الفرنسيين نظرة ملؤها الحقد والكراهية ، لأنهم هم السبب المباشر ، بل الأوحـد ، في سقوط حكومتهم التي كانت قائمة في مصر قبل عدوانهم . وقد خرج بونابرت من تقديره للموقف الداخلي في مصر بأن هذا الموقف مليء بشتى الاحتمالات ، وقد تكون في غير مصلحة فرنسا ، ولهذا استقر رأيه على ايفاد أحد أعضاء السلك القنصلى الى مصر ليدرس الموقف على الطبيعة ويتعرف على الشخصيات التي تتصارع على النفوذ والحكم فيها . ويختار من بينها شخصية تمتاز برجاحة العقل وقوة الشكيمة ومضاء العزم والمقدرة على اعادة الاستقرار والنظام الى البلاد والاستعداد لخدمة المصالح الفرنسية . ثم يبعث باسم هذه الشخصية الى بونابرت في باريس . فيقوم الأخير ببذل مساع دبلوماسية لدى سلطان الدولة العثمانية كي يصدر مرسوما بتعيين الشخصية المختارة واليا على مصر . وتمضى الاسطورة فتقول ان بونابرت وقع اختياره على ماتيو لسبس Mathieu Lesseps - والد فرديناند دى لسبس الذى ظفر من محمد سعيد والى مصر بعقد الامتياز لانشاء قناة السويس - لهذه المهمة السرية فجاء الى مصر واتصل عن كـتب بالشخصيات المتصارعة على الحكم واستشف ببصيرته النافذة ان محمد على هو سيد الغد فرشحه لحكومته وأخذت الحكومة الفرنسية بهذا الترشيح ، وبذلت مساعيها الدبلوماسية فى الآستانة حتى صدر فرمان أى مرسوم من السلطان بتعيين محمد على واليا على مصر . وتخرج الاسطورة من هذا السرد التاريخى الخيالى بأن فرنسا أسدت الى محمد على وأسرة محمد على صنيعا يذكر فيشكر .

الباعث عليها :

وقبل أن نمضى فى تفنيد هذه الفرية التاريخية نذكر الباعث

عليها فنقول انه أريد بها اغراء ولاية مصر من أسرة محمد علي باشا على خدمة المصالح الفرنسية والتمكين لها في مصر . فالعملاء الفرنسيون يسكنون هذه القرية في أذهان أفراد أسرة محمد علي حتى يعمل الآخرون على فتح آفاق رحبة فسيحة للفرنسيين يمارسون فيها ألوانا شتى من النشاط السياسى والاقتصادي والثقافى فى مصر ، واستهدفوا من ذلك تحويل مصر الى منطقة نفوذ فرنسى ، وبعبارة أخرى ، أراد رجال السياسة والاقتصاد فى فرنسا فى القرن التاسع عشر أن يعوضوا بالتفلفل السلمى عن طريق تلك الاسطارة بعض ما فشل فيه بونايرت بالفزو الحربى عن طريق الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ . واذا كان محمد علي قد عمل على رعاية المصالح الفرنسية فى مصر ، فانه لم يكن فى نظر الفرنسيين سوى رجل شريف أمين كان يشعر فى أعماق نفسه ان فى عنقه دينا يجب أن يؤديه للفرنسيين فأداه احسن ما يكون الأداء . ولكن كان محمد علي قد جاز الى ربه وطويت صفحته فى الحكم . وتولى حكم مصر من بعده حفيده عباس الاول وقد أعلن فى صراحة تامة مقتته الشديد للسياسة الفرنسية واضطهد الرعايا الفرنسيين فى مصر ، وهى سياسة أزعجت فرنسا الى حد بعيد وأخذت تكيد له فى الاستانة . ثم جاء من بعده محمد سعيد وهو ابن محمد علي ، وما لبث أن منح وهو فى مستهل حكمه فرديناند دى لسبس عقد امتياز لانشاء قناة السويس والترخيص له فى تكوين وإدارة شركة تقوم بحفر القناة واستغلالها مع الأراضى الشاسعة التى منحت لها فى مديرتى القليوبية والشرقية ومنطقة برزخ السويس . ولم يكن هذا المشروع - فى نظر المعاصرين المحايدىن - سوى عملية ظاهرها الغرض التجارى وباطنها الاستعمار الفرنسى المقنع ينشر لواءه على مصر . وهكذا اذا كان محمد سعيد قد أسدى صنيعا لأحد الفرنسيين - وهو فرديناند دى لسبس - بمنحه عقد امتياز لانشاء قناة السويس ، فان والد هذا الفرنسى

— وهو ماتيو لسبس — كان أسبق في اسداء صنيع الى محمد علي والد محمد سعيد ، اذ كان الوالد الفرنسى هو السبب في تعيين الأب الألبانى واليا على مصر . وكان هذا التعيين هو الخطوة الأولى فى تقرير حكم مصر وراثيا فى أصلاب محمد علي . وتطلعت فرنسا الى مزيد من الامتيازات والاحتكارات تظفر بها على يد ذلك الوالى وخلفائه . وكان من بين ما نجحت فيه الحصول على عقد امتياز بانشاء حوض لاصلاح السفن فى ميناء السويس، وهو مشروع ظلت بريطانيا ثلاثين عاما تسعى للحصول على امتيازه وظفرت به فرنسا بجرة قلم من الوالى الأبله محمد سعيد، وتوالت عقود الامتياز تمنح تباعا للفرنسيين وتفتح لهم أبواب مصر بحثا عن المكاسب الخيالية ، وكأن مصر قد غدت كاليفورنيا جديدة تزخر بمناجم الذهب . وها هو الخديو اسماعيل يصرح لكرسـتيان شيفر Christian Schefer السكرتير الشرقى للامبراطور نابليون الثالث بقوله فى بلاهة الحاكم الذى تعوزه تجارب الحكم وحصافة الرجل السياسى « انى أنتمى الى أسرة محمد علي ، ونعلم جميعا ما ندين به لمعاضدة فرنسا وللرعاية التى خصتنا بها دائما . » (١)

موقف المصادر والمراجع التاريخية من الاسطارة

والمصادر والمراجع التاريخية لا تشير على الاطلاق الى هذه الرواية التى ابتدعها خيال الفرنسيين ، ولو كان لها ظل من الحقيقة لما أغفلتها تلك المصادر وهذه المراجع وبخاصة لأنها فرنسية ولأنها معاصرة للاحداث التى تتكلم عنها . ولنبدأ أولا بالمصادر التاريخية ، وهى فى هذا المجال ،

(١) «Je suis de la famille de Mohamed Ali et nous tous nous savons ce que nous devons a l'appui de la France et à la protection qu'elle nous a toujours accordée.» George Guindi et Jacques Tagher. Ismail d'après les Documents Officiels, le Caire. 1946, p. 41.

الوثائق الدبلوماسية التي تبودلت بين وزارة الخارجية الفرنسية في باريس وبين السفارة الفرنسية في الآستانة وبين القنصلية الفرنسية في مصر . وقد نشرت هذه الوثائق في خمسة أجزاء . يتناول الجزء الاول الوثائق التي صدرت في الفترة من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٤ (١) والجزء الثاني يتناول الوثائق من سنة ١٨٠٤ الى سنة ١٨٠٧ . (٢) فنجد فيما يختص بماتيو لسبس الذي تدور حوله تلك الاسطورة أنه قد صدر في ٧ من مارس ١٨٠٣ قرار من بونايرت قنصل اول الجمهورية الفرنسية بتعيين ماتيو لسبس في منصب نائب مندوب العلاقات التجارية للجمهورية الفرنسية في دمياط (٣) sous Commissaire des Relations Commerciales de la Republique Française

ونص في نفس القرار على أن يشغل مؤقتا وبطريق الانابة منصب المندوب العام للعلاقات التجارية للجمهورية الفرنسية بالقاهرة . وهذه الوظيفة تعادل في اختصاصاتها منصب القنصل العام في القانون الدولي العام ، ولكن كانت الحكومة الفرنسية تتجنب وقتذاك استعمال ألفاظ نائب قنصل ، وقنصل ، وقنصل عام ، فقد كانت السلطة التنفيذية العليا في فرنسا تتمثل في ثلاثة قناصل على رأسهم بونايرت بلقب قنصل اول .

وبعد مضي أسبوعين من صدور هذا القرار نجد أنه صدرت الى ماتيو لسبس تعليمات من وزارة الخارجية الفرنسية في ٢٢ من مارس ١٨٠٣ (٤) تحدد فيها مهمته تحديدا دقيقا . فاذا بلغ

(١) L'Egypte de 1802 à 1804. Correspondance des Consuls de France en Egypte , Recueillie et publiée par Douin G. le Caire 1925.
(٢) Mohamed Aly, Pacha du Caire (1805-1807) Correspondance des Consuls de France en Egypte, Recueillie et publiée par Douin G. le Caire 1926.

Douin : L'Egypte de 1802 à 1804

(٣) وثيقة رقم ١٩ في

(٤) وثيقة رقم ٢١ في المصدر السابق

القاهرة كان عليه أن يؤكد للسلطات القائمة اخلاص الحكومة الفرنسية ونواياها الطيبة . ثم استطردت هذه التعليمات فقالت ما نصه حرفيا « ان حالة عدم الاستقرار التي توجد فيها مصر في هذه الآونة ، سواء بسبب اطالة الانجليز اقامتهم بها ، او بسبب حالة الحرب الناشبة بين الفرق العثمانية وبين المماليك ، تحتم على المواطن لسبب ان يتذرع في مسلكه وفي اتصالاته مع الرؤساء النابيين عن الباب العالي بكل أسباب الحكمة والحذر والتحفظ ، وهي صفات لا تعوزه ، فيعمل على الظفر بتقديرهم وكسب ثقتهم وذلك بتجنبه الزج بنفسه في المنازعات السائدة بين الفريقين » ثم تمضى التعليمات فتقصر نشاطه على رعاية المصالح التجارية الفرنسية . ونخرج من هاتين الوثيقتين بأن بونابرت اعتبر مهمة ماتيو لسبب تجارية بحتة . وجاءت التعليمات الرسمية التي صدرت اليه خلوا من تكليفه البحث عن شخص قوى ذى ميول فرنسية يعين واليا على مصر .

فاذا انتقلنا من هذه المصادر الى المراجع نجد أن اصحاب « التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية فى مصر » (١) قد أفردوا الجزءين التاسع والعاشر لتاريخ مصر بعد جلاء الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ حتى اواخر حكم محمد على وانفرد بكتابة هذين الجزءين اكيل دى فولابل وهو أحد رجال السياسة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر الذين اشتهروا بوضع مؤلفات محترمة فى التاريخ الاوربى ، ولم يشر هذا المؤلف والسياسى الى تلك الاسطورة من قريب أو من بعيد ، بل كانت كتابته تدور حول الدور القيادى والحاسم الذى قام به عمر مكرم ابان الثورة الشعبية فى مايو ١٨٠٥ وفى تعبئة الجماهير وفى تدبير المقاومة الشعبية وفى تولية محمد على حكم مصر . ولو كان لتلك الفرية

(١) Histoire Scientifique et Militaire de l'expédition française en Egypte. 10 vols Paris 1832

ظل من الحقيقة لما أغفلها فولابل في كتابه فهو فرنسي متعصب
يهتم بابرار أثر الفرنسيين في مصر في جميع القطاعات . وقد طبع
هذا السجل التاريخي من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٣٧ ورفعه
واضعوه - وهم صفوة علماء فرنسا - الى لوى فيليب ملك
فرنسا في ذلك الوقت ، كما تولى جوفروى سان ايلير Geoffray
Sainte Hilaire تقديم اللاتاب بأجزائه العشرة الى المجمع العلمي
الفرنسي .

ونجد أيضا فرنسيين عاشا في مصر والتصقا بمحمد علي
التصاقا شديدا ، اولهما مانجا وكان موظفا سياسيا في القنصلية
الفرنسية العامة في مصر وقد وضع كتابا يقع في جزئين في تاريخ
مصر السياسي والحربي منذ جلاء الفرنسيين الى سنة
١٨٢٣ . (١) أما الفرنسي الثاني فهو الطبيب كولت بك وقد وضع
كتابا تناول تاريخ مصر على عهد محمد علي أطلق عليه « لمحة عامة
الى مصر » (٢) ولم يذكر أحد من هذين الفرنسيين شيئا على الاطلاق
عن المدور المزعوم لما نرى لسبب في توثيق محمد علي حكم مصر .

وقد تعرض ثلاثة أساتذة أجلاء ، هم : محمد شفيق غربال
ومحمد فؤاد شكرى وعبد الرحمن الرافعي لتفنيد هذه الفرية . وقد

(١) Mengin Félix: Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de
Mohammed Aly. 2 vols Paris 1823

كما وضع كتابا آخر في جزء واحد يعتبر مكملا لكتابه الاول وينناول تاريخ
مصر من سنة ١٨٢٣ حتى ١٨٢٨ .

Histoire Sommaire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed
Aly. Paris. 1839

(٢) Clot Bey A. B. Aperçu Général sur L'Egypte , Paris. 1840

قرر الاستاذ غربال في كتابه القيم الذي وضعه باللغة الانجليزية (١) أنه لم يعثر في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية في باريس في القسم الخاص بأوراق السفارة الفرنسية في الآستانة على أية وثيقة يشتم منها أن قام أحد السفيرين اللذين تعاقبا على دار السفارة الفرنسية في الآستانة ابان تلك الفترة بأية خطوة أو مسعى لدى دوائر الباب العالي لتأييد هذا الألباني أو تدعيم مركزه أو التوصية بتعيينه واليا على مصر . وكان هذان السفيران هما برين Guillaume Brune وسبستيانى Herace Sébastiani . ونعى الاستاذ غربال على ماتبولسبس سوء خلقه ، وأنه اتخذ من منزله حانة يبيع فيها بأسعار مخفضة النبيذ وغيره من أنواع الخمور مستغلا الاعفاءات الجمركية التي تمنح لأعضاء السلك القنصلي . وكان يقدم بعض الكميات من الخمور الى الرؤساء الألبانيين بمثابة هدايا لقاء وعدهم بعدم الاعتداء عليه وعلى الرعايا الفرنسيين . ثم تعرض الاستاذ غربال لهذه الاسطورة بعد ذلك في كتاب وضعه باللغة العربية (٢) وكان مما جاء فيه « كان من شأن انهماك كل من فرنسا وأعدائها فيما وصفنا (الحروب) أن انعدم التأثير الأوربي انعداما يكاد يكون تاما في الحوادث التي جرت في مصر فيما بين سنة ١٨٠١ و ١٨٠٥ والتي انتهت ببلوغ محمد علي ولاية الأمر . ولا صحة لما اختلقوه من بحث القنصل الفرنسي عن رجل جدير بعطف الحكومة الفرنسية واهتدائه الى محمد علي وكتابته لحكومته بهذا « الترشيح » وتأيد فرنسا لذلك لدى الباب

Shafik Ghorbal. The Beginings of the Fgyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. London. 1928. pp 213-216,222-223 and 226

محمد شفيق غربال : محمد علي الكبير . أعلام الاسلام القاهرة ، اكتوبر ١٩٤٤ ،

العالي - لم يحدث شيء من هذا قطعا ، ولم يتجاوز هم القنصل الفرنسي حماية نفسه ومواطنيه في الاضطراب السائد في القاهرة وقد ضعف النفوذ الفرنسي في القسطنطينية في تلك السنوات لدرجة أن حكومة الباب العالي رفضت الاعتراف بنابليون امبراطور على الفرنسيين ، وكان ذلك تحت املاء الروسيا . وانسحب السفير الفرنسي وانقطعت العلاقات بين الدولتين زمنا . ولكن انتصار نابليون في أوسترلتز قرب نهاية سنة ١٨٠٥ وتمزيقه التآلب الأوربي باخراج النمسا من الحرب . غير الموقف للدولة العثمانية لمصر تغيرا كبيرا ، وواجه محمد علي بعد ١٨٠٥ نتائج ذلك التغير . « (١)

أما الأستاذ شكرى (٢) فقد سجل نشاط ماتبولسبس وتحركاته في مصر منذ قدومه اليها حتى رحيله عنها وخرج من دراسته الضافية بقوله « انه لم يكن له يد أو فضل فيما وقع من حوادث ، ولم يول محمد علي تلك الثقة أو يسد اليه تلك المعاونة التي توهما كثيرون وعزوا بسببها خطأ الفضل في توجيه محمد علي ومساعدته في آخر الأمر على الوصول الى منصب الباشوية . »

ويقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى « وبقينا ان هذه رواية خيالية لا أصل لها ولا يؤيدها منطق الحوادث ، ولم تستند الى مصدر موثوق بصحته ، ولم ترد في المصادر المعتمدة . . . على أن تسلسل الحوادث التي بسطناها تدل على أن محمد علي لم يصل الى منصب الولاية الا بفضل تحببه الى الشعب المصرى وزعمائه واختيارهم اياه

(١) المرجع السابق ، ص ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر فى القرن التاسع عشر ١٨٠١ -

١٨١١ - القاهرة ١٩٥٨ ثلاثة أجزاء . ج ١ ص ص ٤٨ - ٨٣ .

واليا . أما كون فرنسا رأت من مصلحتها السياسية أن تشد أزر محمد على بعد تقلده الولاية وتؤيده ضد دسائس السياسة الانجليزية فهذه مسألة أخرى (١) .

وأخيرا فقد ظهر في سنة ١٩٥٠ بحث للعالم الفرنسي جاستون فييت بعنوان « احتضار التسلط العثماني في مصر » لم يشر فيه من قريب أو من بعيد الى الدور المزعوم لفرنسا ولما تيولسبس بل قرر صراحة أن تولية محمد على حكم مصر قد تمت بفضل المشايخ والشعب (٢) .

مناقشة الاسطورة موضوعيا وتفنيدها :

واذا تركنا جانبا المصادر والمراجع الى المناقشة الموضوعية نجد ان ماتيو لسبس قد وصل الى مصر في أواخر شهر مايو ١٨٠٣ ، وأقام بها حتى شهر نوفمبر ١٨٠٤ ومعنى هذا أنه ارتحل عن مصر قبل أن تقوم الثورة الشعبية بزعامة عمر مكرم في مايو ١٨٠٥ والتي كان من نتائجها أن أصدر السلطان مرسوما بتعيين محمد على واليا على مصر .

وقد ازدحمت فترة اقامته في مصر بالاحداث المروعة تلاحقت في سرعة مذهلة . كانت قد بدأت هذه الاحداث قبيل وصوله بثورة الجنود الألبانيين بقيادة أحمد طاهر باشا على الوالي العثماني محمد خسرو باشا واحراق منزله واضطراره الى الهرب من القاهرة في ٢ من مايو ١٨٠٣ الى المنصورة فدمياط . ثم قيام الجنود الانكشارية بذبح أحمد طاهر باشا نفسه في ٢٦ من مايو ١٨٠٣ وطرده أحمد باشا

(١) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية . الجزء الثاني . الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨ ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) Gaston Wiet l'Agonie de la domination ottomane en Egypte.

Cahiers d'histoire égyptienne Série II No. 5-6

والى جده والمدينة المنورة الذى نادى به الجنود الانكشارية واليا على مصر بالنيابة ، وقيام حكومة ثلاثية فى القاهرة تتكون من ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى ومحمد على ، واقتياد خسرو من دمياط الى القاهرة واعتقاله فى سجن القلعة ووصول على باشا برغل - ويسمى أيضا الطرابلسى أو الجزائرى ، الوالى العثمانى الجديد الى الاسكندرية فى ٨ من يوليو ١٨٠٣ واستدراجه الى قرب القاهرة ثم ذبحه فى صحراء الشرقية فى يناير ١٨٠٤ وما تلا ذلك من وقوع انقلاب مارس ١٨٠٤ الذى أطاح بالحكومة الثلاثية والمناداة بمحمد خسرو واليا على مصر من جديد ثم عزله وتوليه أحمد خورشيد مكانه . وفى غمار هذه الاضطرابات المتلاحقة فشل ماتيوليسبس فى مهمته فى مصر سواء فى رعاية المصالح التجارية الفرنسية ، أو فى اقناع السلطات الحاكمة بتنفيذ معاهدة الامتيازات الاجنبية لصالح الفرنسيين ، أو فى وقف اعتداءات الجنود على الرعايا الفرنسيين (١) . وأثارت تصرفاته شكوك العثمانيين والمماليك على السواء . وتعددت رسائله لحكومته منذ ٢٠ من سبتمبر ١٨٠٣ يلتمس نقله من مصر الى أى ثغر أو بلد آخر فى أوروبا متعللا بمرضه وحرارة الجو فى مصر (٢) . واستجابت الحكومة الفرنسية لالتماسه فقررت نقله وأبحر من الاسكندرية فى ١٩ من نوفمبر ١٨٠٤ على عهد ولاية أحمد خورشيد .

(١) كان من أهم أسباب فشل ماتيوليسبس فى مهمته السياسة السلبية التى انتهجها بونابرت ازاء مصر ، اذ كان حريصا على الابقاء على علاقات ودية مع الباب العالى حتى لا ينضم السلطان الى انجلترا ، واهتم بونابرت أيضا بمداواة الامراء المماليك وجذبهم الى فرنسا لخدمة مصالحها التجارية . وكان استرضاء مندوبى الباب العالى والامراء المماليك معا أمرا متعذرا ان لم يكن مستحيلا لاختلاف أهداف كل من الفريقين .

(٢) انظر الوثائق الفرنسية رقم ٤٦ بتاريخ ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٠٣ ، ورقم ١٣٦ بتاريخ ١١ مايو ١٨٠٤ فى

Douin G. L'Egypte de 1802 à 1804,ouvr. cit, docs. nos. 46 et 136

وفى أعاصير هذه الفوضى السياسية التى كانت تموج بها البلاد لم يكن ماتيو لسبس يأمن على حياته ، ولم يكن فى مركز يسمح له بنصرة حزب على حزب آخر من الاحزاب المتكالبية على الحكم فى مصر ، وعلى ذلك لم يكن له يد أو توجيه أو اسهام فيما وقع فى مصر من تلك الاحداث الدامية . وكان ماتيو لسبس فى حالة نفسية سيئة وتعذر عليه السفر الى دمياط طبقا لتعليمات حكومته . وكان الالبانيون والمماليك قد نهبوا منزل الوكيل الفرنسى فى دمياط واسمه فخرى باسيلى . ولما تخرجت الامور فى القاهرة وأصبح الصدام بين محمد على والمماليك وشيك الوقوع خاف ماتيو لسبس على حياته فغادر القاهرة لاجئا الى الاسكندرية فى ٤ من مارس ١٨٠٤ قبل أن يقوم محمد على بانقلابه ليلة ١٢ - ١٣ مارس ١٨٠٤ وهو الانقلاب الذى أطاح فيه بحليفه ابراهيم بك وعثمان بك البرديسى ، فاذا كانت العلاقات وثيقة بين محمد على وبين ماتيو لسبس الذى نظر اليه - كما تزعم الاسطورة الفرنسية - على أنه رجل الموقف وسيد الغد ، فهل كان من المعقول أن يترك لسبس صفيه ومختاره محمد على فى الساعة الحرجة التى قام فيها بانقلابه ؟ لقد عاد لسبس بعد ذلك الى القاهرة تنفيذا لتعليمات بونابرت ، ولكن لم تطل اقامته بها فرجع الى الاسكندرية بعد أن أشرف على ترحيل الرعايا الفرنسيين من العاصمة الى الثغر كاجراء أمن وقائى بسبب الاضطرابات ، فبلغ بهم الاسكندرية فى ١٧ من سبتمبر ١٨٠٤ وارتحل هو من مصر فى ١٩ من نوفمبر ١٨٠٤

وتدل تقارير ماتيو لسبس التى بعث بها الى وزارة الخارجية الفرنسية أثناء اقامته فى مصر على أنه كان قليل الثقة فى مقدرة محمد على ، فقد قرر أن هذا الالبانى لا يتمتع بعبقريّة أو نبوغ يمكنانه من ابتكار خطة واسعة ووضع برنامج شامل وتدير الوسائل اللازمة لتنفيذه (١) . ووصفه فى رسالة أخرى وهو يتكلم عن أقطاب

(١) انظر الوثيقة رقم ١١٠ فى المصدر السابق .

الحكومة الثلاثية في القاهرة - ابراهيم بك والبرديسي ومحمد علي -
بأنه لص وأنه على شاكلة قطاع الطرق . وقال متهمكما في نفس
الرسالة انه يشعر بسعادة اذ يعيش في وكر هؤلاء القتلة العصاة
المشاغبين الذين يتظاهرون بالحيادة الكاذبة المزيفة بينما هم جميعا
قد باعوا أنفسهم للانجليز (١) وقبل أن يغادر مصر كانت مكانة
محمد علي قد هبطت في عيني ماتيولسبس بدلا من أن تعلو فقد ذكر
أن المال هو المحرك الاول لتصرفاته .

ونضيف الى هذه النقاط حقيقة هامة هي الخطوة الاولى
والاخيرة التي اتخذها نابليون وسط السياسة السلبية التي اتبعها
إزاء مصر . وكانت هذه الخطوة في لحمتها وسداها تعبيرا عن اتجاه
نابليون الى التعاون مع الامراء المماليك وليس مع محمد علي لاقامة
حكومة ثابتة الدعائم تقضى على الفوضى السائدة في مصر ، وترعى
المصالح الفرنسية فيها ، وتقف في وجه انجلترا اذا حاولت غزو
مصر . فقد أوفد الامبراطور نابليون الى مصر فراميري Frameri
بلغ القاهرة في ٣٠ من ابريل ١٨٠٤ يحمل رسالة بالشفرة الى
ماتيولسبس يطلب فيها الاتصال بالامراء المماليك والوقوف منهم على
المساعدة التي ينشدونها من فرنسا . وقد بعث لسبس برسالتين
بهذا المعنى الى ابراهيم بك الكبير وعثمان بك البرديسي عن طريق
السيدة نفيسة أرملة مراد بك . ولكن أبدى هذان الاميران نوعا من
التحفظ خشية أن يقع ردهما في أيدي العثمانيين بسبب الرقابة
الصارمة التي كان يفرضها العثمانيون على تحركات المماليك . فلجأ
لسبس الى يوسف دوكلوس Joseph Duclos أحد رجال الحملة
الفرنسية الذين آثروا البقاء في مصر بعد جلاء الفرنسيين ودخل في
خدمة عثمان بك البرديسي واكتسب ثقته . وقد ذكر له البرديسي
أنه في حاجة الى نجدة عسكرية فرنسية قوامها ثلاثة آلاف جندي

(١) أنظر الوثيقة رقم ٦٠ في المصدر السابق .

وخمسة آلاف بندقية بالسونكي وعشرة مدافع ميدان تسحبها الخيل
 وخمسة مدافع هاون وألف سيف وذخائر حربية أخرى فضلا عن
 قرض قدره مائتا مليون فرنك . واتفق على أن تكون دمياط هي
 الميناء الذى تفرغ فيه هذه الاسلحة (١) . واذا كانت خطوة نابليون
 قد وقفت عند هذا الحد فانه يهنا هنا أن نقرر أن تفكير امبراطور
 فرنسا لم يتجه الى محمد على لقيام مثل هذا التعاون ووضعه على
 رأس الحكومة التى تبغى الحكومة الفرنسية اقامتها فى مصر .
 وبذلك ينتفى قيام نابليون باى مسعى لدى دوائر الباب العالى
 لمساعدة محمد على بتعيينه واليا على مصر .

لقد أدرك محمد على بدهائه أنه ليس فى مقدور قنصل فرنسا
 ولا فى استطاعة قنصل انجلترا أن يعمل شيئا سواء لمصلحته أو
 ضد مصلحته ، ولكنه أدرك أن القوة التى يعتمد عليها تتمثل فى
 حلفاء جدد لم يفتن لهم من سبقه من الولاة . وكان هؤلاء الحلفاء
 هم الشعب وزعماءه المشايخ علماء الأزهر واعتمد بوجه خاص على
 السيد عمر مكرم كبير زعماء مصر .

(١) أنظر تفاصيل وافية عن هذه الاتصالات فى الوثيقة رقم ١٤٨ فى

المصدر السابق .

البَابُ الْخَامِسُ

مساندة الزعيم لمحمد علي في الأزمات

الفصل الثانى عشر

أزمة الحركة المملوكية والنقل من مصر

لم تمض أربعة أيام على رحيل خورشيد من القاهرة حتى واجه محمد على موقفا عسكريا دقيقا كاد يعصف به لولا أن نجح عمر مكرم فى تخفيف حدته واستطاع محمد على اجتياز الأزمة بسلام . فكر المماليك فى تدبير هجوم غادر على القاهرة ليستولوا عنوة على الحكم واختاروا يوم ١٦ من أغسطس ١٨٠٥ موعدا لتنفيذ الهجوم ، وكان هو اليوم المحدد للاحتفال بوفاء النيل حيث يخرج محمد على وجنوده الى مصر القديمة للاشتراك فى الحفل ، وتكون القاهرة خالية من المدافعين . وأراد المماليك استمالة عمر مكرم ليقف الى جانبهم ضد محمد على ولكنه رفض التعاون معهم . واتفق الاثنان على استدراج المماليك الى داخل القاهرة ، وطلب عمر مكرم من الأهالى الذين يحرسون باب الفتوح أن يتركوا المماليك يدخلون المدينة . وفى اليوم المحدد لم يذهب محمد على ولا عمر مكرم الى مصر القديمة، اذ تم كسر السد وفتح الخليج ليلا دون أن يشعر أحد بهذه الحركة .

ومع شروق شمس اليوم المحدد دخل المماليك من باب الفتوح وساروا بأسلحتهم مخترقين شوارع العاصمة فى حشود عسكرية وتسير أمامهم موسيقاهم . وبلغت بهم الغفلة ان اعتقدوا أن الشعب تجاوب معهم واتجه رؤسائهم الى دار عمر مكرم فرفض مقابلتهم فذهبوا الى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ

الازهر . وهناك وافاهم عمر مكرم وطلبوا تأليب الشعب على محمد علي . فأوضح لهم عمر مكرم ألا ينتظروا منه عوناً أو تأييداً، وانكر عليهم حركتهم . فادركوا أن الزعامة الشعبية لا تؤيدهم وهبطت روحهم المعنوية . ودار القتال رهيباً في شوارع القاهرة بين المماليك وبين جنود محمد علي . وعمل عمر مكرم على تجنب الشعب ويلات هذا القتال الذي انتهى بهزيمة منكرة لقيها المماليك . وسيق الأسرى وحملت رءوس القتلى الى محمد علي الذي أمر باستدعاء الجزارين فسلخوا الرءوس امام الأسرى ثم أحضر « جماعة من الاسكافية فحشوها تبناً وخطوها » ثم قتل جميع الأسرى وفعل برءوسهم ما فعله برءوس القتلى ووضعها في صناديق وشحنت الى الآستانة .

ولا ريب أن الدور الذي قام به عمر مكرم في التخلي عن قضية المماليك كان له أثره في فشل الحركة المملوكية إذ لو كان الشعب قد انضم الى المماليك لتعذر على جنود محمد علي الحرب في جبهتين في وقت واحد . وكان المصريون في نشوة الانتصار على الباشا السابق أحمد خورشيد وروح النضال متأججة فيهم ، فقد تم هجوم المماليك بعد أربعة أيام من ترحيل خورشيد . وكانت الاسلحة لا تزال في أيدي القاهريين تنفيذا للأمر الذي كان عمر مكرم أصدره « باستمرار الناس على التحذر والسهر وضبط الجهات . »

أزمة النقل من مصر :

وما لبث أن واجه محمد علي أزمة عنيفة حين أصدر السلطان في يونيو ١٨٠٦ عدة فرمانات بنقل محمد علي الى سالونيك ونقل موسى باشا والي سالونيك الى مصر والعفو عن الأمراء المماليك . وأرسل الباب العالي أسطولاً بقيادة صالح باشا قبودان الذي بلغ الاسكندرية في ٢٧ من يونيو ١٨٠٦ للاشراف على تنفيذ الوضع

السياسى الجديد فى مصر . وكانت هذه هى أخطر أزمة تهددت محمد على منذ أن عين واليا على مصر ولم تجر العادة أن يكون استبدال وال بوال مقرونا بمثل هذه المظاهرة الحربية .

ولما وصل صالح باشا الى الاسكندرية أرسل - كاجراء تمهيدى - خطابا الى عمر مكرم فيه دعوة صريحة لأهل القاهرة وعلمائها بطاعة أمر السلطان وحمل السلاح فى وجه محمد على وجنوده اذا رفضوا مغادرة القاهرة . كما تلقى عمر مكرم خطابا بهذا المعنى من محمد بك الألفى . أما محمد على فكان قد وقف على تفاصيل هذا التغير السياسى وعول على التمسك ببقائه فى مصر ولو أدى الأمر الى محاربة السلطان واتجه فكره منذ ظهور الأزمة الى عمر مكرم وأفضى اليه برغبته فى عدم تنفيذ فرمان والاستعانة بالزعامة الشعبية وتعبئة الراى العام للوقوف الى جانبه واتخاذ اجراءات عسكرية لمواجهة تطورات الموقف وفى نفس الوقت يتظاهر محمد على بالامتنال لأوامر السلطان وطلب محمد على من عمر مكرم مساندته فى هذه الازمة فلقى استجابة سريعة .

أرسل صالح باشا فرمان الى محمد على فتظاهر بأنه مستعد لتنفيذ أمر النقل فورا ، ولكنه انتحل العذر التقليدى وهو ضرورة دفع المرتبات المتأخرة للجنود قبل رحيله عن مصر وتبلغ عشرين ألف كيس ، وقرر أن موارد الحكومة تعجز عن تدبير هذا المبلغ فى أمد وجيز واستدعى محمد على بعد ذلك عمر مكرم والمشايخ اليه وأطلعهم على فرمانات وفيها ان الامراء المماليك تعهدوا للسلطان بخدمة الدولة والحرمين الشريفين وارسال غلالها ودفع الجزية وتأمين البلاد وان السلطان عفا عنهم وفق هذه الشروط وبشرط أن يضمن المشايخ والعلماء عهدهم . وانهى محمد على الاجتماع بمطالبة العلماء بالتفكير مليا فى هذا الموضوع .

كانت الفقرة الأخيرة هي الثغرة التي استطاع محمد علي أن ينفذ منها إلى عقول الزعماء وهي أن الباب العالي يعتبرهم ضادين وكافلين للماليك عندما تصير اليهم مقاليد الحكم في مصر . وكان محمد علي مطمئنا كل الاطمئنان إلى أن عمر مكرم سينجح في اقناع المشايخ بأن يوقفوا موقفا إيجابيا في هذه الأزمة فيعلنوا معارضتهم صريحة في عودة الأمراء الماليك إلى الحكم تأسيسا على أنهم لا يستطيعون ضمان سلوك الماليك ويسجلون تمسكهم ببقاء محمد علي واليا على مصر .

كان الطريق أمام عمر مكرم ميسرا معبدا لسببين أحدهما اقتصادي والآخر سياسي اجتماعي . أما السبب الاقتصادي فإن محمد علي كان قد أغدق نعمه ظاهرة وباطنة على المشايخ علماء الأزهر فوزع التزام القرى التي كانت في أيدي الماليك على المشايخ وأصبح الرزق يأتيهم رغدا من كل مكان ، وكان محمد علي لا يزال في حاجة إلى تأييد المشايخ له فاستكثر لهم من حصص الالتزام . ونجم عن ذلك أن تلاقى مصلحتهم مع بقاء محمد علي في مصر خوفا من أن يعصف الماليك بهذه الامتيازات . وكان محمد علي قد دأب لمصلحته على طلب المشورة من المشايخ في شئون الحكم وظفر هؤلاء في أعين الجماهير بمركز سياسي واجتماعي مرموق .

وعقد عمر مكرم اجتماعا في داره شهدته ديوان أفندي - السكرتير الخاص لمحمد علي - ومترجم تركي واشترك الثلاثة في وضع وصياغة مذكرة تكتب باسم المشايخ إلى السلطان . وفي اليوم التالي أرسل محمد علي هذه المذكرة إلى الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر وطلب منه توقيع المشايخ عليها « فلم تسعهم المخالفة »

وانطوت هذه المذكرة على التماس من العلماء باعفائهم من كفالتهم للأمراء الماليك « لان شرط الكفيل قدرته على المكفول

ونحن لا قدرة لنا على ذلك » وأخذت المذكرة تسرد أمثلة من مظالم المماليك في مصر ثم قالت « ولا يمكننا التكفل والتعهد ، لاننا لا نطلع على ما في السرائر ، وما هو مستكن في الضمائر ، فنرجو عدم المؤاخذه في الامور التي لا قدرة لنا عليها ، لاننا لا نقدر على دفع المفسدين والطفاة المتمردين الذين اهلكوا الرعايا ودمروهم » ودافعت المذكرة عن محمد على وسياسته في مصر ويلاحظ ان المذكرة كانت حريصة على اعلان ولاء المشايخ للسلطان على أساس أنه خليفة المسلمين وانصب الالتماس على الاعتراض على نقل محمد على واعادة المماليك الى حكم مصر ورفض العلماء كفالة المماليك . وقد كتبت نسختان من هذه المذكرة أرسلت احدهما الى السلطان والاخرى الى صالح باشا قبودان في الاسكندرية .

لم يكثر صالح باشا بهذه المذكرة واعتقد ان في مقدوره تنفيذ الفرمانات التي حملها معه بتغيير الوضع السياسي في مصر وكان مسرفا في تفاؤله على أساس أن محمد على لا يجزؤ على أن يكون للسلطان عصيا ، وأن المماليك سيستفيدون من هذه الفرصة الذهبية التي اتاحت لهم لاستعادة سلطتهم فيوحدون صفوفهم واعتقد ان ممالك الوجه القبلي سوف ينفرون خفافا وثقالا الى محمد بك الالفي ويشكلون جبهة متحدة ضد محمد على .

تأسيسا على هذا الاعتقاد أرسل صالح باشا قبودان خطابا الى السيد عمر مكرم وخطابا ثانيا الى الشيخ محمد السادات وخطابا ثالثا الى المشايخ عامة . وكلها على نسق واحد وباللغة العربية « ومضمون الكل الاخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته سالونيك ، وولاية السيد موسى باشا المنفصل عنها مصر ، وان يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال للأوامر والاجتهاد في المعاونة ، وتشهيل محمد على باشا فيما يحتاج اليه من السفن ولوازم السفر ليتوجه هو وحسن باشا والى جرجا من طريق

دمياط بالاعزاز ، وصحبتهم جميع العساكر من غير تأخير حسب
الأوامر السلطانية » وقد جاء بهذه الخطابات من الاسكندرية
رسول خاص . وقد وصل القاهرة في ١٤ من يوليو ١٨٠٦ وكان
يحمل ايضا خطابا بهذا المعنى مكتوبا باللغة التركية الى محمد
على .

ولم يكذ يتلقى المشايخ الخطاب المرسل اليهم حتى توافدوا
على دار عمر مكرم ، وعقدوا اجتماعا طارئا ورأوا أن ينتقلوا بكامل
هيئتهم الى محمد على ولما استقروا بمجلسه دارت مناقشة اورد
الجبرتي طرفا منها على النحو الآتي :

محمد على : هل وصلت اليكم المراسلات الواردة صحة
السلحدار ؟

المشايخ : نعم

محمد على : وما رأيكم في ذلك ؟

الشيخ عبد الله الشرقاوي : ليس لنا رأى ، والرأى
ما تراه . ونحن الجميع على رأيك .

محمد على : في غد ابعث اليكم صورة تكتبونها في رد
الجواب .

وفي اليوم التالى بعث محمد على لهم بصورة عريضة نشر
الجبرتي مضمونها فقال « ان الأوامر الشريفة وصلت اليها ،
وتلقيناها بالطاعة والامتثال ، الا أن أهل مصر ورعيتها قوم
ضعاف ، وربما عصت العساكر عن الخروج ، فيحصل لأهل البلد
الضرر وخراب الدور وهتك الحرمات وانتم أهل للشفقة والرحمة
والتلطف » وقد نسخ المشايخ صورة من هذه المذكرة لترسل
الى صالح باشا قبطان ، وكانت هذه هى العريضة الثانية التى

أرسلوها اليه وقد سافر بها شاكر أغا السلحدار الى الاسكندرية ومحملا بهدايا من محمد على الى صالح باشا . والواقع ان هذه المذكرة تخفى وراءها ما بيته محمد على من نزوع الى العصيان وتمسك بالبقاء واليا على مصر مستندا الى تأييد الزعامة الشعبية له ومشركا اياها معه في موقف المعارضة . وقد أفصح محمد على في احدى المرات عن مكنون نفسه في حديث له مع فيلكس مانج Felix Mengin وهو موظف دبلوماسي في القنصلية العامة لفرنسا بمصر بقرر انه كان بصفته الدبلوماسية يتصل بمحمد على كل يوم ابان هذه الازمة فقال « لقد استوليت على القاهرة بحد السيف ، ولن اتركها الا بحد السيف . ان القاهرة ليست حماما عاما يدخله أى فرد بسهولة » (١) .

غير أن القبطان باشا كان لا يزال عند رايه وجشعه : فقبل الهدايا من ناحية ، ورفض الأخذ بما جاء في عريضة العلماء الثانية من ناحية ثانية ، وأرسل رسولا الى القاهرة يحمل رده على عريضة المشايخ ، واذا به يقول « ان القبودان لم يقبل هذه الأعذار ولا ما نمقوه من التموهيات التى لا أصل لها ، ولا بد من تنفيذ الأوامر وسفر الباشا ونزوله هو وحسن باشا وعساكرهما وخروجهم من مصر . وذهابهم الى ناحية دمياط وسفرهم الى الجهة المأمورين بالذهاب اليها ، ولا شئ غير ذلك أبدا » .

لم يكن أمام قائد الاسطول وموسى باشا الوالى الجديد الا أن يعلقا آمالهما على الصراع الذى احتدم بين محمد على وبين محمد بك الالفى . واعتقد ان القوات المملوكية سوف تحرز انتصارا خاطفا تسحق به قوات محمد على وترغمه مع بنى جنسه من الجنود الالبانيين على الرحيل عن مصر . وأخذ صالح

(١) Mengin, ouvr. cit, t I p. 221

باشا وموسى باشا يراقبان الموقف الحربى وتطوراتيه ، ووفق
الثانى يتلقى الهدايا وهى تنهال عليه من يمين وشمال : من
الطرفين المتحاربين محمد على والالفى . ولكن اغفل قبودان
باشا من حسابه عاملا هاما هو الدور الذى قام به عمر مكرم فى
تحريض سكان دمنهور على الاستبسال فى مقاومة قوات الالفى .

كاد الالفى حين علم بتحرك الاسطول العثمانى الى الاسكندرية
قد انتقل بقواته من حوش عيسى بانبجيرة الى دمنهور يروم
الاستيلاء عليها لاتخاذها قاعدة له فحاصر دمنهور ووجه نداء
الى سكانها قال فيه . . « لقد علمت أن فرمانا صدر من الباب
العالى باعطائى حكومة مصر ، وسوف اذهب الى القاهرة فور
تسلمى له لتنفيذ الاوامر التى يتضمنها ، واقوم حينئذ بتصريف
الامور ، ولذلك فانى اطلب منكم أن تفتحوا لى ابواب مدينتكم
حتى يكون هذا العمل من جانبكم دليلا على ولائكم وطاعتكم
للسلطان وتنفيذكم لاوامره وعندما اتسلم مقاليد الحكم سوف
تكافئون على مسلككم . » ولكن بدلا من التسليم اسرع اهل
دمنهور بارسال هذا النداء الى عمر مكرم الذى اعطاه بدوره الى
محمد على وبعث عمر مكرم يطلب منهم عدم تسليم المدينة
ويشجعهم على المضى فى محاربة الالفى الذى تعذر عليه اقتحام
المدينة .

وتلاقت قوات محمد على مع قوات الالفى فى معركة دامية
فى النجيلة - على الشاطئ الغربى لفرع رشيد جنوبى الرحمانية
- وانتصر المماليك انتصارا ساحقا وألقوا بجنود محمد على فى
النيل ويقول الجبرتنى أن نهر النيل امتلا سطحه بطراير الدلاء
اذ كان من عادة هؤلاء الجنود أن يضع كل منهم فوق رأسه
طرطورا . وكان لهذه الهزيمة وقع اليم فى نفس محمد على
وزادت هواجسه حين علم بتسلسل جواسيس الالفى والقبطان

باشا الى القاهرة يحرضون أهلها على الثورة فى وجه محمد على وعمل عمر مكرم على توعية الجماهير فى ذلك الوقت العسير .

وتوالى مساعدات عمر مكرم لمحمد على فى مراحل الازمة فقد واجهت الاخير مشكلة طارئة ساعده عمر مكرم فى تسويتها بعد ان بدت بوادر استفحالها . تخاصم عرب الحويطات والعبادة واحتشد الفريقان حول القاهرة ونشب القتال بينهما عنيفا جامحا هادرا وتعذر السفر بين القاهرة والبلاد المحيطة بها ، وانضم محمد على الى عرب الحويطات . وتدخل عمر مكرم فجمع زعماء الفريقين فى داره وأصلح بينهم وفاءوا الى أمر الله . واستطاع عمر مكرم ان يقضى على عامل من عوامل الاضطراب كان فى مقدور جواسيس الاتراك والمماليك استغلاله لمصلحتهم ومن جهة اخرى اراح عمر مكرم سكان القاهرة من مضايقات قتال العربان وعادت وسائل الاتصال بين العاصمة وما جاورها من الريف لتأخذ مواد التموين طريقها الى اهل القاهرة فى يسر وأمن

واتجه الالفى بعد انتصاره فى معركة النجيلة لمحاصرة دمنهور مرة اخرى واستمع أهلها لتوجيه عمر مكرم وكانت المدينة داخلية فى دائرة التزامه وصمموا على الدفاع عن مدينتهم حتى النهاية وامتد حصارها ثلاثة أشهر وفشل الالفى فى الاستيلاء عليها .

رأى صالح باشا اخفاق المماليك العسكرى أمام دمنهور وادرك انهم لا يزالون يعيشون بعقليتهم القديمة من الانقسام والتنافس ، فقد ظل الامراء القبليون مرابطين فى معاقلم فى الصعيد ولم ينضموا الى الالفى وكان محمد على قد عرف نقط الضعف فى القبطان باشا وهى شراسته لجمع المال لنفسه فأغدق عليه الكثير من الرشا والهدايا . وفى نفس الوقت كان رسل محمد على

فى الاستانة يبدون استعدادة لدفع مزيد من الاموال ثمنا لشراء موافقة السلطان على ابقائه فى مصر وأصبح واضحا ان القبطان باشا عاجز عن اقامة الوضع السياسى الجديد بالطرق السلمية ولم يكن أمام الباب العالى سوى احدى وسيلتين اما تعزيز الحملة عسكريا حتى تستطيع طرد محمد على وجنوده من مصر واما التسليم بالامر الواقع وابقاء محمد على فى منصبه . ودارت اتصالات بين القبطان باشا وبين الباب العالى اسفرت عن تثبيت محمد على فى منصبه بشروط ثلاثة هى ان يضع المشايخ عريضة جديدة يقررون فيها تمسكهم بمحمد على تأكيدا لما ورد فى عريضتهم السابقتين وكان الغرض من هذا الشرط هو تغطية موقف السلطان واخفاء فشله فى نقل محمد على . اما الشرط الثانى فقيام محمد على بدفع اربعة آلاف كيس أى عشرين الف جنيه ، وكان الشرط الثالث هو أن يقيم ابنه ابراهيم رهينة فى الآستانة حتى يتم دفع المبلغ . وقبل محمد على هذه الشروط .

كتب المشايخ عريضة ثالثة ومن بين ثنايا السطور التى كتبها الجبرتى يتضح دور عمر مكرم فى هذه المذكرة فهو يقول ان هذا العرضحال « لم يطلع عليه الا بعض الافراد المتصدرين » وكان عمر مكرم هو رأس المتصدرين وأكثر زعماء الشعب التصاقا بمحمد على . وصدر الفرمان بتثبيت محمد على واليا على مصر وتلى هذا المرسوم فى حفل كبير وكان مما جاء به « ابقاء محمد على باشا واستمراره على ولاية مصر حيث ان الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء واشراف الناس ، وقبلنا رجاءهم وشهادتهم ... »

والحق ان محمد على اعتمد على ثلاث وسائل لمواجهة أزمة نقله من مصر . كانت الوسيلة الاولى علنية تمثلت فى الزعامة الشعبية وعلى رأسها عمر مكرم الذى كان لمحمد على نعم العضد

الأمين . أما الوسيلة الثانية فكانت مستترة ونعنى بها الرشوة
قدمها محمد علي بسخاء من أموال الشعب الى السلطان ورجالاته .
أما الوسيلة الثالثة فهي القوة العسكرية وبينما نجحت الوسيلتان
الأوليان : الزعامة الشعبية والرشوة من أموال الشعب فقصد
أخفقت الوسيلة الثالثة وكانت آية هذا الفشل الهزيمة المنكرة
التي لقيتها قواته في معركة النجيلة حتى امتلأ سطح النيل بطراير
جنوده الدلاة .

الفصل الثالث عشر

دور الزعيم ابان العدوان البريطاني على مصر سنة ١٨٠٧

بواعث الحملة البريطانية :

تعرضت مصر في ربيع ١٨٠٧ لحملة عسكرية بريطانية كانت تضم اخلاطا شتى من الانجليز ومن الجنود المرتزقة في شسبه الجزيرة الايطالية ومن المهاجرين الفرنسيين الذين اتخذوا موقفا عدائيا من الثورة الفرنسية . وقد تحركت هذه الحملة من جزيرة صقلية التى اتخذتها انجلترا احدى القواعد العسكرية فى البحر المتوسط فى حروبها ضد نابليون .

ولم يكن هدف الحملة غزو مصر واحتلالها ولكن احتلال الاسكندرية فحسب (١) لعدة اغراض ، منها : منع نزول حملة فرنسية فى هذه البلاد ، اذ سيطرت على عقول رجال السياسة والحرب فى انجلترا ان فرنسا ستحاول لا محالة انفاذ حملة عسكرية مرة اخرى الى مصر . واعتقدت الحكومة البريطانية انها ارتكبت حماقة كبرى بجلاء القوات البريطانية عن مصر فى مارس ١٨٠٣ تنفيذا لصلح أميان ^{Amiens} الذى عقد بينها وبين فرنسا بتاريخ ٢٧ مارس ١٨٠٢ ، لأن الحرب سرعان ما استؤنفت بين الدولتين بعد شهرين من جلاء القوات البريطانية عن مصر ، ورات

(١) انظر الوثيقتين رقم ١ ، ورقم ٩ فى مجموعة الوثائق الانجليزية .

Douin G. et Mme Fawtier Jones, L'Angleterre et l'Egypte.
La campagne de 1807 Le Caire 1928.

الحكومة البريطانية أنه كان يجدر بها التمسك ببقاء قواتها في مصر على غرار ما فعلت في جزيرة مالطة على الرغم من أن صلح أميان قد نص على جلاء الانجليز عن مصر ومالطة ، ومما زاد في قلق الحكومة البريطانية أن ميسيت Misset القنصل البريطاني العام في مصر أخذ يردد في رسائله العديدة لحكومته أن مصر قد مزقتها فوضى سياسية عارمة ، وأن العثمانيين عاجزون عن دعم نفوذهم فيها ، وأن الامراء المماليك منقسمون متناحرون ، وأن الوكلاء الفرنسيين يبذلون مساع متصلة لدى محمد علي وبعض الامراء المماليك لبسط النفوذ الفرنسي في ربوعها . وخرج القنصل العام من هذه الصورة القاتمة التي رسمها لحكومته بأن مصر ستكون فريسة سهلة للفرنسيين . فكان العامل الحاسم في ارسال الحملة هو تصحيح الخطأ الذي اعتقدت الحكومة البريطانية انها وقعت فيه بتنفيذ الجلاء عن مصر في مارس ١٨٠٣ . وكان من بين اغراض الحملة أيضا تأييد البيوت المملوكية الصديقة لبريطانيا أي جماعة محمد الالفى بك تمهيدا لانشاء حكومة مملوكية ذات ميول ودية نحو انجلترا ، وتقوم على انقراض حكومة محمد علي وتعمل على اقصاء النفوذ الفرنسي وبسط النفوذ البريطاني في سائر البلاد ، ووضع نظام للدفاع عن مصر بمعاونة المماليك الموالين لها يحول بين الفرنسيين وبين ما يشتهون من امتلاك مصر اذا جاءوا بحملتهم المرتقبة اليها . واستهدفت انجلترا من هذه الحملة أيضا الضغط على الباب العالي وازعاجه لحمله على نبذ صداقة فرنسا والوقوف الى جانب انجلترا وروسيا .

كانت الحملة بقيادة فريزر Major General Mackenzie Fraser وظهرت تجاه الاسكندرية في ١٦ مارس ١٨٠٧ وبدأ انزال الجنود في اليوم التالي . ولقى الفزاة مقاومة من أهل الاسكندرية الذين وقفوا بأسلحتهم خلف أسوار المدينة ، ولم يكن حاكمها الى ذلك

الوقت تابعا لحكومة القاهرة ، بل كان خاضعا مباشرة للباب العالي
وكان رجلا تركيا يسمى أمين آغا استطاع قنصل بريطانيا العام
رشوته فسلم الاسكندرية ودخلها جنود الحملة في ٢٠ من مارس
١٨٠٧ .

أهل دمنهور يتصلون بعمر مكرم

تلقى السيد عمر مكرم في ٢ من أبريل ١٨٠٧ رسالة من أهل
دمنهور قالوا فيها ان أفراد حامية الاسكندرية قد ولوا الأدبار
بمجرد وصول البريطانيين اليها ، وانهم قد حضروا الى دمنهور ،
واستولى الدعر على كاشف المدينة (١) وامتد هذا الدعر الى جنود
حامية دمنهور وعزموا على الهرب منها فناشدتهم سكان المدينة
الثبات في مواقعهم والانضمام اليهم للوقوف في وجه المعتدين ،
وقالوا لهم - كما جاء في خطابهم الى عمر مكرم - « كيف تتركونا
وتذهبون ؟ ولم تروا منا خلافا . وقد كنا فيما تقدم من حروب
الالفى من أعظم المساعدين لكم فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضا
في حروب الانكليز ؟ » ولكنهم لم يستمعوا لصوت الضمير ، وأعمى
الفزع والجبن بصائرهم فجمعوا أمتعتهم وأثقالا مع أثقالهم وخرجوا
ليلا من دمنهور الى فوه . وفي اليوم التالي أرسل كاشف دمنهور
قوة من رجاله أخذت مدافع وذخائر وأسلحة الحامية من مواقعها
وهكذا لم يكتف كاشف دمنهور بالهروب منها بل حال بين سكانها
وبين استخدام أسلحة الحامية في الدفاع عن المدينة . وقد سجل
سكان دمنهور كل هذه الوقائع في خطابهم الى عمر مكرم وكان

(١) الكاشف لقب يطلق على حاكم اقليم أقل مساحة ومرتبة وأهمية من
المديرية . وكان يطلق على الاقليم الذي يحكمه الكاشف : كشوفية . أما المديرية
فكان يطلق عليها صنجقية يحكمها صنجق . وقد تغيرت هذه الاسماء بعد أن
استقر محمد علي في حكم مصر .

خطابهم يفيض بالأسى والألم من تصرفات هذا الحاكم (١) . وكان الاعتقاد السائد لديهم أن الحملة البريطانية ستسير على نفس الخطة الحربية التي انتهجتها الحملة الفرنسية بمعنى أنهم كانوا يتوقعون أن يزحف البريطانيون على دمنهور وهم في طريقهم إلى القاهرة على غرار ما فعل بوناپرت .

دور الزعيم في استنفار الشعب لرد العدوان البريطاني

حمل الشعب المصرى عبء الكفاح لصد العدوان بصورة رائعة تجلت فيها روح البذل والتضحية والفداء ، وأعادت إلى الأذهان ذكرى نضاله المجيد إبان العدوان الفرنسى . يقول الجبرتى أن أهالى الاسكندرية حين ترامت إليهم أنباء الغزو البريطانى المحتمل شرعوا فى أواخر فبراير ١٨٠٧ فى تحصين القلاع والأبراج المقامة فى الاسكندرية وأبى قير . ولكن لم تجد نفعا هذه الاستعدادات الحربية أمام الخيانة التى حمل لواءها أمين أغا حاكم الاسكندرية المرتشى .

فلما بلغت القاهرة أنباء الحملة واحتلالها الاسكندرية عقدت عدة اجتماعات كان بعضها فى منزل عمر مكرم والبعض الآخر فى منزل نائب محمد على - وحضر هذه الاجتماعات كبار المشايخ وكتبوا إلى محمد على - وكان فى الصعيد يقاتل المماليك - يطلبون منه العودة ومن معه من الجنود «ليستعد لما هو أولى وأحق بالاهتمام» ولكن محمد على تملكه فزع شديد يصفه الجبرتى فى أكثر من موضع فيقول « داخله وهم كبير ، ارتبك فى أمره ، انحلت عزائمه » وعزم على العودة متثاقلا متباطئا فى السير ظنا منه أن البريطانيين يسبقونه إلى القاهرة فيسير مشرقا إلى الشام ، ويكون غيابه عن القاهرة والوجه البحرى مبررا له أمام الباب العالى فى عدم اشتباكه مع

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٤٦ - ٤٧ حوادث ٣٣ من محرم ١٢٢٢ .

البريطانيين (١) ، ولكنه فى نفس الوقت لم يستسلم تماما لليأس، فظلت تراوده الآمال فى أن تساعد الظروف على اجتياز هذه الازمة ويظل متربعا فى حكم مصر . فأرسل الى المشايخ يطلب اليهم القيام بدور الوساطة فى الصلح بينه وبين الأمراء المماليك وأنه يقبل كل ما يشترطونه « ولا يخالفهم فى شىء يطلبونه أبدا »

لم ينتظر عمر مكرم قدوم محمد على بل تولى قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها ، فطلب من الجماهير التأهب لقتال الانجليز وأمرهم بحمل السلاح ، كما أمر بتعطيل الدراسة فى الأزهر كى يتفرغ المشايخ المدرسون والمجاورون - وهم طلاب الأزهر - للجهاد (٢) . وكانت دعوة عمر مكرم رجال الأزهر الى المشاركة فى القتال دليلا على أن الشعب لم يكن ينظر اليهم على أنهم رجال دين وعلم فحسب بل رجال قتال وجهاد ودفاع عن الذمار أيضا (٣) .

اما الضباط والجنود العثمانيون الذين كانوا فى القاهرة فقد عزم أكثرهم على الفرار الى الشام عن طريق البر واسرعوا فى تصفية أعمالهم المدنية التى كانوا يزاولونها وأهمها اقراض المصريين بالربا واستبدلوا بنقودهم عملات ذهبية حتى يسهل حملها معهم فارتفعت أسعار الذهب ارتفاعا فاحشا كما طلقوا نساءهم وباعوا أمتعتهم واشتروا أدوات الارتحال اللازمة للسفر برا .

وعقد زعماء الشعب اجتماعا كبيرا فى ٧ من ابريل ١٨٠٧ فى بيت القاضى حضره عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد الأمير وغيرهم من كبار المشايخ والدفتردار - مدير الشئون المالية - وبعض الضباط العثمانيين مثل عمر بك رئيس الجنود

(١) ص ٥٤ من المصدر السابق .

(٢) Dr Sabry M., ouvr. cit., p. 28

(٣) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على . الطبعة الثانية ١٩٤٧ ص ٤٦ .

الأرناؤود . فى هذا الاجتماع طلب عمر مكرم أن يمتنع الجنود العثمانيون الذين آثروا البقاء فى القاهرة عن أعمال النهب والسلب وإيذاء الشعب وأن يقف الجنود مع الشعب كتلة واحدة مترابطة أمام البريطانيين وأن يستعد الجميع « لحربهم وقتالهم وطردهم فانهم أعداء الدين والملة ، وقد صاروا أيضا أخصاما للسلطان ، فيجب على المسلمين دفعهم » واتفقوا فى هذا الاجتماع على الشروع فى حفر خندق فى أطراف المدينة وإقامة استحکامات شمالها لتحصينها ومنع الانجليز من دخولها اذا زحفوا عليها من طريق شبرا .

وفى اليوم التالى اجتمع عمر مكرم بالقاضى والمشايخ ومن اليهم من أعيان القاهرة وركبوا جميعا البغال والحمير الى بولاق لترتيب العمل فى حفر الخندق وذهب معهم دروفتى Drovette قنصل فرنسا العام (١) كما صحبتهم جموع غفيرة من الأهلين والكل بالأسلحة . وبدأت فى هذا الوقت العصابة روح التعاون والتساند رائعة قوية بين أفراد الشعب على اختلاف طبقاته ودياناته . ونستدل على هذا الشعور الدافق من التكافل الاجتماعى مما سطره الجبرتى اذ قال « وشرعوا فى حفر الخندق المذكور ووزعوا حفرة على مياسير الناس وأهل الوكائل والحانات

(١) كان دروفتى فى الاسكندرية وقت وصول الحملة البريطانية اليها فغادرها خشية أن يقع أسيرا فى يد جنود الحملة واتجه الى رشيد وأعلن أنه يعتزم السفر الى بلاد الشام ولكنه أبحر فى النيل الى القاهرة حيث أقام بها واشترك فى تنظيم وسائل الدفاع عنها . وكان الذراع الايمن لمحمد على بعد أن عاد الاخير من الصعيد وتعتبر تقاريره التى أرسلها تباعا الى وزارة الخارجية الفرنسية فى هذه الفترة مصدرا هاما للحملة البريطانية على مصر . وقد نشر دوا هذه التقارير فى مجلد باسم

Douin G. Mohamed Aly Pacha du Caire (1805-1807) Le Caire 1926
Dr. M. Sahy, ouvr. cit. p. 28

والتجار وأرباب الحرف والروزنامجي (١) ، وجعلوا على البعض
 :جرة مائة رجل من الفعلة وعلى البعض أجرة خمسين وعشرين ،
 وكذلك اهل بولاق ونصارى ديوان المكس (٢) والنصارى والأروام
 والشوام والأقباط ، واشتروا المقاطف والغلقان والفئوس والقزم
 وآلات الحفر ، وشرعوا فى بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة
 السبتية . » ويقول مانجا Mengin وهو شاهد عيان
 لما كان يحدث فى القاهرة وقتذاك « كان السيد عمر مكرم يذهب
 فى صبيحة كل يوم تتبعه جماهير كثيفة العدد من الشعب الى
 حيث يشتغل العمال فى اقامة الاستحكامات حيث اعدت له خيمة
 وكان فى بعض الاحيان يظل هناك طوال النهار . وكان حضوره
 يثير الحماس والشجاعة فى نفوس الناس جميعا . وقد بذل كل
 شخص ما فى وسعه لاقامة الاستحكامات » (٣)

قام عمر مكرم بهذا الدور القيادى ومحمد على لا يزال فى
 الصعيد يتلأأ فى العودة الى القاهرة ودون أن يكون له أثر فى توجيه
 الشعب أو استنفاره للقتال . والتصق المصريون بزعيمهم عمر
 مكرم واستجابوا لندائه ونفروا خفافا وثقالا للجهاد فمنهم من
 تطوع لحفر الخندق حول القاهرة ومنهم من تطوع بالسفر الى
 رشيد .

انتصار الشعب فى معركة رشيد :

كان ميست القنصل البريطانى العام فى مصر على درجة

(١) رئيس ديوان الروزنامة وهو الديوان المختص بجمع الاموال الاميرية
 وصرفها فى الاغراض المخصصة لها تحت اشراف الديوان الدفترى (ديوان المالية) .
 (٢) الجمارك

Mengin Felix, ouvr. cit., t. pp. 278-279

(٣)

كبيرة من الحمق والغرور . كان من غلاة المستعمرين ويتوق الى ضم مصر الى الممتلكات البريطانية . اعتقد لحمقه وللانتصار الرخيص الذى احرزته الحملة باحتلال الاسكندرية أن فى مقدور هذه الحملة - وقوامها ستة آلاف مقاتل - احتلال مصر كلها فجاشت فى نفسه رغبة قوية فى أن يمد قائد الحملة عملياته الحربية الى داخل البلاد ، وأوضح القنصل لقائد الحملة خطورة موقفها اذا ظلت قابضة فى الاسكندرية لأن المدينة تعتمد فى تموينها بالمواد الغذائية على داخل البلاد ، وقرر له أن كميات القمح الموجودة فى الثغر لا تفى بحاجة سكانه أكثر من أسبوعين ، كما أن مواصلات الاسكندرية مع داخل البلاد تعتمد على طريق النيل عند رشيد ، فلا أقل من احتلال رشيد والرحمانية لكى يضمن سلامة مركز الحملة البريطانية فى الاسكندرية (١) . ونجح القنصل فى أن يدخل فى روع قائد الحملة أن الاستيلاء على هاتين المدينتين لن يكون سوى نزهة حربية .

وفى نفس الوقت بذل القنصل العام جهوده لضم الممالك الى جانب الانجليز . وكان محمد الألفى بك زعيم الأمراء الألفية ومن صنائع الانجليز قد جاز الى ربه قبل وصول الحملة بأربعين يوما . فأرسل القنصل العام خطابا الى خليفته شاهين بك الألفى يخطره بوصول الجيش البريطانى الى الاسكندرية وأن انجلترا تزمع تمكين الممالك من حكم البلاد (٢) وطلب منه أن يرسل على جناح السرعة وفدا منهم اليه لتنسيق التعاون بينهم . واعتقد ميست فضلا عن ذلك

(١) الوثيقتان رقم ٣٠ ورقم ٣٦ من وثائق الحملة فى

Douin G. et Mme Fautier Jones. ouvr cit.

(٢) أنظر بخصوص الجهود التى بذلها القنصل العام لاغراء الممالك على الانضمام الى الانجليز الوثائق الآتية وهى على سبيل المثال لا الحصر : ١٠ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٤٨ - ٤٩ فى المصدر السابق .

أن احتلال الانجليز لرشيد وقيامهم بعمليات حربية نشيطة يكون حافزا للأمراء المماليك على التعجل بالحضور من الصعيد والانضمام اليهم .

وعلى ذلك جرد فريزر للضرورة الحربية التي نجح القنصل العام في تصويرها له قوة حربية لاحتلال رشيد بلغت مشارف المدينة في ٣٠ من مارس ١٨٠٧ ، ولم تجد أثرا للمقاومة خارج المدينة ، فدخلها البريطانيون وجاسوا خلال شوارعها وأزقتها وأسواقها . واعتقدوا أن رشيد قد دانت لهم بدون قتال كما حدث في الاسكندرية . ولكن كان حاكم رشيد ويسمى على بك السلانكلي من طراز آخر غير طراز أمين أغا المرتشي وقد قرر المقاومة معتمدا على الشعب وعلى حامية المدينة وكان عدد أفراد هذه الحامية يتراوح بين ٤٥٠ وبين ٥٥٠ جنديا وأسلحتهم قديمة رديئة . وطلب من الأهالي والجنود أن يلوذوا بالمنازل ويختفوا عن انظار البريطانيين والا يبدءوا في اطلاق النار الا عند صدور الإشارة بالضرب . كما أمر حاكم رشيد بإبعاد السفن التي يستخدمها الأهالي في عبور النيل إلى الضفة الشرقية حتى لا يفكر أحد من الجنود أو الأهالي في الانسحاب من رشيد كما فعل جنود حامية الاسكندرية . وأدرك سكان رشيد -العسكريون والمدنيون على السواء - أن نهر النيل من ورائهم وأن البريطانيين من أمامهم فكان هذا التدبير المحكم حافزا لهم على الاستبسال في القتال الى النهاية .

فلما احتوت المدينة الغزاة واطمأنت نفوسهم تراخوا في اتخاذ تدابير الأمن واستلقى فريق منهم على الأرض بجوار الجدران في الظل مستسلمين للدعة ينشدون الراحة من عناء السفر مشيا على الرمال الى رشيد . عند ذلك صدرت الاوامر باطلاق النار عليهم فكانت معركة رشيد التي يصفها الجبرتي بقوله « ودخلوا (البريطانيون) الى البلد ، وكان أهل البلدة ومن معهم

من العساكر متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت، فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الامان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين . ، وكان من بين القتلى قائد القوة وهو الجنرال ووكوب Wauchope وعدد من المهاجرين الفرنسيين . وبلغت خسائر البريطانيين ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ جريحا ، وأسر المصريون ١٢٠ بينما خسرت حامية رشيد وأهلها أربعين قتيلا وأسرع السعاة الى القاهرة ، يحملون نبأ الانتصار فأطلقت المدافع ابتهاجا والناس بين مصدق ومكذب حتى اذا أرسل على بك السلانكلي حاكم رشيد رموس القتلى الى القاهرة تأكد خبر الانتصار ، وهرع الاهالى زرافات ووحدانا لمشاهدة موكب الاسرى ورموس القتلى . اذ نظمت سلطات المدينة موكبا صار فيه اسرى الفوج الاول .

اهالى رشيد يستنجدون بعمر مكرم

أطاحت معركة رشيد بهيبة الانجليز التى كانوا قد اكتسبوها فى أعين المصريين من انتصارهم الساحق على الاسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية وفى نجاحهم فى اجلاء الفرنسيين عن مصر . وقد قرر فريزر قائد عام الحملة فى تقرير رفعه الى وزارة الحرب أن هذه الهزيمة كانت بلا شك ضربة قاسية غير متوقعة أصابت الانجليز (١) . أما ميست قنصل بريطانيا العام فقد قرر تعليقا على انتصار المصريين فى معركة رشيد أن العالم بأسره ستعثره دهشة بالغة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوربى حديث (٢) .

(١) الوثيقة رقم ٤٠ تقرير أرسله فريزر الى وندهام وزير الحربية البريطانية ومؤرخ فى ٦ من ابريل ١٨٠٧ فى :

Douin G. et Fautier-Jones, ouvr. cit., pp. 40—43

(٢) الوثيقة رقم ٥١ فى المصدر السابق

ألهبت معركة رشيد وبطولة أهلها الشعور القومي في مصر وعمقت ثقة الشعب بنفسه وازداد تصميما على المضي في قتاله الانجليز . وتدفق المتطوعون على رشيد من المناطق المحيطة بها ومن القاهرة ، اذ أدرك الشعب بفطرته السليمة أن الانجليز لن يسكتوا عن الهزيمة المنكرة التي نزلت بهم وانهم سيعاودون الهجوم على رشيد . يقول الشيخ الجبرتي تعليقا على انتصار الشعب في معركة رشيد ان « أهل البلاد قويت هممهم وتأهبوا للبروز والمحاربة واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما وجمعوا من بعضهم دراهم وصرفوا على من انضم اليهم من الفقراء . »

كانت الحملة الانتقامية التي وجهها الانجليز الى رشيد مجهزة بالمدافع الثقيلة ، واحتلت قرية الحماد التي تقع جنوبى رشيد بين النيل وبحيرة ادكو لتطويق المدينة ومنع وصول المدد اليها ، كما احتلت الحملة ربوة أبى مندور فى ضواحي رشيد لضرب المدينة بالمدافع .

دعا السيد عمر مكرم أهالى القاهرة الى اجتماع عام عقد فى القاهرة فى ٩ من ابريل ١٨٠٧ وقرأ عليهم خطابا أرسله السيد حسن كريت نقيب الاشراف برشيد وكبير أهلها جاء فيه « ان الانكليز لما وقع لهم ما وقع برشيد ورجعوا فى هزيمتهم الى الاسكندرية استعدوا وحضروا الى ناحية الحماد قبل رشيد ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر الى الجبل عرضا ، وذلك ليلة الثلاثاء ثان وعشرين من محرم ١٢٢٢ (٧ من ابريل ١٨٠٧) فهذا ما حصل أخبرناكم به . ونرجو الاسعاف والامداد بالرجال والجبخانه والعدة والعدد وعدم التانى والاهمال ، وعلق السيد عمر مكرم على هذا الخطاب وصور لهم خطورة موقف اخوانهم فى رشيد وحثهم على التأهب للسفر لنصرتهم فاستجابوا لدعوته وحملوا الأسلحة وجمع اليه « طائفة من

المغاربة وأتراك خان الخليلي وكثير من العدوية والأسيوطية وأولاد البلد . » وسار عمر مكرم على رأس هذه الحشود الى نائب محمد علي يستأذنه في سفر المتطوعين الى رشيد ، فرفض حتى يصل محمد علي من الصعيد ويعرض عليه موضوع سفرهم ، فلم يأبه عمر مكرم لهذا الرفض ، وسافر المتطوعون جماعات وأفرادا لقتال جنود الحملة البريطانية .

محمد علي يصلم عمر مكرم وكبار المشايخ

ذكرنا أن محمد علي قد استولى عليه فزع شديد حين علم بنبأ استيلاء البريطانيين على الاسكندرية وأنه أخذ يتلکأ في الحضور الى القاهرة من الصعيد . فلما حمل اليه المبشرون نبأ الانتصار في معركة رشيد ارتفعت روحه المعنوية أو كما يقول الجبرتي « تراجعت اليه نفسه » وأسرع بالحضور وكذلك تراجعت نفوس العساكر وطمعوا عند ذلك في الانجليز وتجاسروا عليهم .

وبلغ محمد علي القاهرة في ١١ من ابريل ١٨٠٧ وذهب للسلام عليه السيد عمر مكرم وكبار المشايخ والسيد أحمد المحروقي . ودار الحديث بطبيعة الحال حول الموضوع الذي استحوذ على تفكير الجميع وأقلق بالهم وهو العدوان البريطاني المسلح على مصر . وأعلن له الزعماء عن استعدادهم للخروج جميعا مع الشعب والجنود الى رشيد للمشاركة في الدفاع عن البلاد . وكان مما قالوه لمحمد علي « انا نخرج جميعا للجهاد مع الرعية والعسكر » فكانت اجابته رهيبة مفزعة اذ قال لهم « ليس على رعية البلد خروج وانما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر . » (١) وكانت هذه الاجابة اعلانا صريحا منه بأنه لا يريد من الشعب تدخلا في شئون الحكم أو قياما بواجب

(١) علائف جمع علوفه وهي مقررات مالية للعسكريين .

الدفاع عن البلاد وان على أفراد الشعب - أو الرعية على حد تعبيره . وهو تعبير يدل على الاستعلاء - أن يدفعوا ما يطلب منهم من أموال الى خزانة الحكومة ، والحكومة هي التي تقوم بالدفاع عن البلاد . وهكذا أظهر محمد علي ما كانت تجيش به نفسه من رغبة جامحة في الاستبداد واقتضاء المصريين عن الاشتراك في شئون وطنهم والدفاع عن بلادهم مكتفيا بأن يكون دورهم مقصورا على تقديم الأموال الى الحكومة (١) .

ولاشك أن الزعيم عمر مكرم قد صدم صدمة شديدة بهذه الاجابة ولكنه أسرها في نفسه ولم يبدها له . والزعيم الذي يؤتى حظا موفورا من الصحافة السياسية لا يبادر الى مخاصمة غيره من أول وهلة . ومن الأمور المسلم بها أن الزعامة الرشيدة تتطلب من صاحبها رصيذا ضخما من الصبر والمصابرة والقدرة على كبح جماح النفس . وكذلك كانت زعامة عمر مكرم . فلعل التصريح الذي أدلى به محمد علي كان زلفة لسان ، أو لعل الأحداث والأيام تقنع محمد علي بخطأ تقديره لموقفه من الشعب . فاذا استبان للزعيم بعد ذلك اصرار محمد علي باشا على المضي في سياسته فان عمر مكرم يكون وقتئذ في حل من الانفصال عنه بل ومخاصمته .

لقد رأى محمد علي ما أثار مخاوفه من عمر مكرم . فالجماهير في القاهرة تلتف حول عمر مكرم ولا تلتف حول محمد علي ، والجماهير في الأقاليم تكتب الى عمر مكرم ولا تكتب الى محمد علي ،

(١) أورد مانجا الاجابة التي فاجأ بها محمد علي المشايخ على النحو التالي : « ان قواتي من الشجاعة والكثرة العددية ما يجعلني على ثقة من النصر . ويكفى ان يؤدي الشعب الضرائب

«Mes troupes sont assez braves et assez nombreuses pour que je sois sûr de la victoire , il suffit que le peuple paye les impôts.»
voir Mengin, ouvr. cit., t I p. 278

وهكذا رأى فى عمر مكرم شخصية قيادية تسيطر على الشعب
ويكن لها الشعب كل تقدير وما كان محمد على وهو الحاكم المستبد
ليطبق أن يرى منافسا يتبوأ هذه المكانة الشعبية الواسعة
العريضة . ومن ثم أفهمه أن قيادته فى الجماهير قد آذنت الى زوال.
وعليه أن يلزم حده ، ففي البلاد قوات عسكرية مدربة . وليس على
الشعب الا أن يدفع ما يطلب منه للاتفاق على التسليح .

ولما جن الليل فى ١١ من ابريل ١٨٠٧ - وهو اليوم الذى وصل
فيه محمد على الى القاهرة وأدلى فيه بتصريحه المشئوم - بعث فى
طلب السيد عمر مكرم ليقابله فى منزله بالأزبكية ، وأبدى له
حاجته الى ألف كيس أى خمسة آلاف جنيه لتغطية نفقات الجنود
الذين يعتزم ارسالهم الى رشيد لمقاتلة البريطانيين . وعهد الى
السيد عمر مكرم بأن يقوم بتحصيل هذا المبلغ بعد أن يحدد نصيب
كل طائفة منه . وقبل عمر مكرم القيام بهذه المهمة .

ولا جدال فى أن هذا الاتفاق الذى تم بين عمر مكرم ومحمد
على ليلا إنما هو تنفيذ عملى للتصريح الذى أدلى به محمد على فى
صبيحة ذلك اليوم أمام المشايخ والذى قال فيه ان « على الرعية
المساعدة بالمال لعلائف العسكر ، وتأسيسا على هذا التصريح وذلك
الاتفاق بين عمر مكرم ومحمد على يرى البعض أن الزعيم قد غدا
أداة طيعة لينة فى يد محمد على يستخدمه أو يستغل مكانته الشعبية
العريضة - فى جمع الضرائب من الشعب وأن عمر مكرم قد ارتضى
لنفسه هذا الوضع ولم يجد عنه حولا .

تحليل موقف عمر مكرم

ولنحلل موقف عمر مكرم تحليلا موضوعيا لا أثر فيه للعواطف
وينأى بنا عن مظنة التحيز . فنقول ان مصر كانت تواجه فى ذلك
الوقت عدوانا بريطانيا مسلحا . وقد نجح البريطانيون فى الاستيلاء

على الاسكندرية ومدوا عملياتهم الحربية الى رشيد يرومون الاستيلاء عليها . وقد صدهم الشعب المصرى الباسل عن رشيد ، ولكن كان البريطانيون يستعدون لمعاودة الهجوم على المدينة الباسلة انتقاما واصرارا . وقد مر بنا كيف استغاث أهل رشيد بالسيد عمر مكرم لارسال نجدات لهم على وجه السرعة ، ومن المسلم به أن الامكانيات العسكرية لدى السيد عمر مكرم محدودة فهو لا يملك سوى ارسال متطوعين يستجيبون لدعواته ولكن كانت فى القاهرة فى نفس الوقت قوات حكومية عسكرية كانت مع محمد على فى حرب الصعيد وجاءت معه أو فى اثره الى القاهرة وهذه القوات يعوزها المال لتجهيزها واعدادها للتحرك لقتال الغزاة .

كان فى استطاعة السيد عمر مكرم أن يتخلى عن المهمة التى عهد بها اليه محمد على وهى توزيع المبلغ المطلوب على أفراد الشعب وتحصيله للحكومة . بل كان فى مقدوره أن يفعل أكثر من هذا الموقف السلبي فينضم الى خصوم محمد على فى ذلك الوقت وما كان أكثرهم . فالماليك منتشرون فى الوجه القبلى ولكنهم كانوا فى ريبهم يترددون : هل ينحازون الى الانجليز ؟ هل ينضمون الى محمد على ؟ هل يلتزمون موقف الحيطة ؟ وهذا التردد الذى وقفه الماليك جعل الصورة العامة فى مصر تبدو أقرب الى تماسك العناصر السياسية منها الى تفككها . حقيقة كان الماليك لا يثقون فى وعود محمد على . ولا يطمئن الأخير الى مسلكهم . وكان قول الله سبحانه وتعالى ينطبق عليهم « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » ، وكان فى انضمام السيد عمر مكرم الى جبهة الماليك تدعيم كبير لمركزهم وباعث على تأييد الجماهير لهم ، اذ يرى الشعب أن زعيمه قد انضم الى صفوفهم فترجع كفتهم كفة محمد على ويعلنون الحرب عليه . ولكن ماذا تكون النتيجة ؟ تصدع فى الجبهة الداخلية ، وانتصار الماليك وتدعيم مركز الحملة البريطانية ، والاطاحة بحكم محمد على ،

وقيام حكومة مملوكية موالية للإنجليز ويكون عمر مكرم قد كاد
لمحمد علي كيدا عظيما . وسسيقدر الممالك والانجليز لعمر مكرم
موقفه تقديرا عميقا وتكون له في دوائر الحكومة الجديدة الكلمة
المسموعة والمكانة المرموقة ويتمتع بجانب نفوذه الشعبى بنفوذ
حكومى نافذ . ولكن التجارب المروعة التى مر بها الشعب المصرى
أحقابا طويلة تؤكد أن الحكومة المملوكية لن تكون خيرا من حكومة
محمد علي .

وآثر السيد عمر مكرم المصلحة العامة على مصلحته الشخصية
وفضل أن يضع نفسه فى هذا الموقف الحرج أمام الشعب فيتصدى
لجمع الاتاوة المطلوبة طالما أن حصيلتها ستوجه للانفاق على قوات
مسلحة تأخذ طريقها الى رشيد لمحاربة البريطانيين دفاعا عن الوطن .
ولم يتكرر هذا الموقف من عمر مكرم بعد ذلك الا مرة واحدة
وكان هدفه فى هذه المرة حماية الشعب من الاعتداءات
المنكرة التى ارتكبها الجنود العثمانيون بعد جلاء الحملة البريطانية
عن مصر وفى وقت عجز فيه محمد علي عن تطويع هؤلاء الجنود .
وفيما عدا ذلك لم يساير السيد عمر مكرم محمد علي فى سياسته
اذ ايقن الزعيم أن محمد علي لا يبغى الا ابتزاز الأموال من الشعب
وانه يتخذ من العدوان البريطانى ستارا لاشباع نهمه الى المال فقد
أعلن محمد علي فى أواخر يوليو ١٨٠٧ عن حاجته الى ألفى كيس أى
عشرة آلاف جنيه من تجار البن والصابون وغيرهم وكانت الحملة
البريطانية قابضة فى الاسكندرية والمفاوضات تدور فى الخفاء منذ
مايو ١٨٠٧ بين محمد علي وقائد الحملة على أساس الجلاء عن
الاسكندرية فى مقابل تسليم الأسرى البريطانيين . وتدل ملابسات
الأحوال على أن محمد علي التمس وساطة السيد عمر مكرم فى جمع
هذا المبلغ فاعتذر الأخير وأبى أن يزج بنفسه فى هذا الموقف واضطر
محمد علي أن يلجأ الى الحيلة فزعم للتجار أن المبلغ المطلوب انما هو

قرض يسدد لدافعيه بعد فترة من الزمن ولم تنطل عليهم الحيلة ولم يسعه الا الالتجاء الى الوسائل التعسفية لجمع المبلغ المطلوب وأرسل جنوده يرابطون عند أبواب الوكائل والمخازن يمنعون اخراج البضائع منها الا اذا دفع التاجر المبلغ المفروض عليه من القرض المزعوم . ثم أردف ذلك بوسائل ارهابية فكان يرسل قوة عسكرية تدهم الأعيان في منازلهم وكان رئيس القسوة يحمل أمرا كتابيا بتحصيل خمسة أكياس أو عشرة أكياس أى خمسة وعشرين جنيها أو خمسين جنيها من كل ثرى فاذا تأخر فى دفعها سيق الى السجن ولا يطلق سراحه الا بعد دفع المبلغ المطلوب . كما فرض على البنادر والقرى فى الأقاليم اتاوات بحجة اعداد حملة لمحاربة البريطانيين فنزل بالشعب كرب جسيم ويقول الجبرتى « وتوالى مرور العساكر آناء الليل وأطراف النهار بطلب الكلف واللوازم وأشياء يكل القلم عن تسطيرها ويستحى الانسان من ذكرها »

نخرج من هذا العرض التحليلى لموقف السيد عمر مكرم من محمد على بأنه ليس صحيحا مايقدره بعض الباحثين من أن الزعيم قد استحال أداة طيعة فى يد محمد على يوجهه أنى شاء لجمع الضرائب والاتاوات والمغارم من المصريين . لقد كانت هذه الأزمة بداية النهاية فى العلاقات الطيبة التى كانت تربط عمر مكرم بمحمد على فقد قل الاتصال وفتر التعاون بينهما حتى اذا استيأس عمر مكرم واعتقد أن محمد على قد أسرف اسرافا بعيدا فى سياسته الضريبية تطورت العلاقات الى معارضة سافرة فقطيعة ثم خصومة علنية .

اهل رشيد يعاودون الاتصال بعمر مكرم

وفى ذلك الوقت توالى على السيد عمر مكرم الاستغاثات من اهل رشيد يطلبون نجدات عسكرية . وتلقى الزعيم فى ١٤ من أبريل ١٨٠٧ خطابا جديدا من السيد حسن كريت نقيب الاشراف فى رشيد

مؤرخا في ١١ ابريل كان مما جاء فيه «ان الانكليز محتاطون بالشعر ومتحلقون حوله ويضربون على البلد بالمدافع والقناير (١) ، وقد تهدم الكثير من الدور والأبنية . ومات كثير من الناس وقد أرسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الاغاثة والنجدة ، فلم تسعفونا بارسال شيء ، وما عرفنا لاي شيء هذا الحال وما هذا الاهمال . فאלله الله في الاسعاف . فقد ضاق الحناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المراقبة والسهر على المتاريس . »

اتصل عمر مكرم بمحمد علي ليطلعه على هذه الاستغاثة . وكان الموقف جد خطير لا يتحمل تسويفا أو تأخيرا في اتخاذ اجراءات حربية سريعة . وأظهر محمد علي اهتماما بنجدة أهل رشيد وتظاهر بأنه يعتزم السفر بنفسه الى مسرح العمليات الحربية فذهب الى بولاق ولكنه لم يبرح القاهرة ثم طلب من الزعيم عمر مكرم والمشايخ أن يكتبوا الى الأمراء المماليك في الوجه القبلي يستحثونهم على الحضور الى الجيزة لاتمام الصلح النهائي . ولكن رأى المماليك التريث حتى ينكشف الموقف الحربى ومن ثم يحددون موقفهم النهائي . وكانت مساندة عمر مكرم لمحمد علي بجمع الألف كيس في مقدمة الاسباب التى ساعدته على تجهيز فرقة من الجنود الألبانيين تتكون من أربعمئة من المشاة وألف وخمسمئة من الفرسان تحركوا الى ميدان المعركة .

الدور البطولى للمصريين والترابط العربى فى معركة الحماد

غير أن الأمر الجدير بالذكر هو أن هؤلاء الجنود الألبانيين الذين أرسلهم محمد علي لم يسيروا وحدهم الذين واجهوا القوات البريطانية فى المعركة التى دارت فى ٢١ من أبريل ١٨٠٧ وتسمى معركة الحماد

(١) القناير يقصد بها القنابل .

بالقرب من رشيد . اذ كانت هذه المعركة تضم كما يقرر الجبرتي
« الجم الكثير من أهالي بلاد البحيرة وغيرها وأهالي رشيد ومن معهم
من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهور ، وكان من جملة المتطوعين
تاجران من أهل مكة يقيمان في القاهرة استقدا معهما مائة من
البدو والمغاربة وغيرهم . وكان هذان التاجران يتفقان على المصريين
الذين اشتركوا في القتال . وعلى ذلك كان للشعب النصيب الأوفى
في تحمل أعباء القتال . وعلى الرغم من الخسائر التي أنزلتها مدفعية
البريطانيين في أرواح وممتلكات أهل رشيد إلا أن أفراد الشعب
استهانوا بالموت وألقوا بأنفسهم أمام نيران البريطانيين وهجموا عليهم
وأدهشهم بالتكبير والصياح وحمى وطيس القتال ووقع الارتباك
في صفوف البريطانيين وطلبوا الأمان ، ولكن الشعب الثائر المنتصر
رفض أن يستمع لطلب الأمان واعتقد أنها خدعة حربية وأبى إلا
أن تمضي الموقعة الى نهايتها المحتومة فقبض على البريطانيين وذبح
الكثيرين منهم وأسر بعضا منهم وفر الباقون الى الاسكندرية بعد
أن غنم الشعب مدافعهم وأسلحتهم ، وبلغت خسائر العدو ألفا بين
قتيل وجريح وأسير . ولما وصلت الى القاهرة أنباء هذا الانتصار
الرائع أطلقت المدافع من القلعة والازبكية وبولاق والجيزة . ويذكر
الجبرتي عبارة تفيض بالحسرة على انكار فضل الشعب في هزيمة
الحملة البريطانية فيقول « وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب
اليهم فعل ، بل نسب كل ذلك للبasha وعساكره وجوزيت العامة
بضد الجزاء بعد ذلك . » (١)

« وهكذا تفعل المجاهدون !! »

ولكى تكتمل أمامنا عناصر الموقف نضع في الصورة بقية جنود

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٥٥ .

محد على الذين كانوا معه فى الوجه القبلى يقاتل بهم الممالك فقد جاءوا فى اثره الى القاهرة وانتهزوا الفرصة كى يمارسوا عمليات السلب والنهب على أوسع نطاق بحجة التأهب لصد العدوان البريطانى وشهدت البلاد حلقة مفزعة من حلقات الجور واغتصاب الاموال . فكان الجنود الألبانيون يخرجون من ديارهم فى القاهرة بطرا ورتاء الناس : يذهبون الى بولاق ليوهموا الشعب أنهم ماضون فى سفرهم لمحاربة البريطانيين فاذا وصلوا الى بولاق تفرق بعضهم وعادوا الى بيوتهم ويراهم الناس فى اليوم التالى فى المدينة . أما البعض الآخر ممن واصل سفره فقد ذهب الى المنوفية والغربية وجمعوا من أهل البلاد ماوصلت اليه قدرة عسفهم من المال والمغارم ؛ وكانوا يخطفون النساء والبنات ويستولون على الماشية والحاصلات ودواب الحمل قهرا من أصحابها . وهكذا بدلا من أن يتفرغ الجنود الألبانيون لرد العدوان البريطانى على مصر انصرفوا الى ارتكاب الآثام وكانوا حربا عوانا على الشعب المصرى . ويعلق الجبرتى على مسلكهم تعليقا يفيض بالتهكم فيقول « وهكذا تفعل المجاهدون » .

أهالى رشيد يلتمسون من عمر مكرم السعى لوقف جرائم العثمانيين

وفى أعقاب معركة الحماد انتشر الجنود العثمانيون فى هذه المنطقة وما جاورها واستباحوا نساءها وأموالها وماشيتها زاعمين أنها أصبحت دار حزب بنزول البريطانيين فيها ثم انتقلوا الى رشيد وفرضوا على أهلها الاتاوات وصادروا محصول الأرض فخرج اليهم السيد حسن كريت نقيب الاشراف بها وكبير البلدة وتحدث مع رؤساء الجند وقال لهم « أما كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العساكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم ومعكم ، وما قاسيناه من التعب والسهر وانفاق المال ونجazy منكم بعدها بهذه الأفاعيل ، فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ، ولا نأخذ معنا شيئا ، ونترك لكم

البلدة ، افعلوا بها ما شئتم . ، وهكذا هان على أهل رشيد أن يتركوا مدينتهم من ظلم الجنود العثمانيين وهم الذين لم يتركوها فرارا من مدافع البريطانيين وقنابلهم . وكتبوا الى السيد عمر مكرم يلتمسون منه السعى لوقف عمليات النهب والسلب . وتدخل الزعيم لدى محمد على فأصدر أمرا الى الجنود بإيقاف اعتداءاتهم على الأهالي . ولم يكن لهذا الأمر أى أثر فى النفوس الشريرة التى جبل عليها الجنود الدلاة والألبانيون وأصبحت رشيد ومنطقتها مسرحا لحركات التمرد والشغب والسلب وارتكاب الآثام . وارتحل كثير من أهل رشيد الى القاهرة ومعهم نساؤهم وأطفالهم فبلغوها لاجئين فى ٧ من مايو ١٨٠٧ .

مواكب أسرى البريطانيين وقتلاهم فى القاهرة

كانت سلطات رشيد تبعث تباعا أسرى البريطانيين ورءوس قتلاهم الى القاهرة بطريق النيل فى حراسة مشددة ويذهب الى ساحل بولاق كبار الضباط العثمانيين على رأس قوات عسكرية لتسلم الشحنات الآدمية ، وتحتشد الجماهير على جانبي الطريق لمشاهدة مواكب الأسرى . وقد ذكرنا أن على بك السلانكلى حاكم رشيد أرسل أول شحنة آدمية من أولئك الأسرى ورءوس القتلى بعد معركة رشيد مباشرة . وشهدت القاهرة أول مواكب فى ٥ من ابريل ١٨٠٧ ، وسيق الأسرى الى سجن القلعة زمرا ، فكانوا يدخلون بهم من بولاق الى باب النصر ثم يشقون وسط المدينة مارين بحديقة الأزبكية . وكان الفوج الأول يضم فسيالا (١) كبيرا وآخر طاعنا فى السن ، وكل منهما

(١) معناها ضابط فى جيش أوربى وهى مأخوذة من الكلمة الإيطالية ufficiale ويجمعها الجبرتى فسيالات ويجمعها المعلم نقولا ترك فى مذكراته فسيالية .

يركب حمارا • أما بقية الأسرى فقد ساروا وسط الحرس ، وحمل الجنود العثمانيون نوابيت ثبتوا في كل نبوت منها رأس قتيل • وكانت رءوس القتلى « قد تغيرت وانتنت رائحتها » ، وتتابع وصول أفواج الأسرى ورءوس القتلى ، فكان يطاف بهم في شوارع القاهرة بنفس النظام • وحدث أن مات أحد الجرحى الانجليز أثناء مسيرة الموكب ، فقطعت رأسه ورشقت مع باقى الرءوس على النابيت • وبعد انتهاء كل موكب كانت تعاد النابيت التى تحمل رءوس القتلى الى حديقة الأزبكية حيث تغرس هذه النابيت فى صفين متوازيين على يمين الداخل من باب الهواء الى وسط البركة • وقد أمر محمد على بعد ذلك بقطع آذان القتلى ودبغها وتمليحها ثم وضعت فى صناديق أرسلت الى الآستانة عن طريق الشام تأكيدا لخبر نجاحه فى انزال الهزيمة بالحملة البريطانية • ودفنت بعد ذلك الأجزاء المتبقية من جماجم القتلى •

الزعيم يطالب محمد على بالكف عن المصادرات وفرض المغارم

جمع محمد على قوة حربية من الارناؤود والدلاة بلغ عددهم ثلاثة آلاف جندى من المشاة والفا من الفرسان وعبر بهم النيل وأقام معسكره فى امبابة تجاه القاهرة فى ٧ من أغسطس ١٨٠٧ واعنقد الشعب أنه يعتزم الزحف على الاسكندرية لانتزاعها من البريطانيين • ولكن الشعب كان واهما فى هذا الاعتقاد ، فان محمد على أراد أن يتخذ من تلك الحشود العسكرية دعاية لنفسه أمام الباب العالى حتى يعتقد السلطان ورجالاته أن محمد على جاهد البريطانيين جهادا كبيرا ، وأنه اعد لهم ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل لاجلائهم عن الاسكندرية • ولو كان محمد على جادا فى محاربة البريطانيين لداهمهم فى موقفهم الحرج وقتذاك ولانزل بهم هزيمة محققة خادحة • وكان فريزر قد صارع رؤساءه بأن الحملة ستعجز عن

الدفاع عن مواقعها فى الاسكندرية اذا تعرضت لهجوم قوى • ولكن محمد على كان يعلم أنه لن يشتبك فى قتال مع البريطانيين ، اذ كانت هناك اتصالات تتم فى الخفاء بينه وبينهم على اساس الجلاء عن الاسكندرية فى مقابل تسليم الاسرى البريطانيين •

وتعرضت جموع الشعب فى القاهرة الى ألوان شتى من المظالم على يد محمد على وجنوده ابان الفترة التى خرج فيها الى امسية متظاهرا بسفروه لمحاربة البريطانيين • ويعطى الشيخ الجبرتى صورة قاتمة عن هذه المظالم نشير هنا الى بعض ملامحها « ركب الباشا الى بولاق وعدى الى ناحية بر انبابه ونصبوا وطاقة (١) هناك • وخرجت طوائف العسكر الى ناحية بولاق وساحل البحر (اى النيل) ، وطفقوا يأخذون ما يجدونه من البغال والحمير والجمال ، واستمروا على الدخول والخروج والذهاب والمجيء والرجوع والتعدية أياما ، وهم على ذلك النسق من خطف البهائم ، وامتنع السقاءون عن نقل الماء من البحر حتى شح الماء وغلا سعره وعطشت الناس وامتنع حمل البضائع ••• وطلبوا أيضا دراهم من طائفة القبانية والحطابة وباعة السمك القديد المعروف بالفسيخ فكان القدر المطلوب من طائفة القبانية مائة وخمسين كيسا فأغلقوا حوانيتهم وهربوا والتجئوا الى الجامع الازهر ، وكذلك الحطابة وغيرهم » وتوقفت مطاحن الغلال عن العمل لأن الجنود استولوا على الحمول التى تستخدم فى تسير آلات المطاحن • وهكذا تعرضت القاهرة لازمة تموينية فى الحبز وفى ماء الشرب ، واستمرت اعمال المصادرات وفرض المغارم على طوائف الشعب عدة أيام ولاذت جموع الشعب بالسيد عمر مكرم تطلب اليه التدخل لدى محمد على لوقف هذه المظالم ، فكان الزعيم عند حسن ظن الشعب به • استجاب

(١) الوطاق لفظة معناها الخيمة •

لطلبه وذهب الى امبابة حيث قابل محمد علي وتحدث معه في رفع الاتاوات التي فرضها على شتى طوائف الشعب ، وقبل محمد علي وساطته ، وكتب امانا بذلك الى تلك الطوائف .

وقد دلت الاحداث التي تتابعت منذ انتقال محمد علي الى امبابة على ثلاث حقائق لا مراء فيها .

اولا : ان اقامته في معسكر امبابة وهي الاقامة التي امتدت من ٧ أغسطس ١٨٠٧ الى ١٩ من أغسطس كان الهدف منها استئناف المفاوضات بينه وبين مندوبى قيادة الحملة البريطانية في جو هادى بعيد عن صخب القاهرة ، وبعيد عن تجسس الفرنسيين على مراحل المفاوضات . وكانت هذه المفاوضات قد بدأت مرحلتها الاستطلاعية في شهر مايو ١٨٠٧ عقب هزيمة البريطانيين في معركة الحماد (٢١ من ابريل ١٨٠٧) ولذلك لم تكد تمضى ثلاثة أيام على انتقاله الى امبابة حتى أعلن في المعسكر عن قدوم مندوب من الجنرال فريزر في مهمة رسمية ، فأطلقت المدفعية احدى عشرة طلقة تحية له . وكان هذا المندوب ضابطا برتبة مقدم ريفارولا Rivarola تنعته الوثائق الفرنسية بأنه كان مفاوضا بارعا كما كان محاربا ممتازا . ومن طريف ما يذكر أن جنود محمد علي من الارناؤود والدلاة سطوا على وفد المفاوضات البريطانى في اول ليلة قضوها في معسكر محمد علي ووصف الجبرتى حادث السطو وصفا طريفا فيقول «في خامس جمادى الثانية ١٢٢٢ (١٠ من أغسطس ١٨٠٧) حضر قابجى (١) من طرف الانجليز وصحبته اشخاص فأنزلهم الباشا في خيمة بمخيمه بانبابة، فرقدوا بها ليأخذوا لهم راحة وناموا ، فلما استيقظوا فلم يجدوا

(١) قابجى لفظة تركية معناها ضابط او مبعوث او احد رجال التشريفات ويجمع الجبرتى هذه اللفظة قابجية .

ثيابهم وسطا عليهم السراق فسلحوهم ، فأرسلوا الى حارة
الفرنساوية فأتوا لهم بثياب وقفوات لبسوها ،

ثانيا : ان سفر محمد على من امبابة في ١٩ من اغسطس
١٨٠٧ الى دمنهور كان الغرض منه التوقيع على اتفاقية الجلاء . وقد
تم التوقيع في ١٤ من سبتمبر على اساس الجلاء عن الاسكندرية
وتسليمها لمحمد على في مقابل اطلاق سراح الاسرى البريطانيين
واصدار عفو عام من جانب محمد على عن اهل الاسكندرية وغيرهم
الذين تعاونوا مع البريطانيين ولم يشرع محمد على في السفر من
امبابة الا بعد ان اطمأن الى زوال الخطر .

ثالثا : ان انتقاله من دمنهور الى الاسكندرية كان لتسلم المدينة
بعد جلاء البريطانيين عنها ففي ٢٥ من سبتمبر ١٨٠٧ كانت آخر
ناقلة جنود تغادر خليج ابي قير عائدة الى مسينا في جزيرة صقلية .

نجح محمد على في اصفاء هالة كاذبة من المجد حول نفسه لدى
دوائر الباب العالي في الآستانة (١) فاعتقدت هذه الدوائر أن محمد
على هو الذي تصدى للحملة البريطانية وأنه صاحب الفضل في
ايقاع الهزيمة بها . ولعل هذه الصورة المزيفة التي استقرت في ذهن
السلطان هي التي أوحى اليه أن يفدق ألوانا من التكريم على الوالى
محمد على ، فقد أمر السلطان بأن تصبح الاسكندرية تابعة من
الناحية الادارية لحكومة القاهرة بعد أن كانت تتبع الباب العالي
مباشرة وبذلك دخلت الاسكندرية في حوزته وكان الباب العالي

(١) عهد محمد على الى اسماعيل الخشاب وضع تقرير مبالغ فيه عن دور محمد
على وجنوده في الانتصار الرائع على الانجليز . وقد أرسل هذا التقرير مع رسول
خاص حمل معه الصندوق الذى يضم آذان القتلى البريطانيين على نحو ما ذكرنا من
قبل ، كما أرسل معه ضابطين من الاسرى الانجليز تأكيداً لنبا الانتصار ، وغادر
الرسول القاهرة في ٥ من مايو ١٨٠٧ ومعه هاتان الشحنتان الآدميتان .

يتخذها قاعدة عسكرية وسياسية يحيك فيها المؤامرات ضده ثم أرسل السلطان اليه هدية تتكون من سيف وقفطان وشلنج (١) ، كما أنعم على قادة الاسلحة العثمانية بخلع ثمينة وأذن السلطان لابراهيم بن محمد علي في العودة الى مصر ، وكان رهينة بالاستانة حتى يؤدي محمد علي الاربعة آلاف كيس التي التزم بأدائها في مقابل سحب السلطان للفرمان الذي كان قد أصدره في يونيو ١٨٠٦ بنقل محمد علي الى سالونيك وتعيين موسى باشا واليا على مصر .

وقد رأينا كيف أن الجبرتي كان يتحسر على تجاهل فضل الشعب المصري في رد العدوان البريطاني على مصر وعلى اغماط حق الجماهير في هذا الصدد فقد سطر العبارة اللاذعة التي سبق أن أشرنا اليها وهي « وليت العامة شكروا على ذلك (ايقاع الهزيمة بالبريطانيين) أو نسب اليهم فعل ، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره » ثم يلخص الجبرتي الموقف العام في مصر بعد انتهاء الاحتلال البريطاني الثاني وقد استمر ستة اشهر فيقول « انقضى هذا الامر واستقر الباشا واطمان خاطره وخلا له الاقليم المصري »

وهذه المكاسب التي ظفر بها محمد علي جعلت دوا Douin وهو أحد الفرنسيين الذين توفروا على دراسة تاريخ مصر في القرن التاسع عشر يقرر أن محمد علي هو الشخص الوحيد الذي استفاد من اخفاق الحملة البريطانية على مصر . ولكننا لا نأخذ بهذا الرأي وحده بل نضيف اليه رأيا آخر هو أن فشل هذه الحملة كان فصلا هاما في تاريخ مصر القومي كشف عن أصالة الشعب المصري وصلابته واستعداده للنضال توكيدا لحقه في الحياة . لقد كان الشعب في حاجة الى زعامة واعية رشيدة نزيهة حانية تستغل القوى الكامنة فيه وتوجيه طاقاته توجيهها سديدا لصد العدوان البريطاني على بلاده

(١) الشلنج غطاء يوضع على الرأس مرصع بالجواهر .

وهزيمة « أقوى دول أوروبا » وقد وجد هذه الزعامة في السيد عمر
مكرم الذى برز بروزا واضحا قويا فى أحداث هذه الحملة • عاش مع
الشعب والتصق به واستنفره للقتال وجعل القاهرة شـعلة من
الجهاد لا تـخمد • وكان للشعب النصيب الاذنـى فى صد الغزاة
واستطاع أن يحمل السلاح بنجاح دفاعا عن وطنه وعروبته وحقق
انتصارا حاسما على البريطانيين ولم ترهبـه مدفعيتهم الثقيلة
وأسلحتهم الفتاكة مما يعتبر صفحة مجد وبطولة وفدائية فى تاريخ
الشعب المصرى وبخاصة اذا علمنا الظروف السياسية والاقتصادية
والاجتماعية العصيبة التى كان يعيش فيها الشعب وقتذاك بالاضافة
الى افتقاره الى الاسلحة الحديثة وحرص الحكام على اقصائه عن الحياة
العسكرية •

البَابُ السَّادِسُ

الصِّدَامُ بَيْنَ الزَّعِيمِ وَبَيْنَ الْقَوْلَى

الفصل الرابع عشر

اقصاء الزعامة الشعبية ضرورة سياسية في نظر القولى (١)

عمر مكرم كبير الزعماء

ظلت الزعامة الشعبية عنصرا رئيسيا فى الحياة السياسية فى مصر وركيزة قوية استند اليها محمد على فى توطيد مركزه ازاء الصعاب والدسائس والأخطار التى واجهته خلال السنوات الاولى من حكمه سواء من الباب العالى أو انجلترا أو المماليك أو الجنود العثمانيين . وكانت هذه الزعامة من ناحية أخرى ظلا ظليلا للشعب تدخلت لرفع المظالم عن الأهلين ، واضطرت محمد على الى العدول عن بعض الاتاوات . وظلت الزعامة الشعبية على هذا الوضع المرموق بمثابة سلطة تراقب تصرفات محمد على وتسدى المعونة الى الجماهير .

واستقرت رئاسة الزعامة الشعبية فى عمر مكرم فغدا كبير زعماء مصر وبخاصة منذ الحوادث التى تتابعت وأدت الى انقلاب مايو ١٨٠٥ ، ويقرر هذه الحقيقة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فيقول وهو يترجم للسيد محمد السادات « وارتفع شأن السيد عمر وزاد أمره

(١) القولى نسبة الى مدينة قوله وهى فى بلاد اليونان حاليا . وكانت هذه المدينة مسقط رأس محمد على . وكان الجبرتى يطلق عليه هذه الكنية (أنظر ج ٤ حوادث شهر محرم ١٢٣٢ - ٢١ نوفمبر - ٢٠ ديسمبر ١٨١٦) وحوادث شهر محرم ١٢٣٤ (٣١ أكتوبر - ٢٩ نوفمبر ١٨١٨)

بمباشرة الوقائع وولاية محمد علي باشا ، وصار بيده الحل والعقد ،
والامر والنهي ، والمرجع في الامور الكلية والجزئية ، والمترجم له
(السادات) يحقد عليه في الباطن ويظهر له خلافة (١) ، ثم يعود
الجبرتي فيؤكد تلك الحقيقة وهو يترجم للشيخ محمد الدواخلي فيقول
« ولما وقع ما وقع في ولاية محمد علي باشا وانفرد السيد عمر افندي
في الرياسة وصار بيده مقاليد الامور ازداد به الحسد فكان هو من
أكبر الساعين عليه سرا مع المهدي ٠٠ (٢) »

وكان لعمر مكرم في نفوس الشعب أكبر مكانة وأسمى منزلة ،
وكان يتقدم المشايخ والأعيان في الاجتماعات والحفلات العامة ويجلس
الى جانب محمد علي . وبلغ من مكانته أن محمد علي حين اعتزم الخروج
الى الصعيد على رأس حملة لمحاربة محمد بك الألفي في أبريل ١٨٠٦
عرض على عمر مكرم أن يعينه نائبا عنه أثناء غيابه ، فاعتذر عمر
مكرم . ويكشف هذا الاعتذار عن جانب هام من جوانب شخصية
الزعيم فمن الراجح أن اعتذاره كان راجعا الى عزوفه عن مناصب
الجاه والسلطة والنفوذ مما يدل على أنه كان زعيما يعف عن الانتهازية
والنفعية . وقد يكون امتناعه راجعا الى شعوره بأن العرض غير جدي ،
وأن محمد علي أراد مجاملته أو رغب في أن يسبر غوره لأنه سرعان
ما فترت همه الوالى عن الزحف على الصعيد واستخلاصه من المائيك ،
فكان موقف عمر مكرم دليلا على حصافته السياسية . وأخيرا قد
يكون رفضه راجعا الى حرصه على عدم إثارة الزعماء عليه ، وكانوا
يحقدون عليه فرأى أنه اذا قبل هذه النيابة أتاح لهم الفرصة كي
يبسطوا اليه أسنتهم بالسوء ، فأراد أن ينأى بنفسه عن مثل هذا
الموقف .

(١) وفيات سنة ١٢٢٨ في الجزء الرابع ص ص ١٨٥ - ١٩٧ .

(٢) وفيات سنة ١٢٣٣ في الجزء الرابع ص ص ٢٩٤ - ٢٩٦ .

وتمتع عمر مكرم بتقدير عميق من الشعب الذى نظر اليه على أنه الزعيم المثالى الذى لم تدنسه المطامع الشخصية ولم يخض مع الخائضين فى التكالب على انماء ثرواتهم الخاصة . فبقدر عمر مكرم الملاذ الذى تلجأ اليه طوائف الشعب من مختلف بلاد القطر تطلب وساطته وشفاعته لرد المظالم التى أحاطت بها من كل جانب . وكان عمر مكرم لا يخيب لأحد رجاء ، فانصرف الى الوساطة من اجل هذه الطوائف الكادحة ينجح فى شفاعته حيناً ويفشل فيها أحياناً ، لأن محمد على حرص على أن يجعل دوره فى الحياة السياسية ثانوياً بعد جلاء الحملة البريطانية عن مصر فى سنة ١٨٠٧ . والأمثلة على تدخله لازالة المظالم التى لحقت بالشعب عديدة رأينا بعضها منها عند ما كتب أهل رشيد الى عمر مكرم فى مايو ١٨٠٧ يلتمسون منه السعى لدى محمد على لاييقاف أعمال السلب والنهب التى ارتكبها جنوده . ورأينا أيضاً أن أهل القاهرة لاذوا بعمر مكرم حين خرج محمد على الى امبابة فى اغسطس ١٨٠٧ واتخذ من تظاهره بالسفر لمحاربة البريطانيين ذريعة للاسراف فى فرض المظالم ومصادرة أموال الشعب ، ثم لجأ اليه القاهريون مرة اخرى يرجون توسطه حين فرض الجنود العثمانيون على الشعب حق الايواء فى منازلهم فى شهرى اكتوبر ونوفمبر ١٨٠٧ . وأراد محمد على تضيق الخناق على الأمراء المماليك الذين اعتصموا فى الصعيد فشدد فى مراقبة منافذ الطرق المؤدية الى الوجه القبلى حتى لا تتسرب ذخائر أو ملابس أو مواد تموينية من القاهرة اليهم وارتابت الحكومة فى حراس المدافن والعمال الذين يقومون بدفن الموتى واعتقدت أن عملاء الامراء المماليك يرسلون الى هؤلاء الحراس والعمال الاسلحة والملابس لاختفائها فى القبور حتى تسنح فرصة مواتية لارسالها خفية الى المماليك فى الصعيد فقام رجال الشرطة بحملات تفتيشية واسعة فى جهة القرافة ونبشوا القبور وانتهكوا حرمة الموتى ولم يسفر التفتيش عن شيء سوى زيادة الهوة بين الشعب وبين محمد على . وحضرت وفود جمة

من خدام الاضرحة وحراس المدافن وأهالى المسوتى الى عمر مكرم
يشكون اليه تصرفات الحكومة وانتهاك الحرمات .

وعمر مكرم فوق هذا كله كان بحكم كونه نقيباً للأشراف
يحتل مركز الصدارة فى المجتمع المصرى ، وهو مجتمع كانت لاتزائل
سمته البارزة الطابع الدينى . وكانت الجماهير تسارع طوعا واختيارا
فى ابداء مشاعرهما الودية نحوه ومشاركتها له فى ابتهاجه ابان
المناسبات السعيدة . يصف الجبرتى تدفق الجماهير وشيوخ الطوائف
وأرباب الحرف من كل حدب وصوب بأعلامها وشاراتها وطبولها
وموسيقاها للاشتراك فى الحفل الذى أقامه عمر مكرم فى أول مايو
١٨٠٩ لختان ابن كريمته . وقد استؤجرت الاماكن على أرصفة
الشوارع وفى الميادين ليشاهد منها الجمهور مرور مواكب المحتفلين
وكانت مظاهرة شعبية اهتزت لها القاهرة ، وكانت من المشاهد التى
قل أن رأت لها العاصمة مثيلا . ويبدى الجبرتى ملحوظة على هذه
المظاهرة الشعبية الحافلة فيقول انها كانت آخر « طنطنة » لعمر
مكرم قبل أفول نجمه السياسى « استهل شهر ربيع الاول سنة
١٢٢٤ (١٦ من أبريل - ١٥ من مايو ١٨٠٩) وفيه شرع السيد
عمر مكرم نقيب الأشراف فى عمل مهم (١) لختان ابن ابنته ، ودعا
الباشا والاعيان ، وأرسلوا اليه الهدايا والتعابى ، وعمل له زفة
يوم الاثنين سادس عشر ، مشى فيها أرباب الحرف والملاعب
وجمعيات وعصب صعايدة وخلافهم من أهالى بولاق ، والكفور
والحسينية وغيرها من جميع الأصناف وطبول وزمور وجموع كثيرة ،
فكان يوما مشهودا ، اكرتت فيه الاماكن للفرجة ، وكان هذا الفرح
هو آخر طنطنة السيد عمر بمصر ، فانه حصل له عقيب ذلك ماسيتلى
عليك قريبا من النفى والخروج من مصر (القاهرة) . (٢)

(١) مهم معناها حفلة .

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ٦١ .

ومن المصادفات العجيبة أن زوجة محمد علي وصلت لأول مرة في حياتها الى القاهرة في ٣١ من مايو ١٨٠٩ - أى في نفس الشهر الذى أقيم فيه حفل ختان ابن كريمة عمر مكرم . وقد فشل محمد علي في تنظيم استقبال شعبى لها ، فلجأ الى الوسائل التعسفية معتمدا على سلطة الحكومة . فصدرت الأوامر الى « جميع النساء والخوندات » . (١) وكل من كانت لها اسم فى الالتزام « (٢) أن يركبن الحمير ويذهبن الى بولاق « وملاقة امرأة الباشا » عند وصول السفينة التى تقلها من الاسكندرية . وقد أرادت بعض السيدات الفضليات الاعتذار عن الاشتراك فى استقبالها . وكان من بينهن السيدة نفيسة المرادية « فلم يقبلوا لها عذرا » وسار موكب حرم محمد علي من بولاق الى الأزبكية يحيط بها أكثر من خمسمائة حمار ركبها النساء اللاتى أكرهن على استقبالها . وأطلقت المدافع تحية واجلالا . فكان استقبالها حكوميا غير شعبى . ويعلق الجبرتنى تعليقا لاذعا على قدومها هى وأفراد أسرتها فيقول « وصل الخبر بحضور زوجة الباشا أم أولاده وابنه الصغير واسمه اسماعيل وكثير من أقاربهم وأهاليهم . حضر الجميع من بلدهم قوله الى الاسكندرية فانهم لما طأبت لهم مصر استوطنوها وسكنوها وتنعموا فيها ، أرسلوا الى أهاليهم وأولادهم وأقاربهم بالحضور . فكانوا فى كل وقت يأتون أفواجا نساء ورجالا وأطفالا » . (٣)

وعلى الرغم من أن محمد علي مدين الى الزعامة الشعبية بوصوله الى حكم مصر ثم بالتغلب على الأخطار التى واجهته فى مستهل حكمه،

(١) الخوندات جمع خوند ، وهو لقب يدل على الاحترام ويخاطب به الرجال والسيدات .

(٢) أى السيدات اللاتى لهن حصص التزام .

(٣) الجبرتنى ج ٤ ص ص ٩٢ - ٩٣ .

فقد عمل على التخلص منها بعد أن استقامت له الأمور . وكان التخلص من الزعامة الشعبية ضرورة سياسية لا مناص منها في نظره لتنفيذ المخطط السياسي الذي وضعه محمد علي لنفسه ولأسرته فقد جاشت في نفسه أطماع واسعة منذ أن تغلب على أكبر خطرين تهدداه بعد وصوله الى الحكم سنة ١٨٠٥ ، ونعني بهما أزمة نقله من مصر في سنة ١٨٠٦ ، ثم قدوم الحملة البريطانية الى مصر في ربيع ١٨٠٧ . واعتقد محمد علي أن الحظ حليف يسانده : جاءت به الأقدار الى مصر ضابطا عثمانيا مغمورا ، ولم تمض سنوات دان عدد حتى أصبح على رأس الحكومة المصرية ، وشعر أن مركزه يتوطد كلما طال بحكمه الأمد ، وازداد اعتدادا بنفسه وأدرك أنه يحكم ولاية تختلف عن سائر الولايات العثمانية من حيث وفرة مواردها وكثرة عدد سكانها وموقعها الجغرافي الممتاز فوضع مخططا سياسيا هو أن يؤسس في مصر ملكا يورثه لأبنائه وحفدته من بعده . وقد صرح بهذه الرغبة في وقت مبكر جدا أثناء المحادثات التي سبقت رحيل الحملة البريطانية عن مصر في خريف ١٨٠٧ اذ قرر أنه يروم انشاء حكم وراثي في أسرته في مصر داخل نطاق الدولة العثمانية ، فيستقل في شئون الحكم الداخلي ويثبت وراثيا في ولايته في مقابل دفع الجزية السنوية للسلطان اعترافا منه بالسيادة العثمانية على مصر (١) . وأشار محمد علي في تقرير مطمحه الى أن هذا الوضع السياسي الذي ينشده لنفسه ولأسرته ليس غريبا على الدولة العثمانية ، فهو يشبه النظام الذي كان قائما في ذلك الوقت في الولايات العثمانية في شمال افريقية ،

(١) انظر بخصوص هذا الموضوع الهام الخاص بأطماع محمد علي المبكرة في سنة ١٨٠٧ لانشاء حكومة وراثية في أسرته في مصر :

مجموعة الوثائق الفرنسية في :

Douin G.: Mohamed Aly, Pacha du Caire. 1805-1807, cuvr. cit., doc. No. 159 Drovetti à Sébastiani, Le Caire, 19 août 1807. pp. 195-199

وبخاصة في طرابلس الغرب حيث كانت تحكمها وراثيا أسرة
القرمانلي ، وفي تونس حيث كانت تحكمها الأسرة الحسينية بطريق
الوراثة أيضا . وكان المعروف أن سلطان الدولة العثمانية لا يتدخل
في الشؤون الداخلية لهاتين الولايتين ولا في شؤون الجزائر حيث كان
يحكمها الدايات . وعلى ذلك فإن محمد علي كانت قد صحت عزيمته
على البقاء في مصر والتمسك بها . وهذا هو الطابع الذي طبع
تصرفات محمد علي سواء في سياسته الداخلية أو في سياسته
الخارجية . واعتقد أنه إذا أحسن توجيه الطاقات البشرية للشعب
المصري وأحكم السيطرة على جميع مرافق البلاد الاقتصادية استطاع
أن يمضي قدما في تنفيذ مخططة السياسى .

وتطلب هذا المخطط السياسى من محمد علي أن يقضى على القوى
والأنظمة التى قد تعطل أو تهدد أو تمنع تنفيذه . وكان فى مقدمة
تلك القوى وهذه الأنظمة : الزعامة الشعبية ، والمماليك وما يملكونه
من قوة عسكرية ضاربة رهيبة تؤثر فى مصائر البلد ، ونظام
الالتزام . وقد بدأ بنظام الالتزام وهو نظام اقتصادى درجت عليه
الحكومة فى العهد العثمانى وبمقتضاه كان بعض الأفراد يلتزمون
بجمع الضرائب الحكومية من الأهالى ويؤدون شطرا منها لحزانة
الحكومة ويحتجزون الجزء الباقي منها لأنفسهم . وفى نفس الوقت
كان الملتزمون يتمتعون ببعض الاعفاءات الضريبية . وهذا النظام
يتعارض تعارضا جذريا مع سياسة محمد علي الذى كان لا يطبق
أن يضيع عليه قرش واحد ، ومن ثم شرع فى سنة ١٨٠٩ يلغى نظام
الالتزام الغاء جزئيا تمهيدا لالغائه كلية . وقد جره هذا الالغاء الجزئى
الى صدام مع الزعامة الشعبية ، لأن الملتزمين كانوا يشكلون قطاعا
كثيفا من السكان ، ورأى عدد من الزعماء فى سياسته الضريبية
الجديدة اجراءات تعسفية ترهق الأهلى وترهقهم هم أيضا فاعترضوا
عليها . وأدى هذا الصدام فى النهاية الى اقضاء الزعامة الشعبية عن
الميدان السياسى وعن الرقابة والتوجيه ، حتى اذا فرغ محمد علي

من الزعامة الشعبية التفت الى الممالك فتخلص منهم بطريق الاغتيال الجماعى فى مذبحه القلعة ، ثم مضى يستكمل الغاء ما بقى من نظام الالتزام . وعلى هذا فان التخلص من الزعامة الشعبية ومن الممالك ومن نظام الالتزام كانت كلها فى نظر محمد على خطوات طبيعية وضرورية للمضى فى تنفيذ مخططة السياسى حتى يخلو له الجو من كل رقابة شعبية ومن كل تهديد عسكرى ومن كل نظام اقتصادى عتيق يتعارض مع النظام الاقتصادى الذى اعتزم فرضه على المصريين ليجعل منهم أداة مسخرة لخدمة مخططة السياسى .

العوامل التى ساعدت القولى على التخلص من الزعامة :

وقد أطلت برأسها عدة عوامل ساعدت محمد على القولى على التخلص من الزعامة الشعبية وكان فى مقدمة هذه العوامل :

١ - انقسام الزعماء :

الانقسام الذى دب بين كبار الزعماء . وقد بدأ هذا الانقسام فى وقت مبكر يرجع الى سنة ١٨٠٥ حول مسائل مالية اذ تنافسوا على منصب ناظر الجامع الأزهر ، وهو غير منصب شيخ الأزهر . وجرت العادة ابان الحكم العثمانى أن يتقلد منصب ناظر الأزهر أحد الأمراء الممالك لما تدره هذه الوظيفة على شاغلها من ايراد ضخمة ، فلما جاء الفرنسيون بحملتهم سنة ١٧٩٨ وأطاحوا بحكومة الممالك شغل ذلك المنصب وألحق بمشيخة الأزهر الى أن تطلع فى سنة ١٨٠٥ لشغله الشيخ محمد الأمير وأراد انتزاعه من الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وانقسم العلماء فريقين يناصر كل فريق مرشحه .

استمر هذا الانقسام قائما بين الزعماء يتسع مداه شهرا بعد شهر ، واستفحل أمره ، اذ لم يعد التنافس بينهم مقصورا على منصب ناظر الأزهر وأوقاف الأزهر فحسب ، بل امتد الى التنظر على أوقاف

الأمير عبد الرحمن كتحدا . وخشى بعض الفضلاء مقبة الانقسام بين الزعماء . فتدخل الشيخ عبد الرحمن السجيني لاصلاح ذات البين بين الزعماء المتنافرين ، فدعاهم الى وليمة أقامها لهم ويعلق الجبرتي على هذه الوليمة وهو يستعرض حوادث شهر صفر ١٢٢١ (٢٠ من ابريل - ١٨ من مايو ١٨٠٦) فيقول : « وفي هذه الايام كان بين مشايخ العلم منافسات ومنافرات ومحاسدات وذلك من أوائل شهر رمضان وتعصبات بسبب مشيخة الجامع ونظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمن كتحدا . فاتفق أن الشيخ عبد الرحمن السجيني ابن الشيخ عبد الرؤوف عمل وليمة ودعاهم اليها ، فاجتمعوا في ذلك اليوم **وتصالحوا في الظاهر** » والفقرة الأخيرة من عبارة الجبرتي واضحة الدلالة على أن الشيخ السجيني فشل في تنقية الجو بين الزعماء وأن صلحهم كان رياء ونفاقا . وكان من مظاهر استمرار هذا التصدع في جبهة الزعماء أن أصدر محمد علي أمرا في ٢٠ من سبتمبر ١٨٠٦ بالتحجير على الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر . والتحجير في اصطلاح ذلك الوقت معناه تحديد اقامته فكان لا يسمح له بمبارحة منزله ولو كان الخروج لأداء صلاة الجمعة . وامثل الشيخ الشرقاوي لهذا الأمر ولم يجد ناصرا ، وأهمل أمره حتى قبض الله له قاضي القضاة العثماني واسمه عارف أفندي فتشفع له عند محمد علي الذي رد عليه بقوله : « أنا لا ذنب لي في التحجير عليه ، وإنما ذلك من تفاقمهم مع بعضهم . فاستأذنه في مصالحتهم . فأذن له في ذلك . فعمل القاضي لهم وليمة ودعاهم وتغدوا عنده وصالحهم وقرعوا بينهم الفاتحة وذهبوا الى دورهم **واللى في القلب مستقر فيه (١) .** » ولا ريب ان محمد علي قد ابتهج في قرارة نفسه بهذا الانقسام وعول على استغلاله في الوقت المناسب ليتخلص من الزعامة الشعبية وعمل في نفس الوقت على زيادة افسادهم وزين لهم سبل الغواية كما سنرى بعد قليل .

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

ومن بين العوامل التي ساعدت محمد على القول على التخلص من الزعامة الشعبية التدهور الذي أصاب معظم الزعماء . فقد استشرى فيهم الفساد وافتتنوا بالدنيا وهجروا مدارس العلم وانصرفوا عن أمور الدين من حيث وعظ الأهالي وتلقينهم أصول العبادة وحاكوا الامراء المماليك في معيشتهم ، وملثوا بيوتهم بالخدم والأعوان ، وتطلعوا الى مزيد من الأموال والضياع والدور ، وكانت أحاديثهم تدور حول عقد الصفقات والتنظر على الأوقاف وغير ذلك من المسائل المالية واستبدت بهم فتنة المال فصاروا يتقاضون الأجور العالية في شكل هدايا وعطايا من الجماهير في مقابل توسطهم لدى السلطات الحاكمة بعد أن كانوا يقومون بوظيفتهم التقليدية في المجتمع لا يبتغون جزاء ولا شكورا . وقد انتهت بهم هذه المساويء الى النتيجة الحتمية : فتجرد معظمهم من صفات الورع والتقوى ، وانغمسوا في الملاهي والملذات يغترفون منها بأوفى نصيب .

والجبرتي يعطى صورة قاتمة للتدهور الذي طرأ على حياة الزعماء المشايخ علماء الأزهر والذي جعلهم يؤثرون الحياة الدنيا وعرضها . الزائل على الآخرة ونعيمها المقيم ويتنافسون على مناصب الزعامة والصدارة ونظارة الأوقاف وصولا الى التمتع بلذائذ الحياة وبلوغا للجاه والسلطان بين الجماهير . وعلى الرغم من أن الجبرتي جاور بالأزهر فانه كان عنيفا بالغ العنف في حملته على المشايخ علماء الأزهر ، وصور تصويرا لاذعا الانحراف الخلقي الذي انحدروا اليه فضلا « عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور ، وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية ، مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء ، وفراغ الأعين ، والتطلع للأكل في ولائم الأغنياء والفقراء ، والمعاتبة عليها ان لم يدعوا اليها . . . » (١) .

(١) ضربنا صفحا عن بقية ما ذكره الجبرتي في وصف العلماء مشايخ الأزهر . ومن شاء فليرجع الى ج ٤ حوادث شهر شعبان ١٢٢٣ (٤ من أكتوبر - أول نوفمبر

وقد أسهم محمد على في زيادة افساد حالة الزعماء ، فشجعهم على الاستكثار من حصص الالتزام ، وما كانت تدره عليهم من مكاسب وفيرة ، وأعفى أراضيهم من المغارم والشهريات والفرض التي كان يفرضها على القرى . وابتغى من هذه الاعفاءات الضريبية ضم الزعماء اليه وحملهم على تطويع الجماهير على استساعة الأساليب التي اتبعها في تحصيل الأموال ، كما شمل بهذا الاعفاء أملاك من ينتمون اليهم وابتهج الزعماء بهذه الاعفاءات الضريبية فأقبلوا على شراء الحصص من أصحابها المحتاجين وعاشوا في بذخ وترف وتهافتوا على الدنيا ونسوا الله فأنساهم أنفسهم : عسفوا بالفلاحين واستبدوا بهم «وأجروا الحبس والتغدير والضرب بالفلقة والكرابيح» وكانوا يرسلون الى الفلاحين « استعجالات وتحذيرات وانذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين » واستعانوا بجماعة من الأشرار يجمعون لهم الضرائب وفرضوا اتاوات تذهب لجيوب هؤلاء المحصلين تسمى حق الطريق ، واستخدموا كتبة من الأقباط - على نحو ما كان يفعل الأمراء المماليك - لضبط المصروفات والإيرادات . وبعد أن غمر محمد على الزعماء بهذه الاعفاءات وهذا التمييز في المعاملة عمل على اذلالهم فأخذ يمن عليهم ثم هددهم بتجريدتهم من حصص الالتزام فوهنوا وضعفوا واستكانوا أمام تهديده .

٢ - حقد الزعماء على كبيرهم عمر مكرم :

وأخيرا كان من العوامل الحاسمة في نجاح محمد على في اقضاء الزعامة الشعبية عن الميدان السياسي الحقد الدفين الذي كان يتأجج في صدور الزعماء على السيد عمر مكرم لما ظفر به هذا الزعيم من منزلة سامية تمثلت في التفاف الشعب حوله وارتفع الى مركز الصدارة بين الزعماء (١) . وقد بلغ هذه المكانة عن جدارة واستحقاق لما

Gouin Edouard, ouvr cit., p. 172

(١)

اجتمعت فيه من فضائل سياسية مجردة عن الأهواء والمطامع الشخصية ومبادئ سامية ظل حفيظا عليها وشجاعة صادقة لا تخبر نارها . واستطاع محمد علي أن يستغل ذلك الحقد ففصل الزعماء عن كبيرهم عمر مكرم ثم ضمهم اليه في كتلة متراصة وقفوا بجانبه صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص يكيدون كيذا لعمر مكرم . ولم يبخل الزعماء على الوالي محمد علي القولى - فى سبيل اشفاء غليل أحقادهم على عمر مكرم - برأى أو مشورة أو تدبير تعسفى للتنكيل بالزعيم . يقول على مبارك « بدت الوحشة بين محمد علي وبين عمر مكرم فتولى السعى عليه سرا هو وباقى الجماعة حسدا وطمعا ليخلص لهم الأمر بونه حتى أوقعوا به » (١) . ولو كان أولئك الزعماء على حظ موفور من الحصافة السياسية والأخلاق القويمة لما استجابوا لاغراء محمد على بالانضمام اليه ضد كبيرهم عمر مكرم ، اذ كان فى القضاء على هذا الزعيم قضاء عليهم جميعا وانهيار للزعامة الشعبية . وهكذا عدم الزعماء أنفسهم بأنفسهم .

(١) على مبارك ج ١٧ ص ١١ .

الفصل الخامس عشر

الاحتكاك بين الزعماء وبين القولى

الزعماء يطالبون القولى بالغاء بعض الاتاوات :

وقع أول احتكاك بين الزعماء وبين محمد على فى أغسطس ١٨٠٨ حين فرض ضريبة قدرها أربعة فى المائة على كافة أنواع الحبوب والمأكولات التى تباع فى الأسواق والميادين والشوارع ، فحدث هرج ومرج شديدان خصوصا فى القاهرة ، ثم ازدادت هواجس الأهلى حين جاء فيضان النيل فى نفس الشهر منخفضا للغاية » وانكشف الحجر الراقد الذى عند فم الخليج تحت الحجر القائم ، وعمد الشعب الى تخزين البقول والسلع وغيرها واختفت الحبوب من الصوامع واقفرت الاسواق . واجتمع المشايخ فى ٢٠ من أغسطس وصعدوا الى القلعة لمقابلة محمد على يطلبون اليه تخفيف ضائقة الأهلى بالغاء بعض الاتاوات . فأشار عليهم محمد على بالخروج الى الصحراء ومعهم الفقراء والضعفاء والأطفال وهناك يؤدون صلاة الاستسقاء ، ويدعون الله ويستغفرونه ويتضرعون اليه ابتغاء زيادة مياه فيضان النيل . فقال له الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر » ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم ، وقد أثارت هذه العبارة محمد على . فرد محتدا موجها الكلام الى الزعماء » أنا لست بظالم وحدى ، وأنتم أظلم منى . فانى رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم اكرا ما لكم ، وأنتم تأخذونها من الفلاحين ، وعندى دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفى كيس . ولا بد أنى أفحص عن ذلك ، وكل

من وجدته يأخذ الفرضة المرفوعة من فلاحيه أرفع الحصّة عنه .
فقالوا له لك ذلك (١) ، . وهكذا نرى أن محمد علي يتهدد الزعماء
بتجريدهم من حصص الالتزام ، ويمن عليهم بالاعفاءات الضريبية
التي شملهم بها ، ثم هو يسجل عليهم في صراحة مطلقة الظلم الذي
كانوا ينزلونه بالفلاحين ، وأهم من هذا كله يوجه لهم الاتهام بأنهم
أكثر ظلما وأشد قسوة على الفلاحين منه هو شخصيا . وقد لمس
الزعماء خلال هذه المقابلة في محمد علي غلظة في القول ، وامعانا في
المضى في سياسته الضريبية ، واعراضا عن الاستماع لمشورتهم ،
وتصميما على الانفراد بالحكم دون أن يسمح لصوت واحد بمعارضته .
وما كان أحراهم في هذا الوقت - وقد أزاح القولي النقاب عن نفسه -
أن يتناسوا أحقادهم ومنافساتهم وانقساماتهم وأطماعهم فيوحدوا
صفوفهم ويعيدوا للزعامة الشعبية قوتها ليحملوه على احترام الميثاق
الذي أخذوه عليه يوم نادوا به واليا على مصر .

وقد أفلحت هذه اللهجة التهديدية ، فلم يصر الزعماء على
موقفهم بمطالبة محمد علي بإلغاء بعض الاتاوات تخفيفا عن الشعب
المثقل بالمظالم ، بل خرجوا من عنده متخاذلين ، وقد ازدادوا وهنا
على وهن . واستمعوا لمشورته فذهبوا وعلى رأسهم عمر مكرم يتبعه
المشايع وأهل !لازهر وسنكان القاهرة الى مسجد عمرو بن العاص في
مصر القديمة . وكان مرد اختيارهم لهذا المسجد أنه أول جامع أسس
في مصر وكان مكان الصحابة والسلف الصالح واعتقدوا أن الله
سبحانه وتعالى يستجيب لدعائهم فيه . ولما تكاملت جموعهم أدوا
صلاة الاستسقاء وصعد الشيخ جاد المولى الى المنبر وخطب في هذه
الحشود المترصة ودعا الله وأمن الحاضرون على دعائه وعادوا بعد

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٨٠ ويوجد تفصيلات أكثر اسهابا عن هذه المقابلة

Gouin Edouard, ouvr. cit., pp 205-206

الصاخبة في

صلاة الظهر الى القاهرة • اما عمر مكرم فأمضى ليلته هناك • ولما جن الليل زادت مياه الفيضان زيادة محسوسة • واستتر الحجر الراقد بالماء • وفي اليوم التالى خرج القاهريون أيضا وأشاروا بخروج الطوائف غير الاسلامية معهم فذهب الاقباط وعلى رأسهم المعلم غالى كبير المباشرين • ومن يصحبه من الكتبة الاقباط وجلسوا فى ناحية من المسجد يشربون الدخان، وفى نفس الليلة زاد الماء ونودى بوفاء النيل • وطفق النصارى يقولون ان الزيادة لم تحصل الا بخروجنا، ولم يمض يومان على هذا الحادث حتى أقامت الحكومة الزينات احتفاء بوفاء النيل واطلقت المدافع وطاف المنادون يحمل بعضهم الاعلام الحمراء ويحمل البعض الآخر المشاعل • ولكن الشعب كان يعتريه وجوم عميق وكانت النفوس ثائرة بسبب فداحة المظالم التى أخذت تترى سنوات طوالا على يد محمد على •

امثلة من اساليب محمد على فى ابتزاز الاموال من الشعب :

روع الشعب المصرى بسيل متدفق من الضرائب والاتاوات والقروض الاجبارية يفرضها محمد على فى غير هوادة على فئات الشعب المختلفة عدا المصادرات والاستيلاء على قوافل التجارة واجبار اصحابها على افتدائها بالمال • واستحدث أنواعا من الضرائب ابتكر لها مسميات جديدة مثل كلفة الذخيرة ، والترويجة ، والقياسة ، بالاضافة الى فرضة البشارة وفرضة غلال وشعير وسمن وفول على القرى • ثم غير وزن ونسبة المعادن الثمينة فى العملة الذهبية والفضية المتداولة • واعتبر الشيخ الجبرتى الاجراء الاخير وسيلة من وسائل اختلاس أموال الشعب • وحدث أن علم محمد على أن الحكومة الفرنسية تحتكر تجارة الدخان وتعتبرها مصدرا هاما من مصادر الايراد الحكومى ، فعمد الى تقليدها باحتكار تجارة التبغ • وقابل الشعب هذا الاحتكار(١) بالحد من استهلاك الدخان ، فألغى هذا

(١) تمت هذه المحاولة الاحتكارية فى النصف الاول من سنة ١٨٠٨ وكانت

تجربة قائمة بذاتها ولا علاقة لها بنظام الاحتكارات الذى استنته بعد ذلك •

النظام وفرض رسوما جمركية عالية على التبغ المستورد من تركيا .
ثم احتكر النشوق وألزم الأهلين بشرائه بأسعار يحددها وسواء كان
الشخص يستنشقه أو ليست له به حاجة . واحتكر النظرون وأجبر
القرى على أخذ مقادير معينة منه ، وحاول إكراه الأهلين على شراء
شراب العرقى بمقولة أن تعاطى هذا الشراب المسكر يبعث القوة فى
أجسامهم ويجعلها أكثر تحملا على مشقات الزرع والحرث . كما
فرض ضرائب عالية على الأرز والكتان والحطب والملح فارتفعت
أسعار السلع عموما ارتفاعا فاحشا .

وكان من الحيل التى لجأ اليها فى ابتزاز أموال الشعب أنه كان
يتظاهر بالشفقة على الفقراء وأصحاب الدخول الضعيفة، فأمر التجار
بتخفيض أثمان بضائعهم الى النصف ، ويتعذر على التجار تنفيذ هذا
الأمر ، فيأمر باعتقالهم ولا يتم الإفراج عنهم الا بعد أن يدفعوا مبالغ
جسيمة لخزانة الحكومة . وعند خروجهم من المعتقل كانوا يضيفون
الى أثمان البضائع المبالغ التى دفعوها فى المصالحة على أنفسهم
ليعوضوا خسارتهم . ولا يحرك محمد على ساكنا لهذا الارتفاع فى
الاسعار مما يدحض تظاهره بالحدب على جمهور المستهلكين . وكانت
النتيجة أن الجماهير الكادحة المكدودة هى التى تحملت عبء هذه
الضريبة المقنعة التى فرضها على التجار وأصحاب الحرف .

وانتهز محمد على فرصة الطلبات المكرورة التى كان يبعث بها
السلطان اليه لتجهيز حملة عسكرية لمحاربة الوهابيين فى الحجاز
فجمع الديوان فى فبراير ١٨٠٨ وحضره عمر مكرم والمشايخ
والدفتردار والمعلم غلى وطلب منهم تدبير مبلغ ٢٤٠٠٠ كيس
(١٢٠٠٠٠ جنيه) وهو مبلغ جسيم بالنسبة لقيمة النقد فى ذلك
الوقت ، فحصل ارتباك واضطراب وشاع ذلك فى الناس وزاد بهم
الوسواس ، وفى نفس العام قام برحلة الى أقاليم الوجه البحرى

لجمع المال بحجة ارسال هدية الى السلطان واشتط في وسائل
فرض الاتاوات على الفلاحين .

ولفت نظر محمد على حياة البذخ والترف التي يحيها المباشرون
وهم الأقباط أصحاب الحول والطول ، المكلفون بجمع الضرائب فعمل
على « استنضاح » المال منهم ، فسيق المعلم غالى (١) والمعلم جرجس
الجوهري والمعلم جرجس الطويل وأخوه وفلتاؤس وفرانسيسكو
وغيرهم من كبار المباشرين ثم عامتهم - وهم في حالة منكرة - الى
سجون القلعة زمرا حتى اذا جاءوها حوسبوا حسابا عسيرا ، وانتزع
محمد على منهم مبالغ جسيمة « مصالحة على أنفسهم » وفي نظير
رضائه السامى عليهم .

اتجه تفكير محمد على الى مصدر هام من مصادر الايراد هو
الرزق الاحباسية أى الاراضى والعقارات التي حبست للانفاق من
ايرادها على المساجد والأسبلة والمدارس وغير ذلك من وجوه البر ،
وكانت معفاة من الضرائب ولا يستطيع الوارث أن يتصرف فيها على
أى نحو من الانحاء . وكان معظم نظار الوقف من المشايخ علماء
الازهر يجمعون ايرادها بمعرفتهم وينفقون جزءا من حصيلتها على
الاغراض التي اشترطها الواقف ، ويثول اليهم الجزء الباقي من
ايرادها . فكانت مصدر رزق وفير لهم . وبدأ محمد على في سنة
١٨٠٩ يفرض ضرائب عليها تمهيدا لاستيلائه عليها ، اذ وضع يده
عليها دون أن يمس مبدأ نظام الوقف فيتولى هو تحصيل ايرادها
والصرف في الأوجه التي خصصها الواقف ، ويضم الباقي الى خزانة

(١) المعلم لقب لشخص وجيه متعلم ، وهو مستمد من الانجيل لأن السيد
المسيح عليه السلام كان يتخذ لنفسه لقب « المعلم » وكان يناديه الناس بالمعلم وقد
رفض أى لقب آخر .

الحكومة • وفي نفس الوقت أمر بمصادرة نصف الفائض (١) الذى كان يأخذه الملتزمون ، وفرض ضرائب على أطيان الاوسية التى كان الملتزمون يحتفظون بها لأنفسهم ويزرعها لهم الفلاحون بطريق السخرة وكان الاعفاء الضريبى يشمل هذه الأطيان تمكيناً للملتزم من استضافة موظفى الحكومة عند مرورهم بجهة التزامه •

ولما كان معظم الملتزمين أيضا من المشايخ علماء الازهر ، رأوا أن هذه الاجراءات تمس مصالحهم المادية وتهدد الحياة الرغيدة التى ألفوها ومن ثم تحركوا للاحتجاج على سياسة محمد على الضريبية وهبوا للتصدي له ومعارضة أساليبه فى الحكم •

ووقع حادثان شجعا العلماء الزعماء على القيام بحركتهم • فقد استن محمد على فى نفس الوقت ضريبة تمغة على المصوغات الذهبية والفضية وضرائب على سائر أنواع السلع حتى «النعالات التى هى الصرم والبلغ» وكانت السلع تختم بختم خاص دليلا على أن الحكومة قد استوفت الضريبة المقررة عليها ، وبدون هذا الختم لا تكون السلعة صالحة للعرض فى المحلات التجارية أو الاسواق وتعرض للمصادرة ، فأثار هذا الاجراء عامة الناس من الباعة ، وكانوا يشكلون قطاعا كثيف العدد من الشعب تأثرت مواردهم بهذه السياسة الضريبية • وازدحمت أحياء القاهرة بالساخطين ومن بينهم عدد من السيدات وأطفالهن الذين أصبحوا مهددين بالحرمان من استحقاقاتهم فى الأوقاف أو خيراتها (٢) •

وحدث أيضا من قبيل المصادفات أن ألقى رجال الشرطة القبض على أحد طلبة الازهر ، وكان يمت بصلة القرابة الى أحد علمائه وتدخل العلماء لدى رجال الشرطة للافراج عنه فلم يستمعوا

(١) الفائض هو الفرق بين حصيله الضرائب التى يجمعها الملتزم من الفلاحين وبين المبلغ الذى يورده لخزانة الحكومة • ويذهب هذا الفائض الى جيب الملتزم •
(2) Paton A.A., A History of the Egyptian Revolution London 1870, 2 vols: vol. 2 p. 27

لوساطتهم واقتادوا الطالب الى القلعة حيث اعتقل بها . فكان هذا الاعتقال سببا في ازدياد هياج النفوس .

اجتماع الزعماء بعمر مكرم

توجه الرجال والنساء وأهل الطالب المعتقل الى الجامع الازهر في ٣٠ من يونيو ١٨٠٩ وهم يتصايحون ويستغيثون في صياح وهتاف . وكان العلماء في ذلك الوقت منصرفين الى القاء دروسهم . فلما احتوى المسجد هذه الحشود فض العلماء حلقات الدراسة واجتمعوا بقبلة المسجد وأرسلوا في طلب عمر مكرم . فخف اليهم لأنه وجد الفرصة التي ينتظرها قد واثته ، واعتقد أن في استطاعته الزام محمد علي برفع المظالم عن الشعب وحمله على التشاور معه ومع الزعماء وتنفيذ الميثاق الذي أخذه عليه منذ أربع سنوات خلت . يقول أحد الفرنسيين الذين عاصروا عمر مكرم « ان السيد عمر كان يعيش منذ مدة طويلة في عزلة عميقة . لأنه منذ أن تأيد حكم محمد علي ، عمل هذا على اقصائه بصورة متزايدة عن الاسهام في أى عمل من الاعمال العامة . ولكن لم تغير هذه العزلة شيئا من أخلاق ومبادئ ذلك الشيخ . فكان يرى وهو بداخل صومعته اضطراب زيادة النفوذ المطلق الذي انفرد به الحاكم الذي كان هو أول من ألبسه الفرو لتقليده حكم مصر . فسنحت له الفرصة الآن لينزل الى معترك السياسة متصديا للدفاع عن صالح الدين وحقوق الشعب وقبض عليها بكلتا يديه (١) » .

تداول عمر مكرم مع الزعماء في الموقف واتفقت كلمتهم على نبذ خلافاتهم الشخصية والوقوف صفا واحدا في وجه الطاغية ، كما استقر رأيهم على الامتناع كلية عن الذهاب اليه وعدم التباحث

(١) Achille de Vaulabelle, ouvr. cit., t 9 pp 413-414

معه فى رد المظالم التى تكاثرت على الشعب خشية أن يؤثر فيهم بعباراته المعسولة ووعوده الكاذبة اذا اجتمعوا به فهم يريدون تجنب الانسياق العاطفى وقرروا الاكتفاء بتقديم مذكرة ترسل اليه يطلبون فيها الغاء الضرائب المستحدثة واطلاق سراح الطالب الازهرى المعتقل . فاذا استجاب محمد على لمطالب الزعماء فلا حرج عليهم اذا هم ترددوا عليه كسابق عهدهم معه . وانصرف الزعماء الى منازلهم على أن يستأنفوا اجتماعهم فى اليوم التالى لوضع المذكرة المقترحة .

. وتم اجتماع الزعماء فى الموعد المحدد - أول يوليو ١٨٠٩ - وفرغوا من صياغة المذكرة وقد سجل الزعماء فى هذه المذكرة على محمد على الضرائب المستحدثة التى فرضها على التجار والملتزمين ونظار الأوقاف ومن اليهم . كما أخذوا عليه اعتقال الطالب الازهرى دون أن يرتكب جريمة أو يجرى معه تحقيق .

محمد على يوفد سكرتيه الخاص

وكان محمد على قد نما الى علمه نبأ اجتماع الزعماء ، فأوفد اليهم ديوان افندى - سكرتيه الخاص - وتحدث اليهم حديثا جمع بين المداينة والتهديد والخبث والخداع ، وطعن فى أخلاق محمد على وزمائه بالجهل والنزوع الى الظلم والتهور والغرور . وكان السكرتير الخاص يهدف من حديثه استدراج الزعماء الى الكشف عن مكنون ضمائرهم نحو محمد على ، وبذلك ينقل الى مولاة صورة حقيقية عن متاعر كل منهم وبخاصة عمر مكرم الذى كان يحسب له حسابا أكثر من أى زعيم آخر . ولكن فوت الزعماء على السكرتير الخاص غرضه فتناسوا مؤقتا منافساتهم وبدوا أمامه فى اجماع رائع وتماسك قوى .

استهل السكرتير الخاص حديثه مع الزعماء بأنه يحمل اليهم نحيات محمد على وقال لهم ان محمد على يريد أن يقف على مطالبهم

فشرحوا له ما سطره في مذكرتهم . وبعد أن استمع الى وجهها نظرهم طلب منهم الذهاب الى محمد علي ومقابلته وكان مما قاله لهم « ينبغي ذهابكم اليه وتخطبوه مشافهة بما تريدون ، وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم . وانما القصد أن تلاطفوه في الخطاب لانه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم . ولا تقبل نفسه التحكم وربما حمله غروره على حصول ضرر بكم وعدم انفاذ الغرض » . ولكن امتنع الزعماء جميعا عن الذهاب اليه وقالوا « لا نذهب اليه أبدا ما دام يفعل هذه الفعال . فان رجع عنها وامتنع عن احداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا اليه وترددنا عليه كما كنا في السابق ، فاننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور » . فقال لهم ديوان أفندي « وأنا قصدي أن تخطبوه مشافهة ويحصل انفاذ الغرض » . فأجابوا « لا نجتمع عليه أبدا ، ولا نثير فتنة ، بل نلزم بيوتنا ونقتصر على حالنا ، ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا » .

والعبارة الاخيرة تلخص موقف عمر مكرم والزعماء في هذه المرحلة من الازمة : فهم مصرون على رفض الاجتماع بمحمد علي الا بعد أن يلغى الضرائب المستحدثة ويفرج عن الطالب الازهرى المعتقل وهم لن يؤلبوا الشعب على الوالى بل سيحتكفون في منازلهم حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . ولا يحمل هذا الموقف معنى السلبية لان الاعتكاف أمر جد خطير ، فهو بمثابة قطع علنى للعلاقات بين زعماء الشعب وبين الحاكم ، وعلان صريح بأن محمد علي قد خاأ أمانة الحكم ونقض الميثاق الذى أخذه عليه عند اختياره حاكما وكان الزعماء فى هذا الموقف مثلا طيبا للتضامن والتماسك .

وانفض الاجتماع بعد أن أخذ ديوان أفندي معه عريضة الزعماء لعرضها على محمد علي ووعدهم بأنه سيعود اليهم يحمل رد الوالى عليها . ولكن محمد علي المخادع تجاهل العريضة ومضت أربع أيام وهو يرقب موقف الزعماء ويرسم الخطط لبذر بذور التفرقة

بينهم وتحطيم وحدتهم • وكل ما فعله هو انه اطلق سراح الطالب
الازهرى المعتقل •

وقع اختياره على أحد موظفيه وهو محمد أفندى طبل وكان
يشغل منصب ناظر المهمات العسكرية ، فأوفده في اليوم الخامس
الى الشيخ المهدي والشيخ الدواخلي حيث عقد الثلاثة اجتماعا طويلا
يمكرون السيئات • وكان يجمع بين الثلاثة - كما يقول الجبرتي -
حقد ذفين على عمر مكرم • ثم انفصل محمد أفندى طبل عن الشيخين
ليذهبا بمفردهما الى عمر مكرم ، وأبلغاه أن ناظر المهمات قد نفى
لهما نفيا باتا الانباء التي ترددت حول تقرير الضرائب الجديدة وأنه
أكد لهما أن محمد علي لا يعتزم انشاء ضرائب مستحدثة ، بل انه
حريص على عدم مخالفة أوامر المشايخ وانهم « اذا اجتمعوا به
وتحدثوا معه يحصل كل المراد » • فرد عليهما عمر مكرم قائلا ان
لديه الدليل القاطع على صحة الانباء التي استفاضت عن فرض
الضرائب الجديدة وأبرز لهما أوامر مكتوبة صدرت من المباشرين (١)
لبعض الملتزمين مشتملة على تقرير الضرائب الجديدة ، وأخذ عمر
مكرم يذكر أنواع هذه الضرائب واسماءها • أما عن ذهاب الزعماء
الى محمد علي فقال عمر مكرم « أما الذهاب اليه فلا أذهب اليه أبدا •
وان كنتم تنقضون الايمان والعهد الذي وقع بيننا فالرأى لكم » •

انقض هذا الاجتماع الثلاثي الذي ضم عمر مكرم والشيخين،
المهدي والدواخلي وشعر عمر مكرم أن هذين الشيخين - وهما من
كبار الزعماء - قد خرجا على وحدة الصف • فكان مسلكهما صدمة
له • وعلم محمد علي بتفاصيل ما دار في الاجتماع من مناقشات
وأدرك أن عمر مكرم ثابت على رأيه ، لا يقبل تساهلا أو هوادة •
وكان محمد علي يخشى أن يؤلب عمر مكرم الشعب ضده ويقتله من

(١) المباشرون هم جباة الضرائب من الاقباط •

الحكم كما اقتلع أحد خورشيد من قبل . وكما يقول الجبرتي كان محمد علي « يخشى صولته ويعلم أن الرعية والعامّة تحت أمره ، أن شاء جمعهم ، وأن شاء فرقهم ، وهو الذي قام بنصره ، وساعده وأعانه ، وجمع الخاصّة والعامّة حتى ملكه الاقليم ، ويرى أنه أن شاء فعل بنقيض ذلك . » ولذلك كان موقف عمر مكرم ومعارضته تصرفات محمد علي مما أقلق باله وأقضى مضجعه . ورأى أن يقرب اليه بعض الزعماء ملوحا لهم ببعض المناصب هادفا من ذلك الى الفصل بين الزعماء وبين كبيرهم عمر مكرم .

استغل محمد علي المطامع الشخصية التي كانت تجيش في نفوس غالبية الزعماء وتزاحمهم على التنظر على أوقاف الأزهر وغيره كما استغل التنافر والتحاسد فيما بينهم والحق الذي كان يفتعل في نفوس فريق منهم على عمر مكرم ونجح في استمالة معظم الزعماء فكان يدعوهم الى القلعة لزيارته فرادى ويقضى مع كل منهم وقتا طيبا ويتلطف معه في الحديث « فيفتر بذلك ويرى أنه صار من المقربين ، وسيكون له شأن أن وافق ونصح ، فيفرغ له جراب حقه ، ويرشده بقدر اجتهاده لما فيه من المعاونة » وكانت المعاونة التي ينشدها محمد علي من الزعماء هي اسهامهم في هدم كبيرهم عمر مكرم . وبهذه الوسيلة استطاع محمد علي أن يضم اليه نفرا من الزعماء طلاب المنافع ضعاف النفوس أخذ يعدهم ويمنيهم . وما كان يعدهم الا غرورا . وقد ضرب هؤلاء الزعماء بالمواثيق والعهود والقيم الخلقية عرض الحائط ، على نقيض عمر مكرم الذي كان زعيا أخلاقيا ثبت على مبدئة ووقف بفرده في وجه الطاغية لم يرهبه وعد أو وعيد ، بل صدق ما عاهد الله عليه ، وما بدل تبديلا

وفي ١٣ يونيو ١٨٠٩ ذهب الى منزل عمر مكرم السكرتير الخاص لمحمد علي وعبد الله بكتاش المترجم . وكانت الدار غاصة بالزعماء . ودارت مناقشة عاصفة ضافية حول السياسة الضريبية

التي انتهجها محمد علي مؤخرا والضنك الذي نزل بالشعب نتيجة اسراف محمد علي في هذه السياسة . وطال النقاش حول ذهاب الزعماء الى محمد علي أو امتناعهم عن التوجه اليه تنفيذا لاتفاقهم السابق . وأبدى الشيخ المهدي والشيخ الدواخلي استعدادهما للذهاب الى محمد علي « ورقرق » كل منهما لهذه المقابلة - علي حد تعبير الجبرتي - ولما طلب السكرتير الخاص الى عمر مكرم أن يحذو حدوهما أبي أن يتزحزح عن موقفه وأغلظ له في القول اغلاظا . وعندئذ طلب الشيخ المهدي الى الشيخ محمد الامير الانضمام اليهما والذهاب معهما الى القلعة لمقابلة محمد علي ، ولكنه استشعر الحرج واعتذر بانحراف صحته . وخرج المهدي والدواخلي ومعهما ديوان افندي وعبد الله بكتاش المترجم وصعد الأربعة الى القلعة حيث قابلوا محمد علي ، وأعلن الدواخلي أنه حضر بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر فكان هؤلاء الزعماء الثلاثة من أوائل المتآمرين على عمر مكرم ومن أول من نقضوا الايمان . وكان الشرقاوي يتوارى من القوم وراء المهدي والدواخلي من سوء فعلته شعورا منه بالحجل من هذا الانحراف وهذه الفعلة .

القولى يتنكر للشعب :

أحسن محمد علي مقابلة الشيخ المهدي والشيخ الدواخلي وأثنى ثناء مستطابا عليهما وعلى الزعماء الذين أبدوا استعدادا لمقابلته والتحدث معه في شئون الحكم . وتظاهر بأنه لا يزال مقيما على عهده ، وفيا للميثاق الذي واثقه الزعماء عليه . وصرح لهما بفونه انه يقبل عن طيب خاطر نصيح الزعماء له ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، فقرر أن تدخلهم لديه لتقويم أى انحراف أو عوج انما هو فرض عليهم يجب أن يقوموا به من تلقاء أنفسهم ، وسيجدون منه

رحابة صدر واستجابة سريعة لتدخلهم ووساطتهم . وكان مما قاله لضييفه الشيخين النفعيين « أنا لا أرد شفاعتكم ولا أقطع رجاءكم . والواجب عليكم اذا رأيتم منى انحرافا أن تنصحنى وترشدونى ، ثم صب جام غضبه على عمر مكرم لامتناعه عن الحضور معهما اليه وكانت عباراته وألفاظه تدل على أنه لا يحمل أى ود لعمر مكرم وأنه يريد التخلص منه ، بل أنه سرعان ما عصف بهذا التقدير الذى أظهره للزعماء فى مستهل المقابلة ، فعمد الى تهديدهم وتهديد الشعب المصرى على بكرة أبيه . قال ان عمر مكرم دأب فى الايام الأخيرة على معاندته ومعارضة قراراته وتخويفه بتأليب الشعب عليه ، وأشار الى الاجتماعات التى يعقدها عمر مكرم مع الزعماء فى الأزهر ابتغاء اثارة الفتنة فى البلاد وتحريك الشعب للشورى على غرار ما كان يقع فى السنوات السابقة ، واضطاف الى ذلك قوله ان مثل هذه التصرفات لا يليق صدورها من الزعماء ، وهى لا تقلقه . أما الشعب وقد أطلق عليه الرعية - من قبيل الاستعلاء - « فليس لهم عندى الا السيف والانتقام » (١) وهكذا تنكر محمد على للشعب الذى نادى به واليا على مصر وتحمل من أجله ويلات الحرب فى حصار القلعة لاكرامه خورشيد باشا على مغادرتها وتمكين محمد على من حكم مصر ، وظهر أن العطف الذى كان يبديه للشعب أيام عسف البرديسى وخورشيد انما كان رياء ونفاقا ، كما اتضح أن محمد على كان من هذه الناحية يفوق خورشيد فى ازدراء الشعب حين وصف الأخير المصريين بكلمة الفلاحين . والحق أن أحداث التاريخ الحديث والمعاصر قد دلت على أن الزراية بالشعب واغماط حقه وجحد فضله كان من أبرز الصفات فى محمد على وفى بنيه وحفدته .

(١) الجبرتنى ج ٤ ص ص ٩٦ - ٩٧ .

وقد ورد وصف تفصيل لهذه المقابلة وتصريحات محمد على التهديدية فى

Achille de Vaulabelle, ouvr. cit., t 9 pp 413-414

وقد ظهر الشيخ المهدي والشيخ الدواخلي بمظهر الضعف والتخاذل ، فأنكروا أن الاجتماعات التي يعقدها الزعماء في الجامع الأزهر تستهدف الدفاع عن مصالح الشعب ؛ بل ذكروا في بلاهة وجبن أن الغرض من هذه الاجتماعات إنما هو قراءة اببخاري والدعاء الى الله لرفع الكروب . ثم كان هناك ما هو أفدح من ذلك كله اذ تظهر صورة غير كريمة من أخلاق الزعماء الانتهازيين وحرصهم على تملق الحاكم واسترضائه حين تبرع الشيخ المهدي بالخط من شأن عمر مكرم والتهوين من أمره ، فوصفه هذا الشيخ لمحمد علي بأنه ليس في عداد المشايخ العلماء ، وإنما هو صاحب حرفة أي نقيب الأشراف أو محصل يجمع ايراد الأوقاف ويوزع هذا الايراد على المستحقين الواردة أسماؤهم في كشوف نقابة الأشراف وخلص الشيخ المهدي من ذلك الى القول بأنه ليس لعمر مكرم منزلة اجتماعية مرموقة أو قدر ممتاز الا بفضل مؤازرة العلماء له ، واذ تخلوا عنه تهاوت منزلته ولم يعد له قدر أو قيمة أو خطر . ويعلق الأستاذ عبد الرحمن الرافعي على محاولة الشيخ المهدي تصغير شأن عمر مكرم والتهوين من أمره فيقول ان هذا الزعيم « لم ينل ما نال من المكانة لتوليه نقابة الأشراف ، بل ان مكانته ترجع الى شخصيته البارزة ، ونفسه العالية ، وشجاعته ونزاهته ، وترفعه عن الدنايا وسفاسف الأمور . ولو لم يكن نقيباً للأشراف لما نقصت مكانته عما صارت اليه من العظمة ورفعة الشأن . » (١)

وفي هذه المقابلة استبان للشيخ المهدي والشيخ الدواخلي الغرض الذي يرمى اليه محمد علي وهو تحطيم نفوذ عمر مكرم . وتلاقت هذه الرغبة مع رغبة معظم الزعماء . يقول الجبرتي « فعند

(١) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٤٧

ذلك سبين قصد الباشا لهم ، ووافق ذلك ما فى نفوسهم من الحقد للسيد عمر . . وانصرف الشيخان من هذه المقابلة وهما « مذنبان ومظهران خلاف ما هو كامن فى نفسيهما من الحقد وحفظ النفس غير مفكرين فى العواقب » ، واذا كان المهدي والدواخلى قد نجحوا فى الواقعة بعمر مكرم وعملا على هدمه ، فقد كانا يهدمان نفسيهما وزملاءهما أيضا الأمر الذى ساعد محمد على فى النهاية على القضاء على الزعامة الشعبية واقصائها عن الحياة السياسية فى مصر وانتهى بها الأمر الى أن أصبحت فى خبر كان . والواقع أن المشايخ لم يفكروا فى عاقبة مسلكهم المعيب الشائن لأنهم كانوا تحت تأثير الحقد على عمر مكرم والتحاسد والتكالب على المناصب والتطلع الى الجاه « وحفظ النفس » فكان عاقبة أمرهم خسرا .

انصرف الشيخ المهدي والشيخ الدواخلى من القلعة الى دار عمر مكرم مباشرة فألفياه يتميز من الغيظ لذهابهما الى محمد على خروجا على العهد وكان عمر مكرم شديد الرغبة فى أن يقف جميع الزعماء من محمد على صفا واحدا كأنهم بنيسان مرصوص . وقد أخبراه بما دار فى المقابلة ، وتبرعا بالدفاع عن محمد على فاذا هما يرددان نفس العبارات التى ذكرها ديوان افندى حين اجتمع بالزعماء فى الجامع الأزهر فى أول يوليو ١٨٠٩ . قال الشيخان الانتهازيان ان محمد على يكره التحكم ولكنه يقبل النصيحة تسدى اليه من المشايخ ويلتزم بها فى تصرفاته . وأضافا الى ذلك أنه قد وعد بالغاء بعض الضرائب المستحدثة وتخفيض البعض الآخر . ثم أبلغا عمر مكرم أن محمد على أراد أن يعرف منهما اسم الزعيم الذى يحمل لواء المعارضة له ويقوم بتحريض الغير عليه ولكنهما تهربا من الاجابة على سؤاله « قال (محمد على) أريد أن تخبرونى عنى انتبذ لهذا الأمر ، ومن ابتدا بالحلف ، فغالطناه ، وسياق الحديث يدل أن المهدي والدواخلى كانا غير أمينين فى ذكر هذا الجزء من الحديث

لأن معظم الحديث كان يدور في المجال الشخصي حول عمر مكرم واللعن في شخصه وتجريده من كل فضل . فلا بد أنهما ذكرا اسمه بصراحة . وما كان محمد علي في حاجة الى استيضاح اسم الزعيم لأنه يعرفه جيدا ، وانما كان سؤاله من قبيل التهديد والوعيد .

استطالت الأزمة بين الزعيم والقوى أسابيع ذات عدد . ولم تبد في الأفق بارقة أمل بانفراج الأزمة على نحو مرض للطرفين . فعمر مكرم مصر على موقفه ويطالب بأن يبادر محمد علي أولا . وقبل كل شيء الى الغاء جميع الضرائب التي استحدثتها الغاء فوريا وكاملا . أما محمد علي فكان هو الآخر شديد الرغبة في عدم المساس بسياسته الضريبية تنفيذا للمخطط السياسي الذي سبق أن أشرنا اليه على الرغم من تظاهره بالرغبة في الغاء بعض الضرائب . وتدهورت العلاقات بينهما بصورة سريعة وكان للزعماء دورهم في تفاقم الأزمة إذ « انفتح بينهم باب النفاق واستمر القيل والقال ، وكل حريص على حظ نفسه ، وزيادة شهرته وسمعته ، ومظهر خلاف ما في ضميره » .

اجتماع عاصف يدل فيه الزعيم بتصريحات خطيرة :

وكان محمد علي لا يزال يحسدوه أمل قوى في أن ينجح في استمالة عمر مكرم اليه كما استطاع اجتذاب الزعماء نحوه . واعتقد أن عمر مكرم سوف تلين قناته بعد أن أدرك أن زملاءه الزعماء قد نكصوا على أعقابهم وتسابقوا في الذهاب الى القلعة تزلها لمحمد علي حتى تزعزعت وحدتهم وتفرقت كلمتهم . وهذا هو وجه الخطأ في تقدير محمد علي ، إذ ظن أن عمر مكرم على شاكلة سائر الزعماء الوصوليين الانتهازين النفعيين . ومهما يكن من أمر ، فقد أوفد محمد علي في ١٤ من يوليو ١٨٠٩ ديوان افندي وعبد الله

يكتاش المترجم الى عمر مكرم وقابلاه في منزله حيث عقد اجتماع هام
شهادة الزعماء ، وحاول الجميع أن يزحزحوا عمر مكرم عن موقفه
وأن يستميلوه الى الصعود الى القلعة لمقابلة محمد علي . فانفجر
عمر مكرم فيهم ساخطا عليهم منكرا عليهم محاولتهم مذكرا اياهم
بالقسم الذي أقسموه على التضامن . ولم يستطع كبح جماح غضبه
فأقسم أنه لن يسعى اليه ولن يجتمع به ولن يرى له وجها الا اذا
الغى الضرائب المستحدثة . وأفاض عمر مكرم في مهاجمة محمد علي
وقال عنه انه حاكم جبل على الظلم واستنزاف أموال الشعب ،
وتنبأ بأنه اذا طال بمحمد علي حكم مصر فان المظالم ستشتد وطأتها
على الشعب . وكان مما رواه الجبرتي عن هذا الحديث الصاخب
« فحلف السيد عمر أنه لا يطلع اليه ولا يجتمع به ولا يرى له وجها
الا اذا أبطل هذه الأحداث ، وقال ان جميع الناس يتهمونى معه
ويزعمون أنه لا يتجارأ على شيء يفعله الا باتفاقي معه ويكفى ما مضى .
ومهما يتقدم يتزايد في الظلم والجور وتكلم كلاما كثيرا . » وقد
التزم الجبرتي الصمت ازاء هذا الكلام الكثير ولكن ذكره المعاصرون
اذ قرر مانجا ان عمر مكرم أضاف الى هذا الكلام النارى تهديده
باحالة الموضوع الى الباب العالى اذا أصر محمد علي على المضى في
سياسة الظلم ، كما توعد بتحريك الشعب للثورة عليه وخلعه من
الولاية كما فعل مع خورشيد من قبل ، قال عمر مكرم « وكما
أصعدته الى الحكم فاني قددير على انزاله منه » كما سجل المؤرخ جوا
العبارة الأخيرة (١) .

كانت هذه الاتهامات التي وجهها عمر مكرم الى محمد علي
والشجاعة الأدبية التي بدأها في مواجهة مندوبى الوالى كفيلا بأن

Mengin. ouvr. cit, t I p. 334

(١)

Gouin Edouard, ouvr. cit., p. 206

وانظر أيضا :

تحمل العلماء على الثبات فى موقفهم وتنسيق خطتهم مع خطة كبيرهم عمر مدرم ، فيمتنعوا جميعا عن الذهاب الى الوالى حتى يلقى كافة الضرائب المستحدته . ولكن كان أولئك الزعماء - أو مشايخ الوقت - أضعف من أن يقفوا مثل هذا الموقف ليملوا ارادتهم واردة الشعب على الوالى . فقد كان يسيطر على تصرفاتهم -الحقد والتنافس والرغبة فى التقرب الى محمد على وصولا الى المناصب الكبرى . وكان محمد على من الدهاء والحداع والخبث بحيث استطاع أن يغذى هذه الفرقة فأصبح الزعماء النفعيون فى جانب وعمر مكرم الحفيظ على مبدئه فى جانب آخر ، مما جعل بعض الباحثين يصورون عمر مكرم فى صورة الزعيم الذى كان يعوزه بعد النظر والحكمة والمرونة والحصافة السياسية ، وهو أمر سوف نتعرض لمناقشته بعد قليل .

وفد من كبار المشايخ يذهب الى محمد على :

ولما أخفقت محاولات المجتمعين فى استمالة عمر مكرم للذهاب الى محمد على قرروا أن يقوموا هم بهذه الزيارة وتقرر تأليف وفد من المشايخ عبدالله الشرقاوى ومحمد المهدي ومحمد الدواخلى وسليمان الفيومى وأرسلوا مرة أخرى الى الشيخ محمد الأمير لينضم اليهم فى ذهابهم الى محمد على فاعتذر بأن صحته لا تقوى على ركوب دابته والصعود الى القلعة . ومعنى اعتذاره أنه كان واقفا على المؤامرة التى دبرها الزعماء ضد عمر مكرم وأنه رفض أن يشترك فى حلقاتها . وذهب وفد الزعماء الى محمد على ، وتمت المقابلة فى جو يسوده النفاق « وقد فهم كل منهم لغة الآخر الباطنية » وتطرق الحديث الى موضوع الضرائب المستحدثة ، فأعلن محمد على عزمه على إلغاء ضريبة التمغة على السلع وضريبة الأتبان على أراضي الوسية وتخفيض ضريبة الفاض الى الربع . وعاد الزعماء الى عمر مكرم وأخبروه بهذه القرارات التى أزمع اصدارها وبما دار فى المقابلة . فسألهم عمر مكرم مستنكرا عما إذا كانوا قد اقتنعوا حقيقة بصحة ما قاله

لهم محمد علي ؟ ومضى عمر مكرم يقول للزعماء ان محمد علي كان قد بعث اليه يخبره بامر تخفيض ضريبة الفاض الى الربع ، فرفض عمر مكرم وأبى الا الغاءها الغاء كلياً ، لأنه في العام السابق - ١٨٠٨ - لما أراد استحداث هذه الضريبة بمقدار الربع عارضه عمر مكرم خشية أن تكون سابقة تعتمد عليها الحكومة في فرض هذه الضريبة في السنوات التالية، فأقسم محمد علي أن هذه الضريبة لن تفرض الا في ذلك العام (١٨٠٨) وذلك لمواجهة دفع المرتبات المتأخرة للجنود . وقال محمد علي يومذاك انه اذا فرضها مستقبلاً يكون ملعونا ومطرودا من رحمة الله ، وعاهد عمر مكرم على ذلك . وقال عمر مكرم للزعماء موبخاً انهم يعلمون هذه الحقائق تمام العلم فلم يسعهم الا الاعتراف بهذه الوقائع . ثم انتقل عمر مكرم يجادل الزعماء فيما قرره لهم محمد علي من أنه ألغى ضريبة الأتليان على الأرض الوسية ، فقال ان هذا الالغاء ليس الا زعماً لا أساس له . وقال ان لديه مستندات تثبت أنه شرع يجمع هذه الضريبة من بلدان مديرية البحيرة - وهي بلاد داخلية في دائرة التزام عمر مكرم - فقال الزعماء انهم أثاروا هذه المسألة مع محمد علي فأنكرها أولاً ثم عاد فاعترف بها ثانياً حين أخبروه أن لدى عمر مكرم المستندات الخاصة بها . وقد برر محمد علي فرض هذه الضريبة تبريراً غريباً ، فقال ان انشاءها انما هو اجراء تأديبي عقابي لأهالي البحيرة لتدليسهم على موظفي الحكومة، اذ كان أهل البحيرة يقدمون لهم معلومات مزورة فاذا كان في البلدة خمسمائة فدان تروى رياً عادياً قالوا عنها انها مائة فدان فقط . فأجاب عمر مكرم مستنكراً هذا التبرير ومستنكراً فرضها . وهل ذلك أمر واجب فعله ؟ اليس هو مجرد جور وظلم أحدثه في العام الماضي وهي فرضة الأتليان التي ادعى لزومها لاتمام العلوق وحلف انه لا يعود لمثلها ، فقد عاد وزاد ، وأنتم توافقونه وتسايرونه ولا تصدونه ولا تصدعونه بكلمة ، وأنا الذي صرت وحدي مخالفاً وشاذاً ؟ ، وهكذا أثبت لهم الزعيم أنهم في انشاء

مقابلتهم لمحمد على لم يكونوا يمارونه الا وراء ظاهرا غير متعمق ،
وأنتهم وهنوا وضعفوا واستكانوا أمامه حتى خدعهم خدعا فألقى في
آذانهم بمفتريات يعلمون جيدا كما يعلم هو أنها كاذبة فكأن محمد
على كان في قرارة نفسه يسخر منهم ويسخر بعقولهم . وغادر
الزعماء دار عمر مكرم ويصف الجبرتي حالهم بعد اجتماعهم بزعيمهم
« وانفض المجلس وتفرقت الآراء ، وراج سوق النفاق ، وتحركت
حفاظ الحقد والحسد ، وكثر سعيهم وتناجيهم بالليل والنهار » .

الفصل السادس عشر

عزل عمر مكرم ونفيه

القولى يحاول رشوة الزعيم :

أراد محمد على بعد أن ضاقت به الوسائل أن يجرب مع عمر مكرم سلاح المال ، فأرسل اليه كتخذه - أى وكيله - «ليترفق به» - على حد تعبير الجبرتى - ويعرض عليه عطاء غير مجدود ، فيرتب له كل يوم كيسا أى خمسة جنيهاً ، وهو مبلغ كبير للغاية بالنسبة لقيمة النقد فى ذلك الوقت ، وإن يقدم له عطاء معجلاً قدره ثلاثمائة كيس أى ألف وخمسمائة جنيه . فرفض عمر مكرم ولم يطلب إلا أن يرفع محمد على المظالم عن الشعب بإلغاء كافة الضرائب المستحدثة . ودل عمر مكرم فى موقفه على أنه زعيم أخلاقى يتميز بالنزاهة وعلو النفس لا يستطيع الحاكم أن يشتريه بمال ولو كثر . وهذا هو خطأ آخر وقع فيه محمد على حين ظن أن عمر مكرم على غرار معظم زعماء عصره الذين استطاع أن يضمهم اليه بمجرد أن لوح لهم ببعض المناصب التى يشتهونها .

عمر مكرم يحبط مكيده دبرها القولى :

أخذت الهوة التى تفصل بين الزعيم والقولى تزداد اتساعاً وعمقاً بمضى الأيام بسبب دعاة السوء الذين كانوا يترددون على القولى وينقلون اليه الآراء التى يصرح بها الزعيم فى مجالسه ويضيفون اليها ما شاء لهم الحقد من افتراءات ، فتزداد هواجس محمد على من

عمر مكرم حتى ، أصبح متعلق الحاطر بسببه ، وأرسل محمد على الجواسيس يحيطون بمنزل عمر مكرم لمراقبة حركاته ومعرفة اسماء زائريه ، ثم سولت له نفسه أمرا ، فأوعز الى بعض رجال حكومته بالاتصال سرا بعمر مكرم يسرون اليه بالمودة ويتظاهرون بأنهم ساخطون على الأوضاع القائمة في مصر ، وأنهم ناقدون على حكم محمد على ، ويبدون استعدادهم التام لتأييد عمر مكرم في أية حركة يقوم بها للاطاحة بمحمد على وحكمه ، ولكن عمر مكرم رابته هذه الاتصالات ، ولم يطمئن الى اخلاص القائمين بها ، فأعرض عنها . وكانت تصريحاته لهم هي نفس التصريحات التي كان يدلي بها للزعماء ومندوبي محمد على . فهو لا يزال على موقفه متمسكا عن الاجتماع به ، مبديا سخطه العميق على أسلوبه الباغي في حكم الشعب .

الزعم يتهم محمد على بالاختلاس والتزوير :

وحدث أثناء الازمة أن طالبت الحكومة العثمانية بأربعة آلاف كيس كانت متبقية لها على مصر من المبلغ الذي خصصه القبطان باشا . وأراد محمد على أن يتهرب من دفع هذا المبلغ فعقد مجلسا حضره المشايخ ورفض عمر مكرم حضور هذا الاجتماع ، وقد وضعت فيه مذكرة تحتوي على معلومات كاذبة ليرسلها محمد على الى الآستانة . وبلغت به الجرأة على الحق أنه قرر في هذه المذكرة أن خزانة الحكومة أصبحت خاوية نتيجة انفاق اعتمادات مالية ضخمة خصصت لمشروعات التعمير في مصر مثل سد ترعة الفرعونية واقامة منشآت عسكرية في القلعة وانشاء مجراة الماء التي تنقل الماء اليها وترميم القناطر وحفر الترع وانه أنفق ثمانمائة كيس - أى أربعة آلاف جنيه - على تجهيز الحملات العسكرية التي وجهها ضد الأمراء المماليك وقرر أيضا في المذكرة أن ضريبة الأتبان قد نقصت حصيلتها بسبب انخفاض فيضان النيل في العام السابق . وقد

وقع المشايخ على هذه المذكرة ووضعوا عليها أختامهم (١) . ثم أرسلت المذكرة الى عمر مكرم بصفته نقيبا للأشراف للتوقيع عليها ووضع ختمه عليها قبل ارسالها الى الباب العالي . فامتنع عمر مكرم، ولم يتشكك في صحة الأرقام فحسب بل انه اتهم محمد علي صراحة باختلاس الأموال العامة والتدليس على الحكومة العثمانية ، وقال للرسول الذي حمل اليه المذكرة ان الأموال التي جمعها محمد علي من الشعب تزيد أضعافا مضاعفة على ما أنفقه على سد ترعة الفرعونية وهو المشروع الوحيد الذي نفذه ، أما سائر المشروعات التي جاء ذكرها في المذكرة فكلها من نسج الخيال ، وكلها كذب ، وكلها اختلاق ، ثم قال للرسول « ان وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصري من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر ، (٢) » .

عزل عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه :

اشتد حنق محمد علي حين نقل اليه الرسول هذه الاتهامات الخطيرة ، وخشى أن تسمع بها دوائر الباب العالي في الآستانة ، فعول على تسوية النزاع وديا ، وطلب أن يجتمع بعمر مكرم ولكن الزعيم اشترط - قبل أن يتم الاجتماع - أن يلغى محمد علي فورا جميع الضرائب التي فرضها مؤخرا على الشعب . ولما أكثر محمد علي من التراسل قال عمر مكرم اذا كان لا مناص من الاجتماع به فاني أقابله في منزل الشيخ السادات لتكون المقابلة على سواء ، « أما طلوعي اليه فلا يكون » . وبلغت الأزمة منتهاها اذ اعتبر محمد علي هذا الشرط تحقيرا من شأنه وقال « انه بلغ به (بعمر مكرم) أن يزدريني ويرذلني ويأمرني بالنزول من محل حكى الى بيوت الناس » .

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٦٨ .

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٩٨ .

صحت عزيمة محمد علي على القولى على التخلص من عمر مكرم باعتبارها تائرا على السلطة الشرعية فى البلاد (١) ولجا الى طريقة ظاهرها التمسك بقواعد الشرع وباطنها استغلال النفوذ وشراء ذمم الزعماء ضعاف النفوس ، واطمأن الى أن هذه الطريقة لن تثير عليه الشعب ، لأنه أشرك معه قاضى القضاة والزعماء الوصوليين أمثال الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدي والشيخ السادات والشيخ الدواخلى والشيخ الفيومى وكلهم من صنائعه وطلاب منافع شخصية . فنزل محمد علي من القلعة الى منزل ابنه ابراهيم بالأزبكية ، وكان ذلك فى ٩ من أغسطس ١٨٠٩ ، واستدعى القاضى والمشايخ ، وطلب عقد مجلس شرع ليفصل فى النزاع الذى شجر بينه وبين عمر مكرم ، واتخذ محمد علي من المشايخ شهودا له يركن اليهم فى جولته النهائية يحسم بها النزاع . وسواء حضر عمر مكرم أمام مجلس الشرع أو امتنع عن حضوره فإن محمد علي كان مطمئنا الى أن الحكم سوف يصدر لصالحه تأسيسا على شهادة المشايخ . وفى هذه الحالة يكون لمحمد علي الحق فى نفيه جزاء خروجه على السلطة الشرعية بدون وجه حق . أما اذا رفض عمر مكرم حضور مجلس الشرع ، فإن هذا الرفض يكون خروجا على ولى الأمر ، ويكون له نفس الأثر القانونى . فالمؤامرة كانت محكمة التدبير ، ولو كان الزعماء قد تكتلوا الى جانب كبيرهم عمر مكرم لما استطاع محمد علي أن ينال من خصمه منالا .

أرسل كل من محمد علي وكبير القضاة رسولا الى عمر مكرم يستدعيانه للحضور الى مجلس الشرع « ليتحقق ويتشاور معه ، واشتم عمر مكرم رائحة التآمر عليه فاعتذر بمرضه عن المثول أمام مجلس الشرع وعاد الرسولان « وأخبرا بأنه شرب دواء ولا يمكنه

الحضور في هذا اليوم ، • وعندئذ طلب محمد علي من قاضي القضاة أن يثبت امتناعه وأمر بعزله من نقابة الأشراف ونفيه فورا من القاهرة وفي نفس الوقت أصدر قرارا بتعيين الشيخ السادات نقيبا للأشراف • وكان الآخر يطمع في هذا المنصب من أمد بعيد • وأحضر محمد علي خلعه وألبسها للنقيب الجديد الذي كان حاضرا المجلس (١) •

وتظاهر الزعماء بالعطف على عمر مكرم فتشفعوا في أمهاله ثلاثة أيام حتى يرتب شئون أسرته قبل رحيله ، فأجابهم محمد علي الى ذلك ، ثم سألوه أن يأذن له في الإقامة في أسيوط وهي مسقط رأسه لتكون منفي له ، فرفض وقال ان له الخيرة بين دمياط وبين الاسكندرية ، وانفض المجلس على ذلك •

في هذه المحنة ظهرت أخلاق الزعيم في جلالها وروعها ، فلم تخذله شجاعته لحظة واحدة ، ولم يضعف أمام هذه الصدمة ، بل ظل ثابت العقيدة سليم الوجدان • ولما أبلغ بقرار محمد علي قال « أما منصب النقابة فاني راغب عنه وزاهد فيه ، وليس فيه الا التعب • وأما النفي فهو غاية مطلوبى وأرتاح من هذه الورطة ، • وأظهر ابناء وشعما وعلو نفس ، فلم يتقدم بمطالب شخصية أو بالتماس لتخفيف الحكم بالاعتصار مثلا على عزله من نقابة الأشراف والسماح له بالإقامة في القاهرة مع ذويه • كان كل ما قاله بعد قرار العزل والنفي ، انه اذا رفض محمد علي أن يسمح له بالسفر الى أسيوط فانه يفضل أن يكون النفي الى بلدة ليست تحت حكم محمد علي • واقترح عمر مكرم مدينة درنة في طرابلس الغرب أو الطور ولكن أبى محمد علي أن ينزل عن رأيه وتمسك بأن تكون دمياط منفي له •

(١) أمين سامي : تقويم النيل ج ٢ ، ص ٢١٨ •

استدعى عمر مكرم باشجاويش نقابة الأشراف وطلب منه أن ينصرف هو والشاويشيه المعينون للنقابة الى بيت الشيخ السادات نقيب الاشراف الجديد . وأخذ الزعيم يستعد للرحيل ، وعهد الى السيد محمد المحروقي كبير التجار بأن يكون وكيله عنه في ادارة أملاكه وفي رعاية شئون أفراد أسرته . وكان محمد المحروقي خشي على نفسه ان يقبل هذه الوكالة ويستهدف لانتقام محمد علي ، فعرض عليه الأمر فأذن له وتظاهر محمد علي رياء ونفاقا بالعطف والتقدير لعمر مكرم فقال ان عمر مكرم (آمن من كل شيء ، وأنا لم أزل أراعى خاطره ولا أفوته) واصطحب المحروقي حفيد عمر مكرم الى محمد علي ، فأحسن مقابلة الغلام ولكنه أصر على ضرورة سفر جده الى دمياط . ولما ذاع بين الجماهير نبأ صعود الغلام الى القلعة أحسنوا الظن بمحمد علي . واعتقد الشعب الطيب القلب أنه عدل عن قراره . وانتشرت هذه الشائعة بسرعة البرق بين الأهالي ، واحتواهم شعور دافق بالابتهاج الشديد . وكان أفراد أسرة الزعيم أكثر الناس ابتهاجا بطبيعة الحال ، وأطلقت نساؤها الزغاريد . واستمر الجميع سادرين في هذا الوهم والخيال حتى اذا عاد الغلام من القلعة وعرفوا الحقيقة انقلبت أفراحهم أتراحا .

عهد محمد علي الى أحد الضباط وهو محمد كتخدا الألفي بحراسة عمر مكرم في سفره الى دمياط . وتحدد يوم ١٢ من أغسطس ١٨٠٩ موعدا لرحيله من القاهرة . وفي هذا اليوم اجتمع المودعون لتحية عمر مكرم وحضر الضابط الى منزله فقام الزعيم في الحال وركب دابته في حراسة عسكرية وذهب الى بولاق - ميناء القاهرة النهري - واستقل سفينة اعدتها له الحكومة وأبحرت به ليلا الى دمياط . ويصف الجبرتي وداع القاهريين له وحزنهم على فراقه لهم « وشيعه الكثير من المتعممين وغيرهم وهم يتباكون حوله حزنا على فراقه ، وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر

(القاهرة) ، لأنه كان ركناً وملجأ ومقصدا للناس ، ولتعصبه على
نصرة الحق ، . وفي ١٩ من أغسطس ١٨٠٩ وصل الى القاهرة محمداً
كتخداً الألفى ، راجعاً من تشييع السيد عمر ووصوله الى دمياط
واستقراره بها ، .

الفصل السابع عشر

مناقشة موقف عمر مكرم

قد يرى البعض أن عمر مكرم أسرف اسرافا بعيدا في موقف الصلابة والعناد من محمد علي حين رفض الطلبات المكرورة التي أرسلها اليه محمد علي للاجتماع به ابتغاء انهاء أسباب النزاع الذي احتدم بينهما . وقد يرى البعض أيضا أنه لو كان عمر مكرم استجاب لهذه الدعوات التي ألحف محمد علي في توجيهها لما تعرض لمثل هذه النهاية المؤسفة ولاحتفظ بمكانته كزعيم يتمتع بشعبية واسعة عريضة ، ولأراح الشعب المصرى من السياسة الضريبية التي أثقل بها كاهل الجماهير .

ولنتناقش هذه النقاط الثلاث بادئين بالنقطة الأولى وهي اصرار عمر مكرم على رفض الاجتماع بمحمد علي . كان النزاع الذى دب بينهما يدور حول مبدأ سياسى واقتصادى يتصل بنظام الحكم . وهذا المبدأ هو وجوب حصول الحاكم على موافقة الشعب - ممثلا في زعمائه - على انشاء أية ضريبة جديدة . وكان هذا لمبدأ هو أحد أركان الوثيقة التى بايع الزعماء والشعب محمد علي عليها يوم نادوا به واليا على مصر . وقد رأى عمر مكرم أن محمد علي بعد أن توطد مركزه في مصر أطاح بهذا المبدأ الأساسى وعسف بالجماهير حتى أصبحت تعيش عيشة ضنكا . فأراد أن يلغى محمد علي أولا وقبل كل شيء جميع الضرائب المستحدثة الغاء كلياً وفورياً . وكان هذا هو الشرط الذى تمسك بتنفيذه قبل أن يجتمع بمحمد علي . حقيقة

أن محمد علي أعلن للزعماء في مقابلاته لهم عن عزمه على إلغاء بعض الضرائب وتخفيض البعض الآخر . ولكن أدرك الزعيم بشاقب نظره أن هذا الإعلان مجرد وعود استهدف منها الخداع والتمويه وتخدير الأعصاب حتى يغرى عمر مكرم على مهادنته وتمر الأزمة بسلام ، وليس أدل على ذلك من أن محمد علي لم يضع هذا الوعد موضع التنفيذ قط بل مضى سائرا في طريقه يفرض المزيد من الضرائب يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد : « ولكن السيد عمر رفض أن يذهب ليفاوض في تفصيل الشكوى ، قبل أن يعلن الباشا الأساس الذي يفاوضهم عليه ، وكان رأيه أن الخلاف قائم على مبدأ لا يقبل جدلا ولا مناقشة فان الباشا لا يصح له أن يغير ويبدل في نظم الحكم ، ولا أن يفرض ما يشاء من الضرائب ، ولا أن يحكم الناس بغير قانونهم وعاداتهم وما كسبوه من قبل من ضمانات لحرمتهم . وهذا المبدأ لا يحتمل المناقشة ولا المفاوضة ، بل الواجب أن يبدأ الباشا بالتسليم به بلا قيد ولا شرط ، » (١)

ويجب أن نضع في الاعتبار المشاعر التي ازدحم بها صدر عمر مكرم إزاء محمد علي . كان الزعيم قد ساندته خلال السنوات الأولى من حكمه في جمع الضرائب والأتاوات من التجار وأرباب الحرف ومن اليهم شعورا منه بأن حكومة محمد علي في حاجة ملحة إلى المال لمواجهة المواقف الشائكة التي كانت تحف بها وقتذاك ، واعتقادا منه بأن هذه الأتاوات هي أمر طارئ يزول بزوال أسبابها ولكن محمد علي استمرأ هذه السياسة الضريبية وأراد أن يجعل لها صفة الدوام . وأحس عمر مكرم أن مركزه قد غدا ضيقا حرجا أمام الأهلين وقد عبر عن ذلك بقوله انه في « ورطة » و « ان جميع الناس يتهموني معه ، ويزعمون انه لا يتجارأ على شيء يفعله الا باتفاقي معه

(١) محمد فريد أبو حديد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٦ .

وينفى ما مضى • « والجملة الأخيرة تجلو تماما موقف عمر مكرم يقول أمين سامى تعليقا على اقالة عمر مكرم من نقابة الاشراف ان « السيد عمر ارتاح لتخليه عما كان يتحمله من مهام المسئولية التى كانت تلقى على عاتقه لاعتقاد الرعية أنه لولاه لما يتيسر للوالى الباشا فرض. كل هذه المظالم ، وكان من قبل ذلك قد حلف بأنه لا يقابل الباشا ولا يرى وجهه الا اذا رفع كل المظالم • » (١) والواقع ان السيد عمر مكرم كان قد يثس تماما من اصلاح محمد على ، وأيقن بما لا يدع مجالا للشك أنه رجل ينقض الايمان وينكث العهود ، وكان أقرب دليل على ذلك أنه - حين فرض ضريبة الفاض لأول مرة فى سنة ١٨٠٨ - اقسم أنها مؤقتة وانه اذا فرضها بعد ذلك « يكون ملعونا ومطرودا من رحمة الله • » ولكنه حنث فى يمينه وقرر فى سنة ١٨٠٩ استمرار فرضها • وكان هذا الحادث مما أثارحنق عمر مكرم وجعله يمتنع عن الاجتماع به ويتشدد فى مطالبته اولا بالغاء الضرائب المستحدثة وتطبيق المبدأ الذى ارتضاه دستورا لحكمه وهو عدم انشاء اية ضريبة الا بعد الرجوع الى زعماء الشعب يضاف الى ذلك أن عمر مكرم لم يكن من الساسة الذين يقبلون أنصاف الجلول ، كما أنه لم يكن فى مقدوره أن يتراجع الا اذا نزل القولى على رغبته ، وكان من أبرز سـجـايا الزعيم الانفة والاباء والشم • وكان يرى أن كرامته وسابقة مكانته بين الجماهير تأبى أن عليه التراجع أو التقهقر أو التنازل عن شرطه الذى أعلنه على الملأ •

أما النقطة الثانية وهى القول بأنه كان فى استطاعة عمر مكرم أن يتجنب النهاية المؤسفة التى أسفر عنها نزاعه مع محمد على فمردود عليها بأن الزعماء هم المسئولون عن هذه المأساة التى تمثلت فى عزله من منصبه ونفيه وأقول نجمه السياسى •

(١) أمين سامى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ص ٢١٨ •

إن الخطأ الذي وقع فيه عمر مكرم هو أنه كان يعتقد أن في معظم الزعماء بقيه من اخلاق . لقد تكشفت له خلال مراحل الأزمة أنهم تخلوا عنه وأنهم نكثوا العهد ، فكانوا هم ومحمد علي من هذه الناحية سواء . ولكن لم يدر بخلده أن ينحدر الزعماء الى هذا الدرك الأسفل فيقبلوا الدور غير الكريم الذي قاموا به حين جعلوا من أنفسهم شهودا على عمر مكرم في مجلس الشرع ، واستند محمد علي الى شهودهم واصدر قرار العزل والنفي . فهم يتقاسمون مع محمد علي مسئولية ما وقع لعمر مكرم ، بل لعل مسئوليتهم تفوق من الناحية الاخلاقية مسئولية القولي . لان الزعماء كانوا هم أول البادئين بالدعوة الى معارضة محمد علي والشكوى من سياسته الضريبية حين مست هذه السياسة مصالحهم الشخصية، ودعوا عمر مكرم لينضم اليهم ، وكان في شبه عزلة سياسية ، ولكن أمام الحاح الشعب عليه وتطلعهم اليه وهتافهم باسمه لم يتردد عن تلبية النداء . وأخذ عمر مكرم المواقف على الزعماء الا يتراجعوا الا بعد أن ينزل القولي على ارادة الشعب، ثم لم يصبحوا بعد ذلك أول البادئين بالتراجع والنكوص على اعقابهم فحسب ، بل عملوا على مهاجمته ومحاولة تجريده من كل فضل والكيد له ، والواقع أن التشجيع الذي لقيه محمد علي من الزعماء ساعده على توجيه ضربته السريعة الأليمة واذا كانت هذه الضربة قد أصابت عمر مكرم أولا فانها لم تلبث أن ارتدت الى صدورهم فهوت زعامتهم ولقى بعضهم نفس المصير من النفي والتشريد كما سنرى بعد حين .

أما احتفاظ عمر مكرم بزعامته الشعبية في ظل الحكم الاستبدادي الذي مارسه محمد علي فكان أمرا مشكوكا فيه ، لان اقضاء هذه الزعامة عن الميدان السياسي كان هدفا سياسيا سعى اليه محمد علي وضرورة سياسية في نظره لتنفيذ المخطط السياسي الذي وضعه لنفسه ولإسارته منذ سنة ١٨٠٧ وقد سبق أن تناولنا هذا المخطط بالشرح .

بقيت النفط الأخيرة التي تلوّك بها بعض الألسنة وهي أن صلابة عمر مدرم قد حالت دون اجتماعه بمحمد علي ووصوله إلى اتفاق معه بشأن سياسته الضريبية يريح الشعب من فداحة الضرائب التي انفل بها دهره . وهذه النقطة مردود عليها بأنه لو تم اجتماع بين الزعيم وبين محمد علي ووصل الاثنان إلى اتفاق لتعديل النظام الضريبي تعديلا جذريا - على أحسن الفروض - فإن مثل هذا الاتفاق ما كان ليصير طويلا ، لأن محمد علي كان مصرا كل الإصرار على أن ينفذ تنفيذا صارما البرنامج الاقتصادي الذي وضعه ، وكان هذا البرنامج حجر الزاوية في سياسته العامة . فقد استهدف السيطرة المحكمة على جميع موارد البلاد ومرافقها الاقتصادية : فألغى نظام الالتزام ووضع يده على أراضي الأوقاف وجعل من نفسه مالكا للأراضي الزراعية في مصر وابتكر أنواعا عديدة وثقيلة من الضرائب العينية والنقدية ، وحدد للفلاحين سياسة زراعية لا يحدون عنها ، وانتهى به الأمر إلى أن أصبح الزارع الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد في مصر .

لم يشمت الجبرتي بعمر مكرم :

تلاقى عمر مكرم والشايخ عبد الرحمن الجبرتي في معارضة حكم محمد علي ونقد سياسته المالية وبوجه خاص أساليبه التعسفية « والحيل » التي لجأ إليها في ابتزاز الأموال من الجماهير الكادحة . وكان لكل من الزعيم السياسي والمؤرخ أسلوبه الخاص في هذه المعارضة تبعا لنوع العمل الذي اضطلع به كل منهما . كانت معارضة عمر مكرم علنية سافرة بينما بقيت معارضة الجبرتي صامتة . إذ أثر عدم الجهر بتذمره وسخطه ومضى يسجل الأحداث ويعلق عليها في ضوء النظرية التي اعتنقها عن شئون الحكم وأصول السياسة وكان قوام هذه النظرية أن العلم والعدل هما أساس الحكم

الصالح ومعيار السياسة الرشيدة . وأن الحكام اما افراد يتسمون بالعلم والعدل واما أشخاص يتصفون بالجور والظلم والجهل . وانتهى في رأيه الى أن محمد على ليس بالحاكم العالم ولا بالحاكم العادل . فقد اختل في نظر الجبرتي ميزان العدل في حكومة محمد على ورأى أنها استمرار لعهد المظالم والقروض الاجبارية والضرائب الجغرافية ، وأن الشعب وزعماءه المتصدرين من أشياخ وأعيان لم يلقوا الا الهوان والازدراء على الرغم من التضحيات التي بذلوها في سبيل انزال أحمد خورشيد باشا من القلعة وتقليد محمد على الحكم . وأصبح الجبرتي يرى أن من شيمة محمد على الامعان في الظلم والاستبداد والحسد والتجسس على الناس والتطلع الى مافى أيديهم لا صديق ولا حبيب له « يحب الشوكة ونفوذ أوامره في كل مراد ، ولا يصطفى ويحب الا من لا يعارضه ، ولو في جزئية ، أو يفتح له بابا يهب منه ريح الدراهم والدنانير ، أو يدله على مافيه كسب أو ربح من أي طريق أو سبب ، من أي ملة كان . » وكان عمر مكرم يعتنق نفس هذه الآراء .

هذا اللقاء الفكري بين عمر مكرم والجبرتي كان من الأسباب التي جعلت الجبرتي يحمل تقديرا عميقا لعمر مكرم ويتجلى هذا التقدير في اشاداته بمواقف الزعيم الوطنية وسجاياه العالية سواء في بث روح العزة والكرامة في نفوس المواطنين مستنفرا اياهم للجهاد ومنظما المقاومة الشعبية ابان فترات الغزو الأجنبي على عهد الحملة الفرنسية والحملة البريطانية سنة ١٨٠٧ ، وسواء في تدخله لدى الحكام لرفع المظالم عن الشعب أو لثباته على المبدأ وإبائه وشممه وشجاعته .

ولكن على الرغم من التقدير العميق الذي كان يكنه الجبرتي لعمر مكرم ، فانه لم يتمالك نفسه من ابداء حنقه على هذا الزعيم ، لانه كان السبب في تولية محمد على حكم مصر . فيقول ان الضيق

الذى نزل بعمر مكرم على يد محمد على هو بعض ما يستحقه .
ونحن نورد هنا النص الحرفى لتعليق الجبرتى على النهاية المؤسفة
التي انتهت بها الحياة السياسية لعمر مكرم وأما السيد عمر
مكرم فان الذى وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان ظالما سلط
عليه ، ولا يظلم ربك أحدا . ، فالخطأ السياسى الذى وقع فيه عمر
مكرم وجعل الجبرتى يقول عنه هذه العبارة يتمثل فى مساندة
الزعيم لمحمد على حتى ارتفع به الى منصب الولاية ثم تأييده له ابان
الازمات التي واجهته خلال السنوات الاولى من حكمه .

والواقع أن عمر مكرم والشعب كانا ضحية تمثيلية بارعة قام
بها محمد على القولى وصولا الى الحكم ، فتظاهر بالعطف على الجماهير
ابان الفترة الرهيبة التي مرت بها البلاد عقب خروج الفرنسيين
حتى انقلاب مايو ١٨٠٥ حين مزقتها الفوضى السياسية وتعرض
الشعب لاعتداءات منكرة على أيدي الجنود العثمانيين وعانى
الازمات الاقتصادية الحادة . وكان محمد على هو الوحيد - من بين
طوائف العثمانيين - الذى أظهر شعورا طيبا نحو الجماهير وتودد الى
زعيم الشعب عمر مكرم وأكثر من التردد عليه فى منزله وأقسم
له أنه لو شاءت الأقدار أن يحكم مصر فانه يلتزم العدل ويرجع
الى الزعماء يستشيرهم فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الحكم .
وتوهم عمر مكرم فيه الصدق والاخلاص . وانه نموذج بشرى
فريد من رجال الحكم العثمانى . وكان عمر مكرم يحويه شعور
غامر بالعطف الحقيقى غير المصطنع على الشعب والرغبة الفياضة
فى انقاذه من هذا الهوان الذى يلقاه من طوائف العثمانيين .
فرأى أن الوسيلة المثلى لانتشال البلاد من وهدة الفوضى ولتخليص
الشعب من آلامه انما تكون بالمناداة بمحمد على واليا على مصر
من العنت والارهاق والمظالم . وما كان فى مقدور عمر مكرم أن
يستشف شيئا من خبايا ذلك الرجل القولى الذى أوتى نصيبا
موفورا من الخبث والخذاع والالتواء . فقام عمر مكرم بدور

قيادى فى انقلاب مايو ١٨٠٥ وتزعم ثورة شعبية هادرة ولم يستهدف تحقيق مغانم شخصية له . واذا كان محمد على قد أبدع فى تمثيليته ونجح فى التظاهر بأنه الحاكم المثالى فان عمر مكرم قبل كل شىء من البشر ولا يعلم السرائر الا الله وانما الاعمال بالنيات .

ومع ذلك فان تلك العبارة القاسية التى علق بها الجبرتى على مأساة عمر مكرم لم تقلل اطلاقا من تقدير الجبرتى للزعيم . فقد جاء فى نفس السياق وقبل ذكر تلك العبارة مباشرة تقدير لعمر مكرم وابرار أفضاله على زملائه الزعماء وعلى الشعب « ان السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم (على الاشياخ والمتصدرين) وعلى أهل البلدة ويدافع ويرافع عنهم . ولم تقم لهم (للزعماء) بعد خروجه من مصر (القاهرة) راية ، ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض . »

وعلى الرغم من أن الجبرتى حاول أن يتوخى العدالة والحيدة وهو يؤرخ لمحمد على الا أن كتابته عنه فى مجموعها كانت تفيض منها روح الموجدة الشديدة على أساليب محمد على الجائرة فى حكم الشعب . وكانت كتابته فى هذا الصدد عن اقتناع عميق بما يشعر به ويختلج فى نفسه من أحاسيس وقد تركت كراهية الجبرتى لحكم محمد على انطباعات عميقة الغور فى تفكيره جعلته يتمنى زوال حكم محمد على ، وجعلت تعليقاته لاذعة عنيفة تزخر بالسخرية والتهكم .

وكانت حفيظة الجبرتى على القولى هى التى جعلته يغلو فى حملته على الزعماء مشايخ الازهر ويرميهم بكل نقيصة لأنهم بتخاذلهم وانقساماتهم وتكالبهم على الدنيا قد ساعدوا الوالى على الايقاع بالزعيم عمر مكرم . وكان نفي الزعيم هو الخطوة الأولى

في القضاء على الزعامة الشعبية وانفراد محمد علي بالحكم دون رقيب أو حسيب .

نخلص من هذا التحليل السريع الى أن العبارة التي وردت في كتابة الجبرتي تعليقا على مأساة عمر مكرم لم تكن نوعا من الشماتة بالزعيم ، بل ان تلك العبارة أملاها شعور الجبرتي بالكراهية الشديدة لحكم محمد علي من ناحية وبالأسى والمرارة من موقف الزعماء تجاه كبيرهم عمر مكرم من ناحية ثانية .

البَابُ السَّابِعُ

محنة أخلاق

الفصل الثامن عشر

الزعماء يتقاضون ثمن تأمرهم على كبيرهم عمر مكرم

بعد أن تمت المؤامرة وعزل عمر مكرم من نقابة الأشراف وخرج منفيا من القاهرة الى دمياط اعتقد الزعماء أن « الوقت قد صفا لهم » (١) ، وسرعان ماظهرت أخلاق معظمهم على حقيقتها ، فاذا هي تنضح بالوصولية والنفعية وتتشح بالكذب والرياء . وكان الشيخ محمد المهدي أسبقهم في هذا المضمار . ففي صبيحة اليوم الذي ارتحل فيه عمر مكرم الى منفاه في دمياط ذهب هذا الشيخ في غير استحياء الى محمد علي ، والتمس منه المكافأة على تدبير المؤامرة ، وطلب أن يقلده وظائف عمر مكرم ، فأنعم عليه محمد علي بالتنظر على أوقاف الامام الشافعي ووقف سنان باشا في بولاق . وكان هذان الوقفان تحت يد عمر مكرم (٢) ، ولم يقنع الشيخ المهدي بذلك بل طلب مكافأة مالية معجلة لم يصعب عليه أن يجد لها تبريرا ، فقال انها المتأخر له من الغلال مدة أربع سنوات غاب فيها عن القاهرة ، كان يجوس فيها خلال الديار التي تحت التزامه مثل طنطا والمحلة الكبرى والأسكندرية .

ولا يتبادر الى الذهن أن الشيخ محمد المهدي كان غافلا عن هذه المتأخرات ، فلم يتذكرها ولم يطالب بها الا بعد رحيل عمر مكرم الى المنفى . بل ان ملابسات الموقف تدل على أن هذه المتأخرات

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٩٥ .

(٢) على مبارك الخطط التوفيقية ج ١ ص ٦٨ ، ج ١٧ ص ١١ .

كانت مستحقة له فعلا ، وكان محمد علي يسوف في سدادها ، وكان معروفا عن هذا القولى أنه يماطل في دفع الأموال لأصحابها أو مستحقيها ، فأراد الشيخ المهدي انتهاز الفرصة للمطالبة بها بعد أن تم الايقاع بعمر مكرم . وقد عرف الشيخ المهدي كيف يختار الوقت والمناسبة . وفعلا استجاب محمد علي لرغبة الشيخ الانتهازي ، وأمر بأن تدفع له قيمة المتأخرات نقدا من خزانته . وقام المهدي بتقديرها بنفسه فبلغت خمسة وعشرين كيسا . فهذا الفيض من الانعامات والكرم الذي غمر محمد علي به الشيخ المهدي انما كان - على حد تعبير الجبرتي - « في نظير اجتهاده في خيانة السيد عمر » (١) .

أما الشيخ محمد السادات فتولى نقابة الأشراف بعد عزل عمر مكرم منذ ٩ من أغسطس ١٨٠٩ « وبلغ مأموله » (٢) لأنه كان يتوق الى هذا المنصب الرفيع منذ أمد بعيد ، وعمل جاهدا على انتزاع النقابة من منافسه العملاق عمر مكرم . وكان يصرح بأن منصب النقيب من الوظائف القديمة المحصورة في أسرة السادات . ويقرر الجبرتي صراحة أن الضربة الأليمة التي وجهها محمد علي الى عمر مكرم كانت بتدبير الشيخ السادات ، وأن عزل الزعيم ونفيه قد صادفا هوى عميقا في نفس الشيخ السادات « لحقده الباطن على السيد عمر مكرم وتشوقه الى النقابة » .

أما الشيخ محمد الدواخلي ، وكان أحد المتأمرين على عمر مكرم، فقد تقرب الى محمد علي ، وسمح له القولى بهذا التقرب الى حين ، ومارس في ظلال هذه الخطوة نفوذا ارتاحت اليه نفسه . ولما مات الشيخ السادات عينه محمد علي نقيبا للأشراف . وعندئذ « ركب الخيول ، ولبس التاج الكبير ، ومشى امامه الجاويشية والمقدمون

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٩٩ .

(٢) ص ٢٣٤ من المصدر السابق .

وأرباب الخدم ، وازدحم بيته بأرباب الدعاوى والشكاوى ، وعمر دار
سكنهم القديمة بكفر الطماعين ، وأدخل فيها دورا ، وأنشأ تجاهها
مسجدا لطيفا ، وجعل فيه منبرا وخطبة ، وعمر دارا ببركة جناق ،
وأسكنها إحدى زوجاته ، وداخله الغرور ، وظن أن الوقت قد صفا
له ، .

هذه صور سريعة لمسلك ثلاثة من كبار الزعماء الذين اشتركوا
مع محمد على في التآمر بعمر مكرم وكيف عملوا على الافادة ماديا من
هذه المأساة التي حلت بالزعيم . ونذكر هنا تعليقين لاذعين ، أحدهما
للأستاذ محمد شفيق غربال إذ أطلق على المكافآت التي قدمها محمد
على الى المشايخ بأنها « شئ من فضلات الأرزاق » (١) ، أما التعليق
الآخر فهو للأستاذ محمد فريد أبو حديد ، إذ يقول « واشترك هؤلاء
الزعماء في اقتسام الغنائم بعد الايقاع بزميلهم النبيل . ولعلنا
لا نكون سابحين في الخيال اذا تصورنا الباشا البعيد الغور ، وهو
يبتسم لهم إذ يعطيهم ما يشامون ، وينفذ لهم ما يريدون ، وهو في
قرارة نفسه يسخر من بخس أثمانهم وهوان أقدارهم ، اذا قاسهم
بالرجل الذي نفاه وقلبه مفعم بتقديره واجلاله » (٢)

ننتقل الى صورة أخرى مفزعة رهيبة لمسلك جماعى انتهجه الزعماء
ضد عمر مكرم وكأنهم لم يقنعوا بعزله ونفيه ، فاثروا أن يمضوا الى
نهاية الشوط تزلفا لمحمد على وطمعا في مزيد من المغانم يأخذونها
من ناحية ، وكيدا لعمر مكرم في محنته من ناحية ثانية . فارتضوا
لأنفسهم أن يكونوا أداة طيعة لينة في يد محمد على يستغلهم اسوأ
استغلال في الصاق الارجيف والاكاذيب بكبيرهم « السابق » عمر
مكرم .

(١) محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ص ٥٧ .

(٢) محمد فريد أبو حديد ، مرجع سبق ذكره ص ١٩٧ .

المسألة لم تتم فصولا :

كان محمد علي يشعر في قرارة نفسه أن الاجراءات التي اتخذها ضد عمر مكرم إنما هي اجراءات تعسفية ، وخشى أن تراجعها فيها دوائر الباب العالي في الاستانة أو قد تطلب منه ايضا حيا عن حقيقة المسألة ، فأراد أن يحتاط لمثل هذه الاحتمالات . ويلاحظ أن قرار تعيين عمر مكرم نقيبا للاشراف كان قد صدر في المرة الثالثة من الاستانة بعد أن عزلت الحكومة العثمانية الافاق التركي يوسف افندي من نقابة الاشراف وأعادت عمر مكرم نقيبا في ابريل ١٨٠٢ .

اتخذ محمد علي من المشايخ المنفيين أدوات مسخرة له استخدمهم في الكذب والتضليل . ويطلق الجبرتي على هؤلاء المشايخ تهكما عليهم وسخرية بهم عبارة « مشايخ الوقت » أمر محمد علي الزعماء النفعيين بكتابة عريضة ترسل الى الباب العالي يبرر فيها أسباب عزل عمر مكرم من منصبه ونفيه الى دمياط . وصدع المشايخ بأوامر محمد علي وجاءت المذكرة حافلة بمجموعة من الأكاذيب الصارخة والاتهامات الباطلة وانحدر الزعماء فيها الى حد الاسفاف في الحصومة الجارحة ، وقلبوا المواقف المشرفة التي امتازت بها حياة عمر مكرم السياسية الى صور من الحزى والعار ويكفى أنهم اتهموه بالخيانة وأنه سهل للانجليز احتلال مدينة الاسكندرية ابان حملة فريزر في سنة ١٨٠٧ مع أنه هو الذي تصدى لتنظيم المقاومة الشعبية كما مر بنا .

وقرر المشايخ في عريضتهم أن عمر مكرم أدرج في سجلات الاشراف أفرادا ممن أسلموا من الاقباط واليهود . ومن المعلوم أن الاشراف هم الذين ينتسبون الى البيت النبوي الكريم ، ثم قالوا انه استبعد فريقا من الاشراف وأوقف صرف استحقاقاتهم في الأوقاف ووجهها الى الاقباط واليهود الذين أسلموا . ومضى المشايخ في اتهاماتهم فقالوا ان عمر مكرم أضاف أيضا الى سجلات الاشراف عددا من أشرار الناس وانه أغرى الأمراء المماليك على استدراج علي باشا الجزائري الوالي العثماني من الاسكندرية الى القاهرة ثم قتله في صحراء

الشرقية . ونسبوا الى عمر مكرم أنه استولى على رشا من محمد الألفى بك الكبير قبل موته لتمكينه من حكم القاهرة على عهد ولاية أحمد خورشيد باشا ، وأنه تواطأ مع المماليك وسماهم الزعماء « البغاة المصريين » ليدخلوا القاهرة على حين غفلة من أهلها يوم الاحتفال بوفاء النيل . وكانوا يشيرون الى حادث ١٦ من اغسطس ١٨٠٥ . كما اتهم المشايخ عمر مكرم بأنه سعى لتدبير انقلاب ليصف بحكم محمد على وليولى أحدا غيره (١) . وهذا الاتهام يثير الباب العالى على عمر مكرم لانه يظهره فى صورة السياسى المحترف الذى أصبح خبيرا فى اسقاط الولاة وتعيين غيرهم دون استئذان السلطان بصفته صاحب السيادة الشرعية على مصر . وانتقل الزعماء فى عريضتهم الى اتهام آخر فزعموا أن عمر مكرم قام باتصالات سياسية عرضت أمن الدولة للخطر اذ تخابر مع الاعداء فى وقت الحرب حين قدمت الحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ واحتل البريطانيون مدينة الاسكندرية « ولكن نصر الله عليهم العساكر الاسلامية وغير ذلك من عبارات عكس القضية وتحقيق الاغراض النفسانية » ، وخلص الزعماء من هذه الاتهامات الى القول بأن عمر مكرم هو السبب فى خراب مصر واثارة الفتنة ، وأنه يعمل على تكوين عصبية من أهل الصعيد ومن المغاربة والعمامة ليكونوا عدته وعشيرته فى تنفيذ مخططاته السياسية ، وأرسل محمد على هذه « الفتوى الشرعية » الى الباب العالى فى الاستانة واستند اليها فى اقالة عمر مكرم من نقابة الاشراف « حسما لما هو حاصل من المداخلة فى شئون الولاية » ، (٢) .

وهكذا نرى أن الزعماء الحاقدين على عمر مكرم قد لجوا فى عتو ونفور وانحراف عن جادة الحق والصواب . وكان أسلافهم زعماء مصر فى القرن الثامن عشر قدوة طيبة فى الورع والتقوى والترفع عن

(١) الجبرتنى ج ٣ ص ١٠٠ .

(٢) أمين سامى ج ٢ ص ٢١٨ .

الصفائر والزهد في الدنيا ، كما كانوا أصحاب جرأة في الحق يعطون
الحكام ويغلظون لهم في القول ويتوعدونهم بعذاب جهنم اذا سددوا في
غوايتهم . فلا عجب اذا هوت في نظر الشعب منزلة « مشايخ
الوقت »

واذا كانت تلك المذكرة وما حوته من أراجيف وأكاذيب قد
كتبت بارشاد محمد علي وتوجيهاته ، فان الجبرتي يذكر صراحة أن
الشيخ محمد السادات هو الذي وضع صياغتها ، فهو يقول في
ترجمته للشيخ السادات « فلما أخرج الباشا السيد عمر وتقلد
المرجع النقابة وبلغ مأموله ، عند ذلك أظهر الكامن في نفسه وصرح
بالمكروه في حق السيد عمر ومن ينتمى إليه أو يواليه ، وسطر فيه
عرضا محضرا الى الدولة نسب إليه فيه أنواعا من الموبقات (١) .

وبعد أن وضعت تلك المذكرة كتبت عليها أسماء جميع المشايخ،
ثم حملت اليهم ليضعوا عليها أختامهم . وقد رفض بعض المشايخ
من ذوى الضمائر الاسهام في هذا العمل ، وقالوا ان هذه الاتهامات
لا سند لها من الحقيقة ، وحدث هرج ومرج بين المتحمسين لارسال
المذكرة ، وهم ابواق محمد علي وصنائه ، وبين المتنعين عن التوقيع
عليها . وقال الاولون انهم لا يقلون ورعا وتقوى وتدينا عن
المتنعين !! ثم تطاولوا عليهم بالسب والضرب . وانتهى بهم الامر الى
صياغة لفظية اخرى أخف في تحاملها وأكاذيبها على عمر مكرم ، ووقع
عليها بعض المتنعين ،

وبرز شيخ واحد ضرب أروع الأمثال في التمسك بالأخلاق
والثبات على المبدأ هو السيد أحمد الطحطاوى مفتى الحنفية ، لم
تخلد له شجاعته ، فرفض التوقيع على العريضة واستنكر ماسطر فيها .
وكان موقفه الرائع مدعاة لتحامل سائر المشايخ عليه وبخاصة الشيخ

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٩٣ - ٩٤ .

محمد السادات والشيخ محمد الأمير وتهده الزعماء بعزله من منصبه . ولكنه لم يخش غضبهم ولم يرهبه جبروت محمد علي . ولم يمض أسبوعان حتى اجتمعت كلمة محمد علي والزعماء النفعيين على عزل السيد أحمد الطحطاوى من افتاء الحنفية وعينوا مكانه الشيخ حسين المنصورى . ولما أبلغ بقرار عزله طوى الخلع التى كانت قد قدمت له عند ما تقلد منصب الافتاء وردّها الى أصحابها . وكان الشيخ السادات قد ألبسه الفروة ، فردّها أيضا اليه ، فاحتد عليه وأخذ يسبه علنا ويصف عمله بأنه جرم ويقول لجلسائه : « أنظروا الى هذا الحبيث كأنه يجعلنى مثل الكلب الذى يعود فى قيئه » وما كان السيد أحمد الطحطاوى بالحبيث ولا بالمنافق فقد احتفظ لطائفة العلماء بقبس من جلالها وروعيتها وسط دياجير الظلام . وقد اعتكف الشيخ الطحطاوى فى داره لا يبرحها الا الى الشيوخونية بجوار منزله ، واعتزل المشايخ وأثر التباعد عنهم ، وكانوا لا ينفكون عن المبالغة فى ذمه والخط من قدره لأنه « لم يوافقهم فى شهادة الزور » ثم أكد الجبرتى هذه الحقيقة مرة ثانية وهو يترجم للسيد محمد السادات فيقول ان الزعماء أوسعوا الشيخ الطحطاوى سخطا ومقتا وعزلوه من الافتاء لأنه « تنحى عن الشرور ، وامتنع من شهادة الزور » (١)

(١) أعيد الشيخ أحمد الطحطاوى الى مشيخة الحنفية فى غرة صفر ١٢٣٠ (١٣ من يناير ١٨١٥) عقب وفاة الشيخ حسين المنصورى . وكان محمد علي قد أراد أن يكفر عن فعلته معه فقلده الخلعة ، كما قدم الشيخ الشنوائى شيخ الجامع الأزهر له خلعه ، « ولم يختلف فيه اثنان » .

الفصل التاسع عشر

انتهاء الزعامة الشعبية بنفى عمر مكرم

نفاق الزعماء ابان مذبحة الماليك :

مضى محمد على ينفذ مخططه السياسى . فبعد ان تخلص من عمر مكرم تهاوى مركز سائر الزعماء . وشرع يخطو الخطوة التالية وهى انزال ضربة ساحقة بالامراء الماليك حتى تصفو له الجبهة الداخلية فى مصر وينفرد بحكم البلاد آمنا مطمئنا . وكان الماليك يشكلون عنصرا هاما له خطره وقدره فى الحياة السياسية فى مصر . كانت الخصومة على ضراوتها بين الماليك وبين محمد على . فالماليك يعتبرون انفسهم أصحاب البلاد ويعتقدون ان محمد على رجل دخيل قد اغتصب الحكم من ايديهم . أما محمد على فكان ينظر اليهم على انهم مصدر خطر يهدد سلطته . وقامت الحرب سجالا بينه وبينهم . ولكن كان الزمن حليفا قويا لمحمد على . فقد طوى الموت عثمان بك البرديسى ومحمد بك الالفى وشاهين بك المرادى وهم من زعماء الماليك الذين كانوا يطمعون فى الحكم . وغدا ابراهيم بك رجلا طاعنا فى السن بعد أن حكم مصر سنوات طوالا قبل مجيء الحملة الفرنسية الى مصر ، وهدت السنون من جبروته ، وأضعفت من قوة أتباعه . وتطرق اليأس الى نفوس الامراء الآخرين اذ كانوا أقل عددا وأضعف جندا . يضاف الى ذلك أن الحروب التى خاضها الماليك سواء ضد الفرنسيين أو العثمانيين أو قوات محمد على قد انهكت قواهم . وقد اثبتت لهم التجارب المريرة التى عاشوها خلال السنوات الاولى من ولاية محمد على أنه رجل غادر لا يقيم عهدا ولا يحترم

ميثاقا ، فكانت هناك أزمة عدم ثقة بين المماليك وبين محمد علي . ولكنه استطاع أن يبدد أزمة عدم الثقة وأن يخدع مئات منهم استمالهم من أقاليم الوجه القبلي إلى الإقامة في القاهرة في مقابل أرزاق وفيرة أجراها عليهم . واطمأنت نفوس المماليك إلى حياة الدعة والرفاهية في العاصمة والبعد عن حياة الكفاح فعاشوا منعمين في القاهرة تحت مراقبته المستمرة الدقيقة . وكانت هذه خطة مأكرة من محمد علي لتجميعهم في العاصمة حتى يسهل عليه إبادتهم إبادة جماعية أو كما يقول الجبرتي « كان قصده الباطني صيدهم » وكان إبراهيم بك الكبير قد أوجس خيفة من هذه السياسة الناعمة التي اتبعها محمد علي حيال المماليك واشتم رائحة الغدر إذ قال أن محمد علي اتبع هذه الخطة « لفرض سوء يكنه في نفسه وشبكة يصطاد بها غيره ، فأننا سبرنا أحواله وخيائنه » وكان هذا التعليق حكما صائبا من إبراهيم بك لأنه كان قد اكتسب خبرات واسعة في أساليب الحكم والإدارة والسياسة وانضم إليه عثمان بك حسن وبقياء في الصعيد مع نفر من أتباعهما ولكنهم لم يكونوا مصدر خطر كبير .

وبعد أن نجح محمد علي في تجميع الفالجية العظمى من المماليك في القاهرة لم يبق أمامه إلا تحقيق هدفه ، فدبر مؤامرة محكمة لاغتيالهم اغتيالا جماعيا في ضحوة يوم الجمعة ٢ من مارس ١٨١١ (١) واستمرت عمليات القتل والذبح طوال النهار وزلغا من الليل . وتطورت المذبحة من جريمة سياسية استهدفت التخلص من خصوم سياسيين إلى عملية انتقامية وحشية بعد أن أصبح هؤلاء الخصوم جثثا هامدة . فصدرت الأوامر بسلخ رؤوس عظماء المماليك ، وأعقبته هذه المذبحة نزول الجنود الألبانيين إلى المدينة حيث اقتحموا بيوت المماليك يقتلون من فيها من الاتباع وينهبون أثاثها ونفائسها ويغتصبون نساءها ، واستمروا عمليات القتل

(١) يذكر الجبرتي أنه كان يوم الجمعة ٦ من صفر ١٢٢٦ وهو يوافق - طبقا

لكتاب التوفيقيات الإلهامية - ٢ من مارس ١٨١١ .

والنهب . وامتدت آثامهم الى بيوت اعيان الشعب المصرى فكانوا يدخلونها بحجة التفتيش « ويقولون عندكم مملوك او سمعنا ان عندكم وديعة لمملوك ، وبات الناس واصبحوا على ذلك . . . ونهبت دور كثيرة من دور الاعيان الذين ليسوا من الامراء المقصودين » . واستمرت عمليات القتل والسلب فى القاهرة الى اليوم التالى (السبت) واشتد الكرب بالاهالى ، ونزل محمد على فى صبيحة هذا اليوم من القلعة الى المدينة لايقاف النهب ومنع اعتداءات الجنود على الشعب . وكان محمد على فى حراسة عسكرية كبيرة احاطت به من كل جانب للمحافظة عليه . وكان يبدو على ملامح مرافقيه الابتهاج الشديد بالنكبة التى نزلت بالممالك . وقد تحق بمحمد على ابنه طوسون . ويقول الجبرتى انه « لولا نزول الباشا وابنه فى صبح ذلك اليوم لنهب للعسكر بقية المدينة وحصل منهم غاية الضرر » . واما القبض على الاجناد والممالك فمستمر ، وكذلك كل من كان يشبههم فى الملبس والزي . « ويقدر الجبرتى عدد القتلى من الممالك - من امراء وكشاف واتباع - بأكثر من ألف شخص فى القاهرة والاقاليم » .

فى هذا اليوم - السبت ٣ من مارس ١٨١١ - اظهر المشايخ علماء الازهر نفاقا ليس بعده نفاق ، وهانت عليهم كرامة العلم وتناسوا المواقف المشرفة التى وقفوها بزعامة عمر مكرم فى وجه محمد على للحد من مظالمه . ففى ضحوة اليوم التالى للمذبحة عقدوا اجتماعا قرروا فيه الذهاب الى محمد على « لملاقاته والسلام عليه والتهنئة بالظفر » . والحق ان الانتصار الذى ظفر به محمد على بلبع الممالك كان انتصارا رخيصا يقوم على الغدر والخسة والجبن والمجافاة لقواعد الاخلاق والانسانية ومثل هذا الانتصار لا يستحق ان يتحرك له المشايخ علماء الازهر ، وكان مسلكهم بمثابة تأييد سافر لموقف محمد على من مذبحة القلعة . ولاشك انه كان خيرا للعلماء ولسمعتهم ان يلتزموا جانب الحيطة ازاء هذا الحادث . وسرعان ما حملت الى محمد على انباء هذا الاجتماع الطارئ

الذى عقده العلماء ، وكان يقوم وقتئذ بجولته في القاهرة لوقف اعتداءات الجنود الألبانيين على الشعب . فاغتبط لموقف العلماء ورأى أن يبادرهم بالزيارة فذهب اليهم في منزل الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر وأمضى معهم ساعة من الوقت وصفها الجبرتي بأنها « ساعة لطيفة » .

محمد على يصبث بكرامة الشرقاوى

ولكن كان محمد على لا يشعر في قرارة نفسه بأى تقدير للعلماء ولم يعد يستمع لشفاعتهم أو يقبل رجاؤهم ، وهذه حقيقة يقررها أحد الفرنسيين المقربين الى محمد على ممن عاشوا في مصر ابان هذه الاحداث وهو مانجا Mengin فيقول ان الباشا أصبح لا يعير وساطة المشايخ أى اهتمام لان معظمهم قد باعوا أنفسهم له وكانوا يستجيبون لرغبة محمد على استجابة عمياء (١) .

وليس أدل على زوال مكانة العلماء من نفس محمد على من هذا الحادث الذى وقع اثناء هذه الزيارة التى قام بها للشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر في منزله . كان قد التجأ اثنان من الكشاف المماليك الى منزل الشيخ الشرقاوى فتشفع الشيخ لدى محمد على كي يمنحهما الأمان ولا يقتلهما وقال له الشيخ الشرقاوى كلاما مؤثرا « لاتفضح شيبتي يا ولدى ، واقبل شفاعتي ، واعطهما محرمة الأمان » (٢) فتظاهر محمد على بقبول شفاعته ، ووعد بأن يرسل لهما عند عودته الى القلعة كتابا يؤمنهما على حياتهما ، وانصرف من دار الشيخ الشرقاوى مستأنفا جولته ، ولما صعد الى القلعة أرسل خطابا يطلبهما اليه . واشتم

(١) أنظر تقريرا ضافيا مؤرخا في ٢٠ من يناير ١٨١٢ كتبه مانجا

عند وصوله الى كورفر وبعث به الى وزير الخارجية الفرنسية .

Driault Edouard. Mohamed Aly, et Napoléon. (1807-1814)

La Caire..1925, pp. 157-162

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ١٢٩ .

الرجلان رائحة الفدر من هذا الخطاب ، وافصحاً للشيخ الشرقاوى عن مخاوفهما . واستبعد الشيخ الشرقاوى أن يضمّر محمد على لهما شراً بعد أن تشفع فيهما وقال لهما «لا يصح ذلك ولا يكون ، كيف أنه يأخذكم من بيتى ويقتلكم بعد أن قبل شفاعتى ؟» فذهبا مع الرسول الى القلعة حيث قبض عليهما وتم قتلها (١) .

وهكذا نكث محمد على بوعده واستهان بشيخ الازهر بعد أن كان يخفض للعلماء جناح الدل من الخوف . فكان هذا الحادث درساً قاسياً للشيخ الشرقاوى وسائر الزعماء أدركوا مغبة مسلكهم المعيب ازاء زعيمهم عمر مكرم وكيف نجح القولى في أن يتلاعب بهم ، ففصلهم أولاً عن عمر مكرم ثم أشركهم في الايقاع به ولما بلغ مآربه استهان بهم . ولكن جاء هذا الدرس متأخراً وبعد فوات الأوان . ولم يمتد الاجل بالشيخ الشرقاوى الا عاماً وبعض عام بعد هذا الحادث اذ طواه الموت في ٩ من اكتوبر ١٨١٢ .

سخرية الاقدار من الزعماء المتأمرين :

لما شغل منصب شيخ الجامع الازهر بوفاة الشيخ عبد الله الشرقاوى تطلع اليه الشيخ محمد المهدي آملاً في مساعدة محمد على له في تحقيق مطمحه . ولكن كان الاخير لا يشعر في قرارة نفسه بتقدير لهذا المهدي ، فلما تحدث المشايخ الى محمد على في شغل المنصب ترك لهم حرية اختيار الشيخ الجديد ولكنه اشترط عليهم ضرورة توفر شرط واحد في المرشح لمشيخة الازهر . يقول الجبرتي « ولما مات الشيخ المترجم (الشرقاوى) ومضى على موته ثلاثة أيام اجتمع المشايخ في يوم الاحد وطلعوا الى القلعة ودخلوا الى الباشا وذكروا له موت المترجم ، ويستأذنونهم فيمن يجعلونه شيخاً على الازهر . فقال لهم الباشا اعملوا رأيكم ، واختاروا شخصاً يكون خالياً عن الاغراض . وأنا أقلده ذلك . فقاموا من مجلسه ونزلوا الى بيوتهم » .

(١) الجبرتي ج ٤ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

كان هناك مرشحان سلطت عليهم الاضواء من بين أربعة علماء
وكان المرشح الاول شيخا اشتهر بالورع والزهد والتواضع الجم
هو الشيخ محمد الشنواني . وبلغ من زهده انه كان يغير ملابسه
عقب الفراغ من القاء دروسه في مسجد الفاكهاني بجهة العقادين ،
ثم يقوم بكنس المسجد وغسل القناديل ووضع الزيت والفتائل فيها
استعدادا لاضاءة المسجد ليلا . وكان يقوم بنفسه بتنظيف دورات
المياه الملحقة بالمسجد . ولما ترامت اليه انباء ترشيحه لمشيخة الازهر
اختفى في مصر القديمة ثلاثة ايام وترك عند أهل منزله ورقة يعتذر
فيها عن قبول المنصب . اما المرشح الآخر فكان الشيخ محمد المهدي
استطاع أن يجتنب بوسائله الخاصة نفرا من العلماء تحمسوا لتقلده
مشيخة الازهر وانطلقوا ينشرون له دعاية عريضة .

طلب محمد علي من كبير القضاة أن يدعو العلماء الى الاجتماع
لاختيار المرشح وفق الشرط الذي وضعه ، وانقسم الحاضرون
فريقين . كل فريق يناصر مرشحه وكان أنصار الشيخ المهدي أكثر
عددا وأحدثوا هرجا ومرجا في الاجتماع الذي انتهى باختيار المهدي
شيخا للازهر ، وكتبوا اعلاما شرعيا بتعيينه ورفعوه الى محمد علي
للتصديق عليه وصافح الحاضرون المهدي مهنئين وقرعوا الفاتحة
« وانقض الجمع وركب الشيخ المهدي الى بيته في كبكة وحوله
وخلفه المشايخ وطوائف المجاورين ، وشربوا الشربات ، وأقبلت عليه
الناس للتهنئة » . وانتظر أن يرسل له محمد علي خطابا بالتصديق
على تعيينه شيخا للازهر . ومضى يومان والموقف يزداد غموضا
بالنسبة للمهدي . وفي صبيحة اليوم الثالث أصدر محمد علي
قرارا بتعيين الشيخ محمد الشنواني شيخا للازهر فكان هذا
القرار مفاجأة اليمة للشيخ المهدي وأنصاره « وحصل لهم كسوف
وبطلت مشيخته » ولو أن الجبرتي عاد وهو يترجم للشيخ المهدي
فقال انه « لم يظهر الا الانشراح وعدم التأثير من الانكساف » .

وأول معنى يتبادر الى الذهن لعزوف محمد علي عن التصديق
على تعيين الشيخ المهدي شيخا للازهر هو أنه لم يكن مستوفيا

للشرط الذى اشترطه محمد على فيمن يشغل هذا المنصب وهو أن يكون المرشح « خاليا عن الأغراض » وكان محمد على يعرفه حق المعرفة فاذا هو رجل استبد به حب المال حتى طغى على تفكيره ومنهاجه فى الحياة . وحسبه أنه كان أسبق الزعماء مبادرة الى مطالبة محمد على بضمن خيانتة لعمر مكرم ، وكان محمد على يرى ان الميدان الطبيعى للشيخ المهدى هو التجارة واقتناء الثروات فرأى أن يتركه يمارس هوايته فى دنيا المال والتجارة يصيب من ورائها ثراء وأرباحا وفيرة . والمعنى الثانى من رفض محمد على تعيينه فى مشيخة الأزهر هو ان مكانة الشيخ المهدى كانت قد تهاوت فى عين محمد على فتخلى عن حليف الأمس بعد أن أدى المهدى دوره فى الواقعة بعمر مكرم خير ما يكون الأداء ، فلم تعد له حاجة فيه ، كما أن شيخ الأزهر الجديد - الشيخ محمد الشنوانى - لم يكن بالشخصية ذات الأطماع السياسية التى يخشى بأسها أو التى تعارض أساليب محمد على فى الحكم . والحاكم المستبد يستريح عادة الى هذا الطراز من الرجال . أما العلماء فقد أنكروا على الشيخ المهدى أحقيته فى هذا المنصب الدينى الرفيع ، ورأوا أن الشيخ الشنوانى أحق بالمشيخة منه ، فالمهدى لم يؤلف كتابا ولم يضع رسالة فى أى فن من الفنون ، وكان كثير التغيب عن القاء دروسه ، فلم يكن يحضر الا يوما واحدا أو يومين فى الاسبوع لانشغاله بجمع المال واستكثاره ، ولذلك أحضروا الشيخ الشنوانى من المكان الذى كان مختفيا فيه بمصر القديمة . وصعد الى القلعة وقابلوا به محمد على ، وتلاقت رغبة المشايخ مع رغبة الوالى فقلده مشيخة الأزهر وخلع عليه فروة سمور . ولما كان الشيخ الجديد رجلا فقيرا لا يملك من حطام الدنيا شيئا ذا بال ، وكانت داره صغيرة وضيقة لا تتسع لاستقبال المهنيين ، فقد أفرد له السيد محمد المحروقى كبير تجار القاهرة دارا رحبة فسيحة « وقام له بجميع الاحتياجات ، وأرسل من الليل الطباخين والفراشين والأغنام والأرز والخطب والسمن والعسل والسكر والقهوة ، وأوقف عبيده وخدمه لخدمة القادمين

للسلام والتهنئة ، ومناولة القهوة والشربات والبخور وماء الورد ،
وازدحمت الناس عليه ، واتوا أفواجا اليه . . . وحصل ازدحام
عظيم وخصوصا للتفرج على الشيخ الجديد ، وكأنه لم يكن طول
دهره بينهم ، ولا يلتفتون اليه .

ومضى الشيخ المهدي بقية حياته يكثر الذهب والفضة ويقتنى
العقار ، ويسعى في قضاء حاجات الناس في مقابل أجر يتقاضاه
منهم . وفي أواخر أيامه اشترى دارا في الكعكيين وعمل على توسيعها
وتجديدها وكانت تجاورها زاوية قديمة بها مدافن فهدمها وضمها
الى الدار بعد أن أخرج عظام الموتى من قبورهم ونقلها الى قرافة
المجاورين ، وقرر الجبرتي أنه سمع هذه الحادثة بنفسه من الشيخ
المهدي وقد أبدع في تنظيم الدار وجعلها مسكنا لزوجتين له .

واذا كان الشيخ محمد المهدي قد نجح نجحا بعيدا في انماء
ثروته فقد جانبه التوفيق في كثير من المواقف ، وفقد تقدير
الشعب والزعماء والحكام ، ولم يبلغ عشر معشار المكانة التي سما
اليها الزعيم عمر مكرم ابان مجده السياسي . ويختتم المؤرخ الجبرتي
ترجمة حياة الشيخ المهدي بعبارة تصور حياته وافتتانه بالمال
وتعلقه بالدنيا أدق تصوير . فقال « فسبحان الحى الذى لا يموت
ورحم الله عبدا زهد في الحياة الفانية ، وعمل لما بعدها ، ونظر الى
هذه الدار بعين الاعتبار . نسأله التوفيق والقناعة وحسن الخاتمة » .
أما حسن الخاتمة فيشير الجبرتي الى آخر عمل أقدم عليه المهدي
ليلا قبل موته مباشرة ، وهو فى سن الخامسة والسبعين . ولم يكد
يفرغ من هذا العمل حتى استلقى على ظهره وفاضت روحه ، وهو
جنب ، بجوار زوجته وكان ذلك ليلة الجمعة ٢ من صفر ١٢٣٠
(١٤ من يناير ١٨١٥) .

محمد علي يصادر أموال السادات ويهدد أرملته باغراقها في النيل
أما الشيخ محمد السادات فقد لقي مصيرا مشابها . لم يتردد
محمد علي في اتخاذ اجراءات صارمة عقب وفاته للتحفظ على ثروته

تمهيدا لمصادرتها وأبدى رأيه فيه صريحا عنيفا جارحا يتنافى مع مركزه كنقيب للاشراف وكشريك له سابق في التآمر على عمر مكرم . كان محمد على فى الفيوم حين جاز السادات الى ربه فى ٢١ من مارس ١٨١٣ فلما حمل اليه نبأ وفاته أمر بالآلا يتعرض احد لورثة المتوفى حتى يعود من سفره . وظل الموقف معلقا اربعة عشر يوما حتى وصل محمد على الى الجيزة . ولم يكد يستقر به المقام فيها حتى أصدر أمره بالتحفظ على دار الشيخ محمد السادات وفوجئ أهل منزله بقوة عسكرية تقتحم الدار وكان يصحبهم عدد من موظفى بيت المال وضعوا الاختام على خزائنه وعلى حجرات الدار وألقوا القبض على كاتب حساباته القبطى ولقبه عبد القدوس ، وعلى أحد فراشى النقابة . وأقيمت حراسة قوية حول الدار . وفى المساء عبر محمد على النيل الى القاهرة وصعد الى القلعة وفى صبيحة اليوم التالى ذهب اليه العلماء وتحدثوا معه فى رفع التحفظ على أموال المتوفى وقالوا له « ان بيوت الأشياخ مكرمة ولم تجر العادة بالحثم على اماكنهم ، وخصوصا أن هذا المتوفى كان عظيما فى بابيه ، وانتم أخبر به ، وكان لكم به مزيد عناية ومراعاة . فقال : نعم ، انى لا اريد اهانة بيتهم ، ولا أطمع فى شىء مما يتعلق بمشيختهم ولا وظائفهم القديمة . ولا يخفاكم ان المتوفى كان طماعا وجماعا للمال ، وطالت مدته ، وحاز التزامات واقطاعات ، وكان لا يحب قرابته ولا يخصصهم بشىء ، بل كتب ما حازه لزوجته ، وهى جارية ، نهاية ثمنها الفا قرش ، أو أقل أو أكثر . ولم يكتب لاولاد أخيه شيئا . فلا يصح ان أمة تختص بذلك كله ، والخزينة أولى به لاحتياجات مصاريف العساكر . ومحاربة الخوارج واستخلاص الحرمين وخزينة السلطان . وأنا أرفع الحتم رعاية لخواطركم . فدعوا له ، وقاموا الى مجلس الكتخدا ، .

كان محمد على يراوغ العلماء ويخادعهم بهذا الكلام حتى ينفضوا من عنده ، لأنه لم يتحول قيد أنملة عن رأيه ومضى فى اجراءاته التعسفية فارسل فى اليوم التالى قوة من الجنود رفعوا الاختام عن

دار الشيخ السادات واستدعوا سقاء الحريم، واستخدموا معه وسائل التعذيب ليدلهم على أماكن الخبايا ، كما أحضروا البناء الذي شيد الدار ليكشف لهم عن المخابىء السرية التى يعرفها بحكم عمله وهو يبنى الدار .

وقام أفراد القوة بتفتيش دقيق لجميع أماكن الدار ، واستمرت عملية التفتيش عدة أيام رابط فيها الجنود داخل المنزل وخارجه ، وأسفر التفتيش عن العثور على مخابىء كدست فيها مقادير وفيرة من الأوانى الصينية والقطن والصابون والبن والعسل والنحاس ثم عثروا على خزانة بها ١٢٧ كيسا اى ٦٣٥ جنيها . ورفض محمد على الاعتراف بهذه التركة وهدد أرملة الشيخ السادات باغراقها فى النيل اذا لم تفصح عن حقيقة التركة التى خلفها المتوفى . وامر عبد القدوس كاتب حسابات الشيخ السادات بتقديم كشوف دقيقة توضح الإيرادات والمصروفات عن السنوات السابقة كى يستطيع فى ضوئها تقدير التركة ، وبذل السيد محمد المحروقى كبير تجار القاهرة جهودا مضنية لدى محمد على حتى قبل أخيرا مصالحة الأسرة على الف وخمسة وخمسين كيسا اى ٥٢٧٥ جنيها وأن يترك لها باقى الاموال تتصرف فيها .

ولم يحترم محمد على وصية الشيخ محمد السادات اذ كان قد أوصى بأن يخلفه ابن أخيه أحمد يوسف فى نقابة الأشراف ومشيخة السادات ونظارة أوقاف المشهد الحسينى . فوزع محمد على هذه المناصب ، فاستبقى فقط مشيخة السادات فى ابن أخى المتوفى . أما نقابة الأشراف فقد عين لها الشيخ الدواخلى مكافأة له على تأمره بعمر مكرم ، كما قلد السيد محمد المحروقى نظارة أوقاف المشهد الحسينى واستأذن المحروقى من محمد على فى تزويج أرملة السادات لابن أخى المتوفى وهو أحمد يوسف أبو الاقبال واشترطت الارملة أن يطلق زوجته بحجة أنها كانت جاريتها زوجته بها فى حياة عمه وكان قد أنجب منها أولادا فنزل على رغبتها واستقر فى منزل عمه . غير أنه اقرارا للحقيقة والتزاما بواجب الحيدة نقول ان اشتراك

الشيخ محمد السادات في التآمر على عمر مكرم طمعا في الظفر
بنقابة الأشراف يجب ألا ينسينا مواقفه الوطنية النبيلة ابان ثورتى
القاهرة : الاولى ضد بونابرت والثانية ضد كليبر ، كما يجب ألا
نغفل حقه في مواقف له كثيرة أبدى فيها شجاعة فى الراى وجراة فى
الحق . فهذه المواقف فى مجموعها كفيلة بأن تغفر له شطرا من مواطن
الضعف والنقد .

الدواخل يلقي نفس مصير عمر مكرم :

أما الشيخ محمد الدواخل - وقد تولى نقابة الأشراف بعد وفاة
الشيخ محمد السادات ، وكان أول من سعى بالوقية بعمر مكرم -
فقد حفلت حياته بالعبر والعظات ، وبدا كان القدر نسج خيوطا
دقيقة للمأساة التى انتهت بها حياته ليجعل منها صورة أخرى
لمأساة عمر مكرم فى ملابساتها ومعقباتها .

اعتقد الشيخ الدواخل ان الوقت قد صفا له بعد أن ظفر بمنصب
نقيب الأشراف وأضفى عليه هذا المنصب الكثير من مظاهر الوجاهة
وكان له ولع شديد بها، فركب الحيل - كما سبق أن ذكرنا - ولبس
التاج وسار أمامه الجنود واقتنى الدور . ولم يكد يمر أربعة عشر
شهرا وهو فى وضعه المرموق الجديد حتى فجع فى ابنه فى مايو
١٨١٤ ولم يكن له من الاولاد الذكور سواه . وكان هذا الابن قد
جاوز سن البلوغ . فوجد عليه وجدا شديدا خرج به عما يجب أن
يتجمل به المؤمنون اذا ابتلوا بنقص فى الاموال أو الانفس
أو الثمرات . فكان يتفوه بعبارات نغمها الناس عليه . وبنى لابنه
مقاما وأقام مقصورة على غرار المقامات التى تقصد للزيارة وكان
حرىا به بعد فجيعة فى ابنه أن يمشى على الارض هونا ويتجرد من
صفات الغرور والتعالى على الناس ، ولكنه سدر فى غيه ، وكان هذه
الصفات المرذولة قد صبت فى دمه والتحمت بنفسه فلم يستطع منها
فكاكا . ويلوح أن محمد على قدر فجيعة الدواخل فى ابنه وأراد أن
يجامله ليخفف من وقعها فى نفسه ، فكان يقضى معه أوقاتا طويلة

يسترسل معه في المسامرة والمضاحكة ويظهر له لين الجانب ورقيق الشعور ، وأصبح الدواخلي من أقرب المقربين الى محمد علي . فلما آنس منه هذه الروح الطيبة وزاد اقبال الباشا عليه ركبه الغرور ، وزاد طمعه في الوالى ، وكان ينعم عليه بالاموال والمرتبات ، وتقدم الدواخلي من ناحيته بمطالب شخصية توالى بعضها فى اثر بعض وكان يستجيب له محمد علي . وكان يصعد كل يوم الى القلعة ويشار اليه ويفصل فى قضايا الناس . واعتقدت الجماهير أن الدواخلي هو الناطق بلسان محمد علي وانطلق ينشر أنباء غير صادقة عن اعتزام محمد علي العودة الى نظام الالتزام واعادة الاراضى الموقوفة الى نظارها القدامى ، وكانت كل هذه أراجيف . والحقيقة أن محمد علي كان يسايره فى أحاديثه فهو تارة يطلب اليه أن يعيد له حصص الالتزام ، وتارة أخرى يطلب تعيينه ناظرا لبعض الأوقاف . ويعتقد الدواخلي أن محمد علي قد أخذ برأيه وينزل من القلعة ويذيع فى مجالسه هذه الانباء الامر الذى أحدث بلبلة فى أفكار الجماهير التى اعتقدت أن محمد علي قد عاد الى احترام تقاليد البلاد وعاداتها . وبلغ من غرور الدواخلي انه كان يتناول على كبار القوم - مسلمين وأقباط - تارة بالسب وتارة بالضرب وارتفعت شكاياتهم منه الى محمد علي مما أوغر صدره عليه وضاق ذرعا بتصرفاته ، وبخاصة عندما أكثر من تعرضه للمقاضى فى الأحكام التى يصدرها . فصحت عزيمته على التخلص من الشيخ الدواخلي وذلك بعزله من منصب نقيب الأشراف ونفيه من القاهرة على غرار ما وقع للزعيم عمر مكرم واتجه فكره نحو السيد محمد المحروقي كبير تجار القاهرة وعرض عليه منصب النقيب ، ولكنه اعتذر وقال « أنا متقيد بخدمة أفندينا ومهمات المتاجر والعرب والحجاز » واقترح عليه اسناد النقابة الى الشيخ البكرى لأنها كانت مضافة اليه وهو أولى بها من غيره .

وفى ١١ فبراير ١٨١٦ طلب محمد علي المشايخ وفيهم الشيخ البكرى الى الاجتماع به فى القلعة ، ولم يوجه الدعوة الى الشيخ

الدواخلى . ولما اكتمل جمعهم أعرب لهم محمد على عن رغبته فى عزل الدواخلى من نقابة الأشراف ونفيه من القاهرة وتعيين الشيخ البكرى نقيباً للأشراف فاستصوب العلماء رأيه - وما كانوا يستطيعون غير ذلك - وألبسوا البكرى خلعة النقابة ولم يكذبوا ينفذ الاجتماع حتى أصدر محمد على قراراً بإخراج الدواخلى من القاهرة منفيًا الى دسوق . وحمل قرار النفى الترجمان احمد الملا وصاحبه أحد جنود الشرطة الأتراك . وذهبوا الى دار الدواخلى ، فدخلوا اليه على حين غفلة ، وكان مع حريمه ، ولم يكن يعلم شيئاً مما جرى ، فخرج اليهما ، وقدم له الترجمان أمر النفى ، فكان صدمة عنيفة له وتبخر غروره وأصيب بذهول . يقول الجبرتنى « فلما قرأه غاب عن حواسه ، وأجاب بالطاعة ، وأمره بالركوب فركب بغلته ، وساروا به الى بولاق الى المنزل الذى كان شراه بعد موت ولده ، وانسل مما كان فيه كانشلال الشعر من العجين وتفرق الجمع الذى كان حوله » (١) .

ولم تقف المأساة بالدواخلى عند هذا الحد ، بل عمل الأشياخ على تجريده فى مذكرة رسمية ترفع الى الاستانة كما فعل من قبل مع عمر مكرم . فشرعوا « فى تنميق عرضحال عن لسانهم بأمر الباشا بتعداد جنايات الدواخلى وذنوبه وموجبات عزله ، وان ذلك بترجيحهم والتماسهم عزله ونفيه » . وقد نسب المشايخ فى عريضتهم الى الشيخ الدواخلى عدة مأخذ منها أنه تطاول بالسب على حسين افندى شيخ رواق الاتراك بالازهر وحبسه على الرغم من انه رجل مسن ضليع فى علمه ويقوم بالتدريس . وأضافوا الى هذا الاتهام واقعة تنم عن خراب ذمته . ومنها أن فتوى شرعية صدرت من أحد الفقهاء ولم ترق هذه الفتوى الشيخ الدواخلى فتطاول على الفقيه بالسب والضرب ونزع عمامته من على رأسه . ومنها أنه يقحم نفسه فى

(١) الجبرتنى ج ٤ ، حوادث شهر ربيع اول ١٢٣١ (٣١ من يناير - ٢٩ من

فبراير ١٨١٦) ص ص ٢٤٣ - ٢٤٤

مسائل تدخل فى اختصاص شيخ الأزهر. وأنه يعترض على الأحكام التى يصدرها القاضى ويكتب فى بيته مستندات القضايا ويسبب اتباع القاضى ورسول المحكمة . ثم وضع الاشياخ أختامهم على العريضة وبعث بها محمد على الى نقيب الأشراف بدار السلطنة فى الامستانة . ويسمى الجبرتى الاتهامات التى وردت فى عريضة المشايخ نكات فارغة ويقرر أن هناك أسبابا أعمق بكثير من هذه النكات الفارغة هى التى حملت محمد على القولى على عزله ونفيه من القاهرة (١) .

ابتهاج المشايخ بنكبة الدواخل :

وبلغ من تدهور الزعماء وحقد بعضهم على بعض انهم لم يستطيعوا اخفاء ابتهاجهم بالنكبة التى وقعت بالشيخ الدواخل فقد « أظهر الكثير من نظرائه المتفقهين الشماتة والفرح وعملوا ولائم وعزائم ومضاحكات » .

وقضى الدواخل شهرا فى منفاه فى مدينة دسوق ثم نقل بشفاعه السيد محمد المحرقى الى المحلة الكبرى . وفى منفاه الجديد لم يسأم من الكتابة الى المحرقى متوسلا اليه كى يتدخل لدى محمد على لاستصدار قرار بالعفو السياسى عنه . وكان يدعم التماساته المكرورة تارة بحرصه على اداء فريضة الحج ، وتارة أخرى باشتداد وطأة المرض عليه ورغبته فى أن يموت بين ذويه فى القاهرة (٢) . ولم يستجب محمد على لالتماساته المتتالية . وقضى البقية الباقية من حياته فى منفاه شارد الذهن حزين الفؤاد حتى قضى نحبه فى المحلة الكبرى فى منتصف ربيع الاول سنة ١٢٣٣ (٩ من يناير ١٨١٨ - ٧ من فبراير ١٨١٨) وكان عمر مكرم على مسافة قريبة منه لا تتعدى بضعة كيلومترات اذ كان لا يزال منفيا فى طنطا ولم يكن قد صدر عفو القولى عنه . وقد دفن الدواخل فى

(١) المصدر السابق .

(٢) الجبرتى ج ٤ ترجمة الشيخ محمد الدواخل ص ص ٢٩٤ - ٢٩٦ .

المحلة الكبرى . ويعلق الجبرتي على نهاية الشيخ محمد الدواخلي تعليقا ينم عن شماته به لانه والحق يقال كان قوام الوقيلة بعمر مكرم فيقول « ان الذي وقع لهذا الدواخلي انما هو قصاص وجزاء فعله في السيد عمر مكرم ، فانه كان من اكبر الساعين عليه الى ان عزلوه واخرجوه من مصر (القاهرة) . والجزاء من جنس العمل (١) كما قيل .

فقل للشامتين بنا افيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا
لقد نجح محمد على أولا في اقضاء عمر مكرم عن الحياة العامة ،
ثم عمل على تصفية الزعامة الشعبية ، واصبح الاشياخ المتصدرون
الذين كانوا من قبل ملء السمع والبصر يعيشون على هامش الحياة
الى ان طواهم الموت الواحد بعد الآخر: سليمان الفيومي ثم الشرقاوى
فالسادات فالمهدى فمحمد الأمير ثم الدواخلي ويلخص الجبرتي الموقف
بعد نفى عمر مكرم فيقول « ان السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم
(اى على المشايخ) وعلى أهل البلدة ويدافع ويرافع عنهم وعن
غيرهم ، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية . ولم يزالوا بعده
فى انحطاط وانخفاض ، (٢) .

على هذه الصورة انتهت حياة زعماء الصف الاول ، أما زعماء
الصف الثانى من المشايخ والمتعممين فما كان فى استطاعتهم أن
يلفوا فى ظل هذا الحاكم القولى شيئا من علو المكانة ، كما أن
صفاتهم لم تكن تؤهلهم ليتبوعوا مكانا عليا . وقد أصدر الجبرتي
حكمه عليهم فى فبراير ١٨١٦ فقال انهم « انهمكوا فى الأمور
الدنيوية والخطوط النفسانية والوساوس الشيطانية ، ومشاركة
الجهال فى المآثم ، والمسارة الى الولاثم فى الافراح والمآثم ،
يتكالبون على الأسطة كالبهائم ، فتراهم فى كل دعوة ذاهبين ،
وعلى الخوانات راكعين ، وللكباب وللمحمرات خاطفين ، وعلى ماوجب
عليهم من النصح تاركين » .

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٤٥

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ١٠١

ابراهيم يمتحن كرامة العلماء :

وهذا التدهور الذى لحق بمشايخ الصف الثانى جعل ابراهيم باشا ابن محمد على يقسو عليهم ويمتحن كرامتهم ، وقد حدث أن ذهب المشايخ فى ديسمبر ١٨١٩ الى ابراهيم باشا يهنئونه بسلامة العودة من الاقطار الحجازية بعد انتهاء الحروب الوهابية ، فأدخلوا عليه فى ديوانه « لم يقم لهم ولم يرد عليهم السلام ، فجلسوا ، وجعلوا يهنئونه بالسلامة ، فلم يجيبهم ، ولا بالاشارة ، بل جعل يحدث شخصا عنده ، وقاموا على مثل ذلك منصرفين ومنكسفين ومنكسرى الخاطر . » وفى شهر شوال ١٢٣٥ (١٢ يوليو ١٨٢٠ - ٩ من أغسطس ١٨٢٠) وجهت الدعوة الى كبار المشايخ والشيخ البكرى نقيب الاشراف لحضور حفل فخم اقيم بمناسبة ختان عباس باشا حفيد محمد على (والى مصر فيما بعد) وادخلوا الى القاعة التى جلس فيها ابراهيم وكان « كل من دخل منهم يجلسونه من سكوت ، ولم يقم لواحد منهم ، ولم يرد على من يسلم ولا بالاشارة ، السلام ولم يكلمهم بكلمة يؤانسهم بها . وحضرت المائدة فتعاطوا الذى تعاطوه ، وانقضى المجلس وقاموا وانصرفوا من سكوت . »

ان الزعامة الشعبية كانت ستلقى حتما - ان عاجلا وان آجلا - مصيرها المحتوم على يد محمد على ، لأن هذا الحاكم القولى ما كان يطبق وجود زعماء مصريين يراقبون أعماله أو يحدون - على أى نحو من الأنحاء - من تصرفاته فى الحكم . أما الخديعة التى قام بها محمد على فى غرس بذور الانقسام بين الزعماء والتلويح لهم بالمناصب والمنافع ، وأما التحاسد والتباغض والتدهور الذى أصاب معظم الزعماء ، فكل ذلك كان عوامل ساعدت القولى على الاسراع بخطى حثيثة للتخلص منهم . وكان على الشعب أن ينتظر - بعد المأساة التى نزلت بعمر مكرم - نيفا وسبعين سنة لتظهر فى مصر زعامة شعبية جديدة من طراز جديد ولأهداف جديدة ، وتمثلت هذه الزعامة فى أحد عرابى ورفاقه .

الفصل العشرون

الزعيم فى منفاه

ظل عمر مكرم منفيا فى دمياط تحت حراسة مشددة « والحراس ملازمون له » ، لا يسمحون له بالاختلاط بأحد . وعاش سنوات مظلمة كثيفة الاظلام ينتظر الفرج الذى أبطأ عليه وأسرف فى الإبطاء . وكان يقضى سحابة النهار فى السير على شاطئ البحر ترويحاً لنفسه عما كان يشعر به من ضيق وآلام نفسية مبرحة ، ثم رأى أن يخلق لنفسه عملاً يتشاغل به فشرع فى بناء خان (١) ليقصده التجار الذين يقدون الى دمياط من موانئ الشام وبلاد الأناضول . وحدث أن زار دمياط قاضى القضاة - وكان يطلق على شاغل هذا المنصب قاضى عسكر افندى - وكان ذلك فى أواخر شهر ربيع الأول ١٢٢٧ (النصف الاول من ابريل ١٨١٢) فطلب اليه عمر مكرم أن يفتح محمد على فى نقله من دمياط الى طنطا واستجاب الوالى لرغبة عمر مكرم فغادر دمياط بعد أن أمضى فيها قرابة ثلاث سنوات .

وفى طنطا امتدت اقامة عمر مكرم منفيا زهاء سبع سنوات كان محمد على قد وُطد خلالها مركزه ، وكانت الانبياء قد بلغت

(١) الخان هو وكالة أو فندق يعد لاستقبال التجار وبضائعهم . وفى أعلاه مساكن للنازلين به تطل على ساحة تتوسط الخان . ويوجد بالخان عادة بئر ماء وميضأة ومسجد صغير ، كما توجد به حظيرة لدواب التجار .

القاهرة فى ٩ من أكتوبر ١٨١٨ باستيلاء ابراهيم باشا على الدرعية
عاصمة الوهابيين فى اقليم نجد . فأخذت القاهرة زخرفها وأزينت
سبع ليال متواليات ابتهاجا بهذا الانتصار العسكرى وانتهاء الحروب
الوهابية .

وفى غمرة هذه الأفراح بعث عمر مكرم بخطاب الى محمد على
يهنئه فيه بالنجاح الذى أحرزه فى الحروب الوهابية . وكأنه يذكره
بأن هذا المجد العسكرى والسياسى والدينى الذى ناله يجب الا
ينسيه الدور القيادى الذى قام به عمر مكرم واسفر عن تقليد
محمد على حكم مصر كما يجب الا ينسيه الخدمات الجليلة التى
أسداها عمر مكرم اليه فى توطيد مركزه خلال السنوات الاولى من
حكمه . وقد بعث بخطابه اليه مع حفيده السيد ضالع . وكان محمد
على مقيما فى الاسكندرية فقابله بالترحاب وسأله عن حال جده
وأعاد عليه السؤال عدة مرات والحفيد يقول له « بخير ويدعو لكم .
فقال له هل فى نفسه شىء أو حاجة نقضيها له ؟ فقال لا يطلب غير
البقاء لحضرتكم » . ثم انصرف الى المكان الذى نزل به ، فأرسل
اليه محمد على فى اليوم التالى أحد أتباعه يستفسر منه عما يطلبه
عمر مكرم ويجد الحفيد حرجا فى مفاتحة محمد على فيه .
ولم يزل هذا المبعوث يلاطف حفيد عمر مكرم ويستدرجه فى
الحديث حتى أفصح له عن رغبة جده فى أداء فريضة الحج . فلما
علم محمد على أجابه الى تحقيق رغبته وأذن له فى العودة الى القاهرة
والإقامة فى منزله حتى يحين موسم الحج . وترك له حرية اختيار
وسيلة السفر الى الحجاز اما برا واما بحرا . وقال محمد على « أنا
لا أتركه فى الغربة هذه المدة الا خوفا من الفتنة . والآن لم يبق
شىء من ذلك ، فانه أبى ، وبينى وبينه مالا أنساء من المحبة
 والمعروف » . وكتب له خطابا يفيض بأسمى مشاعر التقدير .
وقد أورد الجبرتى النص الحرفى لهذا الخطاب :

« الى مظهر الشماثل سنيها ، حميد الشئون وسميها ، سلالة

بيت المجد الاكرم ، والدنا السيد عمر مكرم ، دام شأنه . أما بعد ، فقد ورد الكتاب اللطيف من الجنب الشريف ، تهنئة بما أنعم الله علينا ، وفرحا بمواهب تأييده لنا ، فكان ذلك مزيدا في السرور ، ومستديما لحمد الشكور ، ومجلبة لثناكم ، واعلانا بنبل مناكم ، جزيتم حسن الثنا ، مع كمال الوقار ، ونيل المنى .

هذا وقد بلغنا نجلكم عن طلبكم الاذن في الحج الى البيت الحرام وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام ، للرجبة في ذلك والترجي لما هنالك . وقد أذناكم في هذا المرام ، تقربا لذي الجلال والاكرام ، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام ، فلا تدعوا الابتغال رلا الدعاء لنا بالقال والحال ، كما هو الظن في الطاهرين ، والمأمول من الأصفياء المقبولين . والواصل لكم جواب منا خطابا الى كتخدائنا . ولكم الاجلال والاحترام . مع جزيل الثناء والسلام . ، وقد ناول محمد على هذا الخطاب الى حفيد عمر مكرم كما سلمه صورة من خطاب بعث به الى كتخداه - وكيله في القاهرة . وقد وصل خطاب الكتخدا الى القاهرة قبل وصول النبا الى أسرة عمر مكرم . فزف الكتخدا اليها البشرى وانتشر النبا بين أهل القاهرة وكان الناس بين مصدق ومكذب حتى وصل عمر مكرم في ١٢ من ربيع أول ١٢٣٤ (٩ من يناير ١٨١٩) الى بولاق وقصد الى مسجد الامام الشافعي وزار ضريحه ثم صعد الى القلعة وقابل وكيل محمد على وسلم عليه ، وأنشد الشعراء قصائدهم مرحبين بمقدمه وكان يقدم لهم الجوائز والعطايا في حدود امكانياته المالية .

وعلى الرغم من ان غيبة عمر مكرم في المنفى قد استتطالت عشر سنوات فان الشعب لم ينس زعامة عمر مكرم واستمر تعلق الشعب به واستمر ازدهام الناس على داره . الأمر الذي أثار مخاوف محمد على . وشعر عمر مكرم بذلك فأثر الابتعاد عن الجماهير واعتكف في داره لا يغادرها ولا يجتمع به فيها الا ذووه .

ويرى الجبرتي أن اعتكاف عمر مكرم يدل على حصافته فيقول « واستمر ازدحام الناس أيا ما ثم امتنع عن الجلوس في المجلس العام نهارا ، واعتكف بحجراته الخاصة ، فلا يجتمع به الا بعض من يريده من الأفراد ، فانكف الكثير عن التردد . وذلك من حسن الرأي » (١) والعبارة الأخيرة تدل على أن اعتكافه كان سياسيا . وكانت هذه الحادثة هي آخر ما كتبه الجبرتي عن حياة عمر مكرم لأنه وقف في تسجيل الحوادث عند نهاية سنة ١٢٣٦ هـ (٢٧ من سبتمبر ١٨٢١) . ويهمننا أن نضيف هنا أن عمر مكرم تعذر عليه أداء فريضة الحج لأنه كان قد غدا رجلا طاعنا في السن ووهن العظم منه .

ما كان محمد علي ليدع عمر مكرم يمضي البقية الباقية من حياته في هدوء وطمأنينة . ولم يجد نفعا الحذر الذي أخذ عمر مكرم نفسه به . فالاعتكاف السياسي والانزواء في عقر داره في ضاحية مصر القديمة والشيخوخة وتدهور صحته كل أولئك لم يجعله بمنجاة من ظنون ومخاوف وبطش محمد علي . أما روح السباحة التي تظاهر بها محمد علي في ديسمبر ١٨١٨ حين أذن لعمر مكرم في العودة الى القاهرة من منفاه في طنطا فكان مردها الى عاطفة عابرة غمرته وهو على قمة السعادة التي كانت تفيض بها مشاعره وقتذاك بسبب انتصاره في الحروب الوهابية وارتفاع اسمه في جنبات العالم الاسلامي . وسرعان ما عاودته طبيعته القسائمة على العنف والاستبداد والغدر والتنكر لأصحاب الفضل عليه . كان أهل القاهرة قد قاموا في ٢٩ من مارس ١٨٢٢ بانتفاضة على حكم محمد علي معلنين سخطهم العميق على سياسته الضريبية الجائرة اذ كان قد فرض عليهم وقتئذ مزيدا من الضرائب واعتقد القولي أن للسيد

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
وانظر أيضا أمين سامي ج ٢ ص ٢٧٧ .

عمر مكرم يدا فى هذه الانتفاضة فأمر بنفيه من جديد الى طنطا
واخراجه من القاهرة فى نفس اليوم .

كان سلطان الدولة العثمانية قد طلب من محمد على ارسال
حملة عسكرية الى جزيرة كريت للقضاء على الثورة التى اندلعت فى
ارجاء الجزيرة سنة ١٨٢١ ضد الحكم العثمانى وعجز السلطان عن
اخمادها . واستجاب محمد على لرغبة السلطان ، وأعد حملة بقيادة
حسن باشا بلغ عدد أفرادها ٤٠٠٤ جندى من المشاة وأربعمائة من
الفرسان (١) . وبينما كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق
لتجهيز هذه الحملة بالموثون والسلاح - وقد أبحرت فيما بعد فى مايو
١٨٢٢ من الاسكندرية الى ثغور جزيرة كريت - فاجأ محمد على أهل
القاهرة بفرض ضريبة جديدة على العقارات المبنية . وكان قد قرر
هذه الضريبة أول الامر على العقارات المشيدة فى الأقاليم ولقى تدمرا
وسخطا بالفين من الأهلين . وكان يعتزم فرضها أيضا فى القاهرة
ولكنه آثر التريث حتى تهدأ العاصفة . فلما خفت حدة التدمر
شرع ينفذها فى القاهرة ووجد فى ارسال الحملة العسكرية المصرية
الى جزيرة كريت ذريعة لتحصيلها بحجة تغطية النفقات الحربية .
وتنفيذا لأوامره أرسل الكتخدا - وكيله - لجانا فنية يرافق
أعضاءها جنود مسلحون يجوسون خلال الديار فى مختلف أحياء
القاهرة . وذهبت فى ٢٩ من مارس ١٨٢٢ لجنة قوامها ثلاثة أعضاء
الى حى باب الشعرية ، وأثاروا بتصرفاتهم الشاذة سكان هذا
الحى . وكانت نفوس السكان مهياة من قبل للثورة . فطلب رئيس
اللجنة من أحد تجار الفاكهة - وكان كبير التجار فى هذه المنطقة
وزعيمها - أن يدلّه على مواقع المنازل التى يمتلكها لمعاينتها وتقدير

(١) انظر تفصيلات وافية عن هذا الموضوع فى كتاب دكتورة زينب راشد :
كربت تحت الحكم المصرى ١٨٣٠ - ١٨٤٠ القاهرة ١٩٦٤ من مطبوعات الجمعية
المصرية للدراسات التاريخية ص ٥١ - ٥٨

الضريبة عليها . وأغلظ له في القول ، فما كان من التاجر إلا أن أمسك بنبوت وانهاى به على رأس أعضاء اللجنة يوسعهم ضرباً وهو يصيح بسقوط الظلم والظلميان . وردد سكان باب الشعرية هتافات عدائية كانت مدوية عالية . وأغلقت جميع المحلات القائمة في هذا الحى ، واحتشدت الجماهير الصاخبة من كل حذب وصوب ، واتجهت في كتل متراصة الى دار الشيخ محمد العروسي شيخ الجامع الأزهر . وكان يقع منزله على مقربة من باب الشعرية . ووجه اليه متزعمو الحركة جارج الكلم واتهموه بالتقاعس عن الدفاع عن مصالح الشعب وبالركون الى مسالة محمد على طمعا ورهبا . وطلب منه الثائرون أن يذهب معهم الى الجامع الأزهر لعقد اجتماع عام على غرار الاجتماعات التي كان يشهدها الأزهر كلما اشتدت الخطوب بالشعب . ونزل الشيخ محمد العروسي على رغبتهم وتكون هوكب حاشد جرار انتظم الرجال والنساء والأطفال . وكان النساء يرتدين السواد تعبيرا عن سخطهن على حكم محمد على . وكان في مقدمة الهوكب الشيخ العروسي راكبا بغلته . وانطلق المتظاهرون يوجهون اليه السباب والشتائم ، بل ان بعضهم لم يتورع عن قذفه بالطوب . وكاد يتعرض لاصابات بالغة لولا أن تدخل الجنود في الوقت المناسب لمنع الاعتداء عليه ، اذ أحاطوا بالشيخ العروسي ودفعوا بغلته على الاسراع في خطاها حتى وصلوا به الى جامع الأزهر فأدخلوه وأغلقوا جميع أبوابه حتى يمنعوا دخول الشعب الثائر . (١)

واتخذ محمد على اجراءات سريعة صارمة لواد هذه الانتفاضة الشعبية التي تهدد مركزه فأرسل قوات مسلحة الى منطقة الأزهر استطاعت أن تسيطر على الموقف بعد عصر ذلك اليوم وتفرق الحشود . وعندئذ خرج الشيخ محمد العروسي ومعه الشيخ محمد

(١) Mengin , ouvr, cit. , t 2 , pp 244-246

الأمير متخفين من جامع الأزهر وصعدا الى القلعة حيث قابلا وكيل محمد علي . وباتت القاهرة ليلتها وظلت بضعة أيام تعيش على أعصابها كأنها على فوهة بركان مضطرب ينذر بالانفجار في كل حين وأن ، فالأسواق مقفرة والمحلات مغلقة على الرغم من أوامر الحكومة بضرورة فتحها والنفوس متحفزة محنقة ويتهدد محمد علي بتجديد الثورة وبخاصة بعد أن انتشرت أنباؤها في مختلف الأقاليم (١) .

وكان من الطبيعي - بعد أن أصيب الشعب بصدمة من الموقف الذي اتخذه علماء الأزهر - أن تعود به الذاكرة الى أيام النضال الذي حمل لواءه الزعيم عمر مكرم ، فكان الشعب يذكر بكل تقدير هذا الزعيم وكفاحه في الدفاع عن حقوق الجماهير الكادحة ورفع المظالم عنها . وقد نقل رجال الحكومة الى محمد علي أنباء همسات الجماهير وتطلعها الى عمر مكرم فاستبدت به الظنون بأن عمر مكرم هو الذي حرك الثورة ، وعند ذلك صحت عزيمته على نفيه مرة أخرى .

واذا كان الجبرتي لم يدون أحداث هذه المحنة الجديدة التي تعرض لها عمر مكرم ، لأنه وقف بكتابته عند ٢٧ سبتمبر ١٨٢١ كما سبق أن ذكرنا ، فإننا نلتبع ما بقي لعمر مكرم من خطوات أخيرة في حياته مما كتبه الدبلوماسي والمؤرخ الفرنسي مانجيا Mengin . فهو يقول ان محمد علي « خشي نتائج نفوذ رجل اعتكف اعتكافا تاما عن الناس ، فاتخذ اجراءات أملت بها رغبته في المحافظة على النظام والابقاء على سلطته وخشيته من تجديد قيام حركات مشابهة لهذه الانتفاضة فأوفد في ٥ من أبريل ١٩٢٢ أحد الضباط الى دار عمر مكرم في جهة أثر النبي بمصر القديمة لاقتياده الى منفاه . وكان عمر مكرم مستريحا في فراشه بالدور العلوي بعد

(١) ibid.

ان تناول طعام الغداء . فأيقظوه من نومه وهبط الى « المندرة » فلما أقبل عمر مكرم وقف له الضابط واقترب منه وقبل يده . فقال له عمر مكرم « خيرا ان شاء الله » فقال الضابط ان مولاه محمد علي يريد منه أن يرحل الى طنطا . فأجاب عمر مكرم بأنه مستعد للرحيل في أى وقت يشاء محمد علي ، وأنه سيعد سفينة يرحل عليها . فقال له الضابط ان الحكومة قد أعدت له سفينة ، وانها راسية في مرسى السفن بمصر القديمة ومهيئة للسفر فورا ومجهزة بكل ما يحتاج اليه في سفره . فأدرك عمر مكرم أن محمد علي مصمم على ابعاده من القاهرة في نفس اليوم . فخرج مع الضابط يحيط به الحراس وأبحرت بهم السفينة في مساء نفس اليوم وهو ٥ من ابريل ١٨٢٢ .

ويعلق الدبلوماسى والمؤرخ الفرنسى على نفي عمر مكرم للمرة الثانية فيقول « أراد الوالى اقضاء هذا الشيخ الطاعن فى السن لأنه اعتقد أنه هو الذى حرك الثورة الشعبية التى اندلعت فى ٢٩ من مارس ١٨٢٢ . ان هذا الرجل - وهو على حافة القبر - قد اختار له مسكنا فى الضاحية ، ليعيش فى هدوء ، بعيدا عن الجماهير وصخب المسائل العامة ، ولم يكن يغادر منزله . » (١) وهى شهادة رجل فرنسى كان من المقربين الى محمد علي ، وهى شهادة تدمغ القول بالتعسف وتدل على أنه لم يكن هناك ما يبرر اتخاذ هذا الاجراء الظالم فلم يقم دليل أو بادرة دليل على أنه كانت لعمر مكرم يد فى انتفاضة الشعب فى ٢٩ من مارس ١٨٢٢ ، ولكن كان محمد علي يتوجس خيفة من الزعيم وظل الى آخر أدوار حياة عمر مكرم يحسب له حسابا كبيرا ، لأنه كان فى شك منه مريب .

ولم تطل مدة نفي الزعيم هذه المرة اذ جاز الى ربه فى نفس السنة (١٨٢٢) وطويت صفحة زعيم مصري صميم كان كبير

(١) Mengin , ouvr. cit. , t II 246-247

الزعماء اتصف بالشجاعة الأدبية والصدق والصبر والثبات والترفع
عن الصغائر والتنزه عن الأحقاد الشخصية ، لم يستهوه جاه أو مال
أو سلطة ، ومن هنا كانت قيمته كزعيم وطنى وأخلاقى .

وقد عرفت حكومة الثورة فى مصر قدر هذا الزعيم وخلدت
ذكراه ، فشيدت مسجدا فخما يطل على أكبر ميدان فى القاهرة
وهو ميدان التحرير ، وأطلقت على هذا المسجد اسم عمر مكرم ،
كما أطلقت اسمه على عدد من المدارس فى بعض محافظات الجمهورية
العربية المتحدة ليزكر المصريون - كبارهم وصغارهم - كفاح هذا
الزعيم الذى قاد المقاومة الشعبية ضد العدوان الفرنسى ثم العدوان
البريطانى ثم استبداد محمد على وكانت معظم سننى حياته سلسلة
من المحن والمكاره صبر عليها صبر أولى العزم من الكرام المجاهدين .

المصادر والمراجع العربية التي وردت فى هوامش الكتاب مرتبة أبجديا

- ١ - أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٢٥ .
- ٢ - أحمد لطفى السيد : قصة حياتى .
- ٣ - توفيق الطويل (دكتور) : التصوف فى مصر ابان الحكم العثمانى مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، (لم تذكر سنة الطبع) .
- ٤ - حسين مؤنس (دكتور) : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، الطبعة الثانية ٦ ١٩٣٨ .
- ٥ - زينب عصمت راشد (دكتورة) : كريت تحت الحكم المصرى ، القاهرة ١٨٦٤ .
- ٦ - عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، طبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، أربعة أجزاء .
- ٧ - عبدالرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم فى مصر الجزء الأول ، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٥٥ ، الجزء الثانى، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٥٨ .
- ٨ - عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على . الطبعة الثانية ، سنة ١٩٤٧ .
- ٩ - على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . مطبعة بولاق ١٣٠٦ هـ ، عشرون جزءا ، (الأجزاء ١ ، ١٠ ، ١١ ، ١٧) .

- ١٠ - محمد رفعت رمضان (دكتور) : على بك الكبير . دار الفكر العربى ، (لم تذكر سنة الطبع) .
- ١١ - محمد شفيق غربال : محمد على الكبير . (سلسلة أعلام الاسلام) . القاهرة أكتوبر ١٩٤٤ .
- ١٢ - محمد فريد أبو حديد : سيرة السيد عمر مكرم من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٣٧ .
- ١٣ - محمد فؤاد شكرى (دكتور) : الحملة الفرنسية وظهور محمد على . مطبعة المعارف . (لم تذكر سنة الطبع) .
- ١٤ - محمد فؤاد شكرى (دكتور) : عبدالله مينو وخروج الفرنسيين من مصر . دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٢ .
- ١٥ - محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ - ١٨١١) القاهرة ٦ ١٩٥٨ ، ثلاثة أجزاء .
- ١٦ - مختار (لواء) : التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية . مطبعة بولاق ١٣١١ هـ .
- ١٧ - محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر الجزء الأول : عبد الرحمن الجبرتى - الحياة الفكرية والاجتماعية القاهرة ، ١٩٥٥
- الجزء الثانى : الأزهر والعلماء ، أيام الماليك . القاهرة ١٩٥٦
- الجزء الثالث : شعب مصر وكفاحه ، صفحات من سيرة محمد على . الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ .
- ١٨ - نقولا ترك : مذكرات نقولا ترك . نشر وتعليق جاستون فييت . مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ١٩ - امين سامى : تقويم النيل ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، سنة ١٩٢٨ ، الجزء الثانى .

**المصادر والمراجع غير العربية
التي وردت في هوامش الكتاب مرتبة أبجدياً •**

1. Achille de Vaulabelle, Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, (10 vols., Paris, 1832), t. IX.
2. Bridier, L., Une Famille Française, Les de Lesseps, (Paris, 1900).
3. Clot Bey, A.B., Aperçu Général sur l'Egypte, Paris 1840.
4. Combe Etienne, L'Egypte Ottomane de la Conquête par Sélim (1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798). Précis de l'Histoire d'Egypte, 4 vols., t. III, Le Caire 1933.
5. Delaporte, Abrégé chronologique de l'histoire des Mamelukes d'Egypte, depuis leur origine jusqu'à la conquête des Français. Description de l'Egypte. Imprimerie Impériale, Paris 1809-1822, Etat Moderne, t. II.
6. Douin George, L'Egypte de 1802 à 1804. Correspondance des Consuls de France en Egypte. (Recueillie et publiée par Douin G.) Le Caire, 1925.
7. Douin George, Mohamed Aly, Pacha du Caire, 1805-1807, Correspondance des Consuls de France en Egypte (Recueillie et publiée par Douin G.), Le Caire, 1926.
8. Douin George et Mme Fawtier Jones, L'Angleterre et l'Egypte. La Campagne de 1807, Le Caire, 1928.
9. Douin George et Mme Fawtier Jones, L'Angleterre et l'Egypte. La Politique Mameluke, t. I, 1801-1803, Le Caire, 1929.
10. Douin George, L'Angleterre et l'Egypte. La Politique Mameluke, t. II, 1803-1807, Le Caire, 1930.

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

تقدم في ١٠ يولية ١٩٦٧
العدد الثامن والثلاثين من :

من مقالات هذا العدد :

الكتاب العربي ومعركة المصير
دكتور عبد الحميد يونس

الثورة والتنظيم السياسي
سيد حامد النسلج

صفحات مطوية عن فلسطين
فؤاد شبل

الإقتصاد الإسرائيلي
دكتور راشد البراوي

أرض البطولة... الجزائر
من فتحي خليل

لماذا نفد صبرنا
محمد عيسى

تيارات « الكلمة العربية »
يقدمها جمال بدران

عد الأبواب الثابتة

رئيس التحرير،

Bibliotheca Alexandrina



0242944

ومن

نوعه،

وذلك

القائم

تدوين

ويطلب من مكتبة مصر

٣ شارع كامل صفي « الفجالة »